

الادب العباسي

عصر نفوذ الخلفاء العباسيين

كيف قامت الدولة العباسية ؟

لا يذكر التاريخ الاسلامي في ثناياه وأطواره ، وحوادثه وأحداثه ، أمر غريب ، ولا حدثا أعجب ، من قيام الدولة العباسية ، على أنقاض ملك بني أمية عرشهم الذي رفعوه على السياسة والدهاء ، وكثرة البذل والسخاء ، وقوة سلطان وطول البطش والعنف والظلم .

وكان قيام ملك بني العباس نتيجة لمقدمات كثيرة ، ونهاية لقصة غريبة مثيرة خاتمة لأسباب تضافرت على القضاء على دولة الأمويين ، ووضع مقاليد الخلافة الإسلامية في أيدي العباسيين :

- ١ -

وأول هذه الأسباب : اضطهاد الأمويين لآل الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، وتشريدهم ونفيهم وحبسهم وإنزال الهوان بهم في كل مكان ، مما يصبو بعضه فيما بعد دعبل الشاعر العباسي المشهور ، في إحدى قصائده حيث يقول :

ملا مكن في أهل النبي فاتهمهم
 لهم كل حين نومة بمضاجع
 أرى فيهم (١) في غيرهم متقسما
 قال رسول الله نحف جسمهم
 بنات زياد في القصور مهونة
 إذا وتروا مدوا إلى أهل وترهم
 أحباء ما عاشوا وأهل ثقات
 لهم في نواحي الأرض مخلفات
 وأيديهم من فيهم صفرات
 وآل زياد حفل القصرات (٢)
 وآل رسول الله في الفلوات
 أكفنا عن الأوتار منقبضات

ولقد شمل هذا الاضطهاد : البيت العلوي ، من ينسبون إلى الإمام علي ابن أبي طالب ، ابن عم الرسول الكريم ، والبيت العباسي ، من ينسبون إلى العباس بن عبد المطلب ، عم محمد خاتم المرسلين ، وأكرم الخلق على الله .
 ومصرع الحسين بن علي في كربلاء ، ومصارع أهله وأسرتهم ، ونفي بعضهم من الحجاز ، شاهد على ما نقول .

ولما ازداد عنف الأمويين ، واستبدادهم بالعلويين ؛ هب ساداتهم يؤلفون الجماعات ، ويكونون العصابات ، ويعلمون الحروب والثورات على خلفاء بني أمية .
 وكان الشيعة يرشحون للخلافة المسلمين من آل البيت سيدا بعد سيد : فدعوا للحسن ، ثم لأخيه الحسين ؛ ثم لأخيهما الأصغر محمد بن الحنفية ، ثم لابنه أبي هاشم العلوي بن محمد .

وكان أبو هاشم هذا مقبلا في الحجة ، بالقرب من بادية الشام ، حيث أقام على ابن عبد الله بن العباس ، سيد البيت العباسي العريق . ويروى بعض المؤرخين أن أبا هاشم — الذي لم يكن له أبناء يريثون دعوتهم — رشح لإمامة الشيعة بعده ابن عمه عليا هذا ، وأدلى بنصبيته من الخلافة إليه وإلى أولاده ، وأوصى أوليائه باتباعه ويروى آخرون أنه تنازل لمحمد بن علي .

(١) أنى : الخراج والغنيمة . صفرات : خاليات

(٢) حفل القصرات : ضخم الاعناق ، كناية عن سمنهم .

ومهما يكن فقد آلت دعوة آل البيت إلى بيت بنى العباس ، فصارت الشيعة معهم ؛ يؤيدونهم ويؤازرونهم ، ونهضوا هم بالنسبة : كابر عن كابر ، وما بهد بهد .
 ما جد : علي العباسي ، ثم ابنه محمد بن علي ، الذي ذاعت على يده الدعوة لآل البيت في كل مكان ، وألف أتباعه الجماعات السرية في الكوفة وخراسان ، وكان محمد يبصر دعائه بأساليب الدعوة ، والبلاد التي يبشون فيها مذهبهم ، ويوصيهم بتركيز جهودهم في خراسان ، حيث : المشرق ومطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق ، وحيث ضعف سلطان بنى أمية ، وسلامة القلوب والصدور ، والحب لآل النبي وسلالته .

ثم آلت الدعوة بعد محمد بن علي إلى ابنه إبراهيم ، الذي حبسه مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، حتى مات في الحبس ، وقام بالأمر بعده أخوه أبو العباس ولقد نجحت دعوة الدعاة نجاحا تاما ، وآمن بها الملايين من المسلمين ، في العراق وفارس ، وأخذوا ينزلون الأمويين في هذه البلاد ، فطردوا ولائهم في خراسان ، وهزموا جيوشهم في فارس ، حتى صارت خراسان وفارس ثم أكثر العراق في قبضة الميمنة ، أتباع بنى العباس ، وشيعة آل البيت .

وفي ربيع الأول من عام ١٣١ هـ ، أعلن أبو العباس السفاح من فوق منبر المسجد الجامع بالكوفة ، بدء قيام الدولة العباسية ، وانتهاء دولة بنى أمية . وكان من خطبته قوله : « أنا السفاح المبيح ، والثائر المنيح » : وهذا لقب السفاح .

ثم نهضت جيوش السفاح لتنازلة بنى أمية وجنودهم في الجزيرة والشام . وفي معركة « نهر الزاب » قننى العباسيون على خيرة جيش مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، وفر مروان بن محمد إلى مصر ، مهزوما مدحورا ، حيث تبعه صالح بن علي عم الخليفة العباسي ، وقبض عليه ، وقتله في آخر العام نفسه .

وثاني تلك الأسباب التي ساعدت على قيام الدولة العباسية : ما كان من اضطهاد الأمويين للعوالي عامة .

فقد كانت دولتهم - كما علمنا - عربية أعرابية خالصة ، إذ كانوا يحتضرون بالعرب
اعتزازا كبيرا ، ويحتفرون الموالي احتقارا شديدا ، حتى كانوا لا يستعينون في
دولتهم بأحد منهم ، وكان الحجاج واليهم على العراق يأمر أن لا يؤم بالكوفة
إلا عربي ^(١) ، وكان لا يلي الخلافة أحد من أبناء الموالين ، الذين ولدوا من
من أمهات أعجميات ^(٢) ، وكان العربي في جيش الخلافة في فرق القريسان ، والموالي
في عداد المشاة ، ومنع الأمويون زواج الموالى بالعربيات ، بل أبطلوا ما وقع من
أمثال ذلك الزواج ، يروي أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني أن رجلا من
الموالي خطب عربية من بني سليم وتزوجها ، فذهب محمد بن بشير الخارجي إلى المدينة
وشكا إلى واليها إبراهيم بن هشام ، فأرسل إبراهيم إلى هذا المولى ، ففرق بينه
وبين زوجته ، وضربه مائة سوط ، وحاق رأسه ولسنته وحاجبيه ، فقال محمد بن
بشير في ذلك :

قضيت بسنة وحكمت عدلا ولم ترث الحكومة من بعيد
وفي المائتين للدول نكال وفي سلب الواجب والحدود ^(٣)
ويقول الأصفهاني : كانت العرب إلى أن عادت الدولة العباسية ، إذا أقبل العربي
من السوق ، ومعه شيء ، فرأى مولى ، دفعه إليه ليحميه عنه ، فلا يتمتع ، ولا
السلطان يغير عليه . وصدق الجاحظ إذ يصف دولة الأمويين بأنها عربية
أعرابية ^(٤) .

من أجل ذلك كله فقد الموالي على دولة بني أمية ، وأضرروا لها الكراهة
والحق والبطش . . . وكان الفهر الفارسي أكثر الموالى حندا ، وأشدهم مودة ،
وأعظمهم غيظا وحنقا على سلطان الأمويين الجائر ، وحكمهم الباطش ، وطفيتهم
الشديد . لأن له تاريخا قديما ، وملكا بائدا ، وحضارة موروثة ، وكان الفرس

(١) ٢٠٧ / ١ العقد الفريد .

(٢) ٢٩٧ / ٣ المرجع نفسه .

(٣) الأغاني ١٥٠ ج ٤

(٤) ٢٠٦ ج ٣ اليان والدين

يحملون باستعادة دولتهم ، واستقلال أمتهم ، وإحياء حضارتهم . . ولهذا كان لهم الفضل الأكبر ، واليد الطولى في قيام ملك بنى العباس ؛ فالثورة على الأمويين قامت في بلادهم ، وكانوا هم جندھا والمتحاربين في سبيلها ، وكان منهم القواد الكبار ، الذين حطموا خلافة بنى أمية وعروشهم ، كما بنى سلطنة الخلال ، وأبى مسلم الخراساني .

ولهذا كله كان للفارسيين في الدولة العباسية نفوذ كبير ، وهقام خطير ، مما يسوره لنا قول داود بن علي عم السفاح في خطبة له : « يا أهل الكوفة : إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاه الله لنا شيعتنا ، أهل خراسان ، فأحيائهم حقنا ، وأفالج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ؛ وقول أبى جعفر المنصور : « يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا . وأوصى بهم قبل وفاته ابنه الممدى فقال : « أوصيك بأهل خراسان خيرا ، فإنهم أنصارك وشيعتك ، الذين بذلوا أموالهم في دولتك ، ودمائهم دونك ، ومن لا يخرج محبتك من قلوبهم : أن تحسن إليهم . وتتجاوز عن مسيئتهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخاف من مات منهم في أهله وولده . »

— ٣ —

وثالث الأسباب في قيام الدولة العباسية ، والقضاء على الخلافة الأموية : هذه العصبيات القبلية ، التي أشعل نارها خلفاء بنى أمية ، مما يفسره كثير من الأحداث التاريخية ، والقصائد الشعرية في هذا العصر . . وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك في أول هذا الكتاب . وقلنا إن هذه العصبيات ظلت ملازمة لعهد الأمويين . . وأخيرا وجدنا مروان بن محمد يتعصب لقومه نزار على اليم ، فاحترقت اليم عنه إلى الدعوة العباسية الناشئة .

وكان الخلفاء الأمويون طول ملكهم يؤججون الخلاف بين القبائل العربية ، ليشغلوا الناس عن سياستهم ، ويصرفوهم عن تتبع أعمالهم .

ولما قام أبو مسلم الخراساني بأمر قيادة جيوش العباسيين في خراسان ، لم يجد صعوبة ، في تأجيج نيران الخصومات بين القبائل العربية وزعمائها ، وبذلك أمكنه أن يتغلب عليهم جميعا ، وأن يجعلهم يفنون أنفسهم بأيديهم ، حتى لم يستطع زعماء العرب في هذه البلاد من أمثال نصر بن سيار زعيم المضريين ، وجرير بن شبيب الكرمانى سيد اليمانية : ، وشيدان بن سلمة الحارورى رئيس ربيعة ، أن يستطاع هؤلاء جميعا الوقوف أمام الخراسانيين ، الذين زحفوا كالسيل المنهمر على العراق والشام وكان كل عربى شديد التعصب على أبناء القبائل العربية الأخرى . مما تصوره لك هذه الأبيات ، يقول رجل من بني أسد بن خزيمه يمدح يحيى بن حيان :

ألا جعل الله اليمانيين كلهم	فدى لفتى الفتيان يحيى بن حيان
ولولا عريق فى من عصبية	أفلت : وألفا من محمد بن عدنان
ولكن نفسى لم تطب بعشيرتى	وطابت له نفسى بأبناء قحطان

فلا عجب إذن أن تنقرض دولة بنى أمية ، وينشق من الأفاق نور جديد ، يؤذن بقيام الخلافة العباسية الفتية الناشئة ، التي بادرت بقتل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، وتشريد الأمويين والقضاء عليهم فى كل مكان . وكان الشمرام يؤججون نار الانتقام فى نفوس العباسيين . دخل سديف الشاعر مولى بنى العباس على السفاح ، فألقى بمجلسه سليمان بن هشام هادئا مطمئنا ، لتأمين أبى العباس إياه ، فأشبه :

لا يغرنك ما ترى من رجال إن بين الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمسويا
فأمر السفاح من فوره بقتل سليمان ناكثا بعهده أمانته . ودخل شبل عهد الله مولى بنى هاشم عليه ، أو على عمه ، وعنده من بنى أمية نحو المائة ، فأشبه

لا يفرنك ما ترى من رجال إن بين الضلوع داء دريا
 فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا
 فأمر السفاح من فوره بقتل سليمان فاكثا بعهد أمانته ودخل شبل
 ابن عبد الله مولى بنى هاشم عليه ، أو على عمه ، وعنده من بنى أمية نحو
 المائة ، فأنشد :

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهـاليل من بنى العباس
 طلبوا وتر هاشم فشفوها بعد ميل من الزمان وباس
 لا تقيان عبد شمس عشاراً واقطعن كل رقلة وغراس
 ذلها أظهر القودد منها وبها منكم كحز المواسي
 ولقد ساءنى وساء قبيلي قريبهم من نمارق وكراسي
 أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والاتعاس
 فأمر بهم جميعاً فقتلوا . وبهذا البطش والتقكيل ، خلص الملك لبنى
 العباس ، وقضى على دولة الأمويين وعاصمتهم دمشق الشام ، وخلفها الكوفة
 ثم بغداد .. وهكذا تدول الدول ، وتتعاقب الأيام ، ويعز الله من يشاء ، ويذل
 من يشاء ...

ماذا نعى بهم نفوز الخلفاء

يبدأ العصر العباسي منذ أعلن أبو العباس السفاح في الكوفة قيام الخلافة العباسية
 ولقد أخذ أبو العباس في توطيد دعائم الدولة الجديدة ، وتثبيت أركانها ؛
 وتتابع الخلفاء من بعده على نهجه ، من النهوض بها ، والقضاء على خصومها ،

والعمل على بناء مجدها ، ورفع منارة العلم والأدب والحضارة في جميع نواحيها ..
كل ذلك والدولة في قبضتهم ، والنفوذ خالص لهم ، والسلطان بأيديهم ، والأمر
لهم وبهم ، لا رأى لأحد إلى جانب رأيهم ، ولا تدخل من أجنبي في شئونهم ،
لأن العناصر الأجنبية الدخيلة كانت لا تزال تأتمر بأمرهم ، وتخضع لمشيئتهم ،
ولا تقطاول إلى مقام توجيههم ، فضلا عن مناوأتهم ، واغتصاب النفوذ منهم ،
بل كان أقل غرور أو تطاول أو تدخل في شئون الملك يبدو من أحد منهم
خليقاً بأن يثير عليه الخليفة ، وأن يدفعه إلى البطش به والقضاء عليه ، كما
فعل السفاح بأبي سامة الخلال وزيره الفارسي ، والمنصور بأبي مسلم الخراساني
مع أنه يعد أكبر مؤسس لخلافة العباسيين ، وكما صنع الرشيد بالبرامكة ،
والمأمون بحسن بن سهل صهره ووزيره ، والمعتمد بالافشين

هكذا كان سلطان الخلفاء بالرغم من تقييدهم للموالى وقيام سياستهم على
الاعتزاز بهم ، لما بذلوه من مجهود في سبيل تأسيس الدولة . وعلى هذا النحو من
النفوذ والقوة ، كانت الخلافة في عصر السفاح والمنصور فالهدي فالهادي فالرشيد
فالأمين فالمأمون فالمعتصم فالواثق فالمتوكل الذي ولى الخـ لافة عام
٢٣٢ هـ ، والذي كان آخر الخلفاء من ذوى النفوذ والسلطان منذ قيام الدولة
وفي عصر المتوكل أخذ الحزب التركي العسكري يتآمر على الخلافة والخليفة ،
ويحاول التدخل في شئون الدولة ، وانتهى الأمر بمصرع المتوكل بأيديهم عام
٢٤٧ هـ . وبذلك ينتهى عصر نفوذ الخلفاء ^(١) ، ويبدأ عصر آخر جديد يسود
فيه نفوذ الأتراك وتشهد هيمنتهم على الخلافة

(١) يختلف مؤرخو الأدب في نهاية هذا العصر فالبعض يجعل نهايته من بدء خلافة المتوكل
عام ٢٣٢ هـ (ضحى الاسلام ج ١ ص ب ، تاريخ أدب اللغة العربية لجورجى زيدان ١٧/٢ ،
وتاريخ الأدب للزيات ص ٢١١) ، والبعض الآخر يجعل نهايته بمصرع المتوكل عام ٢٤٧ هـ ، وهو
ماسنرنا عليه في هذه الدراسة

فدجن إذا إنما نريد بمصر نفوذ الخلفاء العباسيين المدة ما بين عامي ١٣٢ و ٢٤٧ هـ وهي المدة التي كان النفوذ فيها خالصاً للخلفاء العباسيين ، لم يشاركهم في الحكم ، وشئون الدولة ، عناصر أخرى من التي سنعرض لها فيما بعد

— ٢ —

وهذا العصر هو أزهى عصور الاسلام ، وصفحاته المشرقة أنصع الصفحات في التاريخ السياسي والأدبي للعرب .

ولا بدع فقد بلغت فيه الدولة الاسلامية المظفرة منتهى ما تطمح إليه من الجهد والسلطان ، وغاية ما تصبو له من حضارة ومدنية ، وثقافة وعرفان .

كانت مملكة العباسيين فيه تمتد من شواطئ المحيط الأطلسي إلى حدود الهند والصين ، وكان نفوذ الخلفاء العباسيين بالغاً غايته في العالم المعروف آنذاك يذكر اسمهم في بينظله أو روما أو الصين ، فترعد الفرائص ، وتخفق القلوب وتنحني الهامات ، وتسير جيوشهم المنصورة في كل مكان ، وترتفع رايته في كل أفق ، حيث يستظل بظلمها الملايين العديدة من سكان الدنيا ، ويدينون لها بالولاء والوفاء وكان خلفاء بني العباس ولاية في كل إقليم ، وحكام في كل قطر ، ينشرون الأمن والعدل والنور والعلم ، ويجبون الأموال والضرائب باسم أمير المؤمنين ، وخليفة المسامين . وكانت اللغة العربية تسير حيث يسير نفوذ الخلفاء ، ويتعلمها الناس من كل لون وجنس ، وكانت آدابها تسير معها أينما سارت ، وتستقر حيثما استقرت .

وفي هذا العصر نبغت الفنون الاسلامية ، وازدهرت الآداب العربية وترجمت الثقافات الأجنبية ، وقامت المدارس والجامعات في كل مكان ، تثقف العقول ، وتهذب النفوس ، وتحض على المعرفة ، ويجلس في حلقاتها المسلمون على اختلاف عناصرهم ، وألوانهم وبيئاتهم .

وفيه عاش أئمة العلم والأدب والفكر ، يؤدون رسالتهم ، ويدنون لأمتهم
مكانها الرفيع في عالم الفكر الانساني ، ويؤثرون الحضارة بجدها الزاهي ، ويرفعون
للفكر منارته السامقة .

— ٣ —

ويعتاز عصر نفوذ الخلفاء بغلبة العناصر الفارسية ، وبتجمع الثقافات
وظهورها في الثقافة العربية ، وباتساع سركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى
اللغة العربية ، وبحرية الفكر ونفوذ المعتزلة وسلطانهم ، وبازدهار النهضة العلمية
والأدبية ، وظهور الأئمة الفحول في العلوم والآداب ، وتشجيع الخلفاء والأمراء
والوزراء للعلم والأدب .

كما يعتاز بنهضة النثر والشعر نهضة ليس لها مثيل في تاريخ لغة العرب ،
على الرغم من قصر هذا العصر ، إذ لم تبلغ مدته أكثر من خمسة عشر ومائة
عام (١٣٢ — ٢٤٧ هـ)

سياسة الخلفاء في هذا العصر

— ١ —

تولى عرش الخلافة في هذا العصر عشر خلفاء ، دانت لهم الدنيا ،
وخضعت لسلطانهم أمم عريقة ، وحضارات قديمة

كان أولهم السفاح ، الذي اشتهر بالبطش والاستبداد ، وجعل الكوفة
عاصمة للملك ، وظل في الخلافة أربعة أعوام (١٣٢ — ١٣٦ هـ)

وتولى بعده أخوه أبو جعفر المنصور ، وظل خليفة أكثر من عشرين
عاماً (١٣٦ — ١٥٨ هـ) ، وطد فيها ملك بني العباس ، وبني بغداد عام
١٤٥ هـ واتخذها عاصمة له ، كما بنى الرصافة ، وشجع العلوم وترجمة آثار الأمم

المريقة في الثقافة والحضارة ، وكان متقدماً في علم الكلام . داهية أديباً مصيباً في رأيه . جميل التدبير حسن السياسة ، وكانت دولته من أحسن الدول رونقاً ، وأوسعها رقعة ، بيد أنها صبغت في عهده بالصبغة الفارسية .

وتولى بعده ابنه المهدي ، الذي ازدهرت في عهده الحضارة وشاع الترف ، وتقدمت العلوم والفنون والآداب ، وعاش في رعايته كثير من العلماء والشعراء وكان جواداً كريماً ، وقد نكل بالزنادقة ، ومات عام ١٦٩ هـ ، فتولى بعده ابنه الهادي ، الذي ظل في الخلافة سنة واحدة ، وخلفه أخوه هرون الرشيد ابن المهدي .

كان عهد الرشيد واسطة عقد الدولة العباسية ، بلغت فيه ذروة السلطان والجاه ، وكانت بغداد تهج بالعلماء والأدباء والشعراء ، ويروى أنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد والصاحب بن عباد من نخوة الشعراء (١) . وكان الرشيد يقتفي في سياسته آثار جده المنصور ، وفي سماحته آثار والده المهدي ، ولما زاد نفوذ الفرس على يد وزرائه من البرامكة بطش بهم في عنف وشدة عام ١٨٧ هـ ، ونكبتهم نكبة هزت النفوذ الفارسي هزاً عنيفاً ، ومات الرشيد عام ١٩٣ هـ ، وتولى الخلافة بعده ابنه الأمين (١٩٣ - ١٩٨ هـ) . ثم ابنه المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ)

وكان عهد المأمون درة في تاج الحضارة الإسلامية ، وغرة في جبين الخلافة العباسية ، أشرقت العلوم في أيامه ، ونبع نخول المفكرين والفلاسفة والعلماء والأدباء والشعراء ، وزهت حركة الترجمة ، ونقلت الثقافات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وإن كان نفوذ الفرس قد زاد في أيامه ، لأنهم هم الذين ولوه الخلافة

بعد أن قتلوا أخاه الأمين .. وتولى الخلافة بعده أخوه المعتصم ، وكان عسكرياً
 بنشأته وميوله ، ولما خاف من الفرس قرب إليه الأتراك ، فبدأ نفوذهم في الدولة
 على أيامه ، وبني (سامرا) واتخذها حاضرة للملك عام ٢٢١ هـ ، وسارت في عهده
 نهضة العلم والأدب في طريقها الذي كانت تسير فيه . . . وولى بعده ابنه الواثق
 (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) ، ثم ابنه المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ)

وامتاز عهد جعفر المتوكل على الله بشدة نفوذ الترك ، وبالعداء الشديد
 للشيعة ، وباضطهاد المعتزلة والاعتزال ، وكانت أيامه أحسن الأيام وأنصرها ،
 حفلت بأئمة العلم والأدب ، ثم قتل الأتراك عام ٢٤٧ هـ . . . وبذلك بدأ طور جديد
 في تاريخ الخلافة العباسية ، هو عهد نفوذ الأتراك .

— ٣ —

وفي هذه الفترة القصيرة — فترة نفوذ الخلفاء — كان للعنصر الفارسي
 مكانة عالية عند العباسيين ، وحظوة كبيرة في قصورهم ، وكان بيدهم مقاليد
 الأعمال ، وتصريف شئون الخلافة ، كان الخليفة عربياً هاشمياً ، ولكن وزراءه
 وأكثر قواده فارسيون ، يزيد سلطانهم ، ويقوى نفوذهم يوماً بعد يوم ،
 ويزداد تبعاً لذلك شأن الموالى في الدولة ، حتى كان أكثر من تولى
 الأعمال المنصور منهم ، إذ قدمهم على العرب ، وأكثر استخدامهم بعده ، حتى
 زالت رئاسة العرب وهيمنتهم . وفي عصر الرشيد زاد نفوذ الفرس ، فسيطرت
 البرامكة — وهم من سلالات فارسية قديمة — على شئون الدولة ، إلى أن بطش
 بهم الرشيد بطشاً عنيفاً عام ١٨٧ هـ . وكان المأمون يذتصر للفرس ، إذ كانوا
 أخواله ، وهم الذين أعانوه على تولى الخلافة ، وأخذها من يد أخيه الأمين ،
 ويروى أن عربياً من أهل الشام قال له : « انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم
 خراسان » ، فقال له المأمون : « أكثرت على يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت

قيساً عن ظهور الخليل ، إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالى درهم واحد ،
وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحببته قط ، وأما قضاة فسادتها تنظر السفهاني
وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من
مضر ، أعرفت ذلك ؟ اعزب عني »

ركن العباسيون إلى الفرس ولم يشقوا بالعرب ، فأقصوهم عن الحكم والسلطان
وأبعدوهم عن تصريف شئون الدولة ، وأذلوهم بالحروب والتشريد والانتقام
وسفك الدماء . وتظهر هذه النزعة واضحة في قول ابراهيم بن محمد رأس الدعوة
العباسية في وصيته لزعيم شيعته ، أبي مسلم الخراساني : « وإن استطعت ألا تدع
بخراسان لساناً عربياً فافعل ، فأيا غلام بلغ خمسة أشبار تهمة فاقتله » .

ومن مظاهر نفوذ العنصر الفارسي نقل العاصمة إلى بغداد في العراق ،
لترجيها من خراسان موطن الدعوة ، ونقلهم نظام الفرس الكسروي في
الدواوين والسياسة وأساليب الحرب ، واقتباس العادات الفارسية في كل
ناحية حتى في العيش والطعام ، واحتفاؤهم بالأعياد الفارسية كعيد المهرجان
والنيروز وسواها ، وانتشار ثقافة الفرس وعلومهم وآدابهم .. وكثر الفرس
كذلك في قصور الخلفاء والأمراء والولاة ، وقصرت عليهم المناصب الكبيرة
كالوزارة .. حتى أصبحت الدولة عربية اللغة ، إسلامية الدين والأخلاق ،
فارسية المعيشة والإدارة والسياسة .

ولما تطاول الفرس على مقام الخلافة في عهد المعتصم كرههم وحذر منهم ،
وقرب إليه الأتراك ، وكانت أمه « ماردة » منهم ، وبنى لهم (سامرا) ، وجعلهم
قواد جيشه ، ومكن لهم في الدولة ، ولم يمض غير قليل حتى صار لهم النفوذ
والسيطرة على الخلافة في عهد المتوكل ، ثم شغبوا عليه فقتلوه عام ٢٤٧ هـ
في قصره « الجعفرى » ، وقتلوا معه وزيره « الفتح بن خاقان » .. وكان

ذلك مصرعاً دائماً لمجد الخلافة وتفوذ الخلفاء . وفي ذلك يقول يزيد المهلبى
الشاعر من قصيدة طويلة فى رثاء المتوكل :

لا حزن إلا أراه دون ما أجد وهل لمن فقدت عيناه مفتقد
ومنها :

فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم حمكم السادة المذكورة الحشد
ويقول البحتري يصف قصر المتوكل بعد مقتله :

تفـير حسن الجعفرى وأنسه وقوض بادي الجعفرى وحاضره
تـحـمل عنه ساكنوه فجاءة فمادت سواء دوره ومقابره
إذا نحن زرناه أجد لنا الأسى وقد كان قبل اليوم يهبج زائره
ولم أنس وحش القصر إذ ريع سر به وإذا ذعرت أطلاؤه وبجآذره
وإذا صيح فيه بالرحيل وهتكت على عجل أستاره وسقائره
ووحشته حتى كأن لم يقم به أنيس ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها وبهجتها والعيش غرض مكاسره^(١)
فأين الحجاب الصعب حين تمتعت بهيئته أبوابه ومقاصره
وأين عميد الناس فى كل نوبة تنوب ونأهى الدهر فيهم وأمره
ويقول على بن الجهم :

عبيد أمير المؤمنين قتلته وأعظم آفات الملوك عبيدها
بنى هاشم صبراً لسكل مصيبة سيدلى على وجه الزمان جديدها

(١) مكاسر : جمع مكسر ، وهو جذع الشجرة حيث تكسر الأغصان ، يقال فلان طيب
المكسر أى محمود عند الخبرة

— ٣ —

وسياسة الدولة العباسية في عصر نفوذ الخلفاء تنحصر على وجه الإجمال في أمور ثلاثة :

الأول : نشر الثقافة والحضارة في أرجاء دولتهم الواسعة . والعناية بترجمة العلوم المختلفة من الفارسية والهندية واليونانية وسواها إلى اللغة العربية ، وتشجيع الفنون والآداب في كل مكان

الثاني : الاهتمام بأمر الموالي ، وتقريبهم والائتداف عليهم ، وبسط النفوذ والسلطان لهم ، وكان أظهر الموالي حظاً عند الخلفاء الفرس ثم خلفهم الترك .
والثالث : العناية بالمظهر الديني الذي أقاموا عليه دعوتهم ، وشيدوا على أساسه دولتهم ، ومن أولى بذلك منهم ، وهم ورثة سيد الأنبياء ، وذريته ، وخلفاء المسلمين وولاة أمورهم ؟ ، فلا عجب إذاً أن يخرجوا إلى الصلوات الجامعة في الحشد الحاشد من رجال دولتهم ، وقواد جيوشهم ، وأن يخطبوا الناس ويمظوهم ، وعليهم بردة النبي ، وبين أيديهم أئمة العلماء ورجال الدين ..
ويصور الباحث في قصيدة له خروج الخليفة المتوكل على الله لأداء الصلاة الجامعة في عيد فطر ، تصويراً بارعاً رائعاً ، فيقول منها :

فأنعم بيوم الفطر عينا إنه	يوم أغر من الزمان مشهور
أظهرت عز الملك فيه بجحفل	لجب يحاط الدين فيه وينصر
حتى طلعت بضوء وجهك فأنجلت	تلك الدجى وأنجاب ذاك العثير
واقفن فيك الناظرون فأصبع	يوما إليك بها ، وعين تنظر
يحمدون رؤيتك التي فازوا بها	من أنعم الله التي لا تكفر

ذكروا بطلعتك النبي فهاؤا
 عني انتهيت إلى المصلى لا بسا
 مشيت مشية خاشع متواضع
 لوان مشتاقا تكلف فوق ما
 وقفت في برد النبي مذكراً
 لولا وراك آخذين بمصيبة
 لما طلعت من الصفوف وكبر
 نور الهدى يبدو عالمك ويظلم
 لله لا يزهي ولا يتكبر
 في وسعه لسمي إليك المنبر
 بالله تنذر تارة وتبش
 من ربهم وبذمة لا تخف

امتزاج العرب بالعجم^(١)

وآثاره في الحياة الاجتماعية والأدبية

مدى هذا الامتزاج :

فتح الله للمسلمين الأرض ، ودان لحكمهم المشرق والمغرب ، وخضعت لسلطانهم أمم ذات مجد تليد ، وملك قديم ، وحضارة زاهرة ، ومدنية باهرة . وورثوا ملك كسرى وقيصر ، وفي أقل من قرن أصبحت دولتهم تمتد من الأندلس ومراكش غرباً إلى الهند والصين شرقاً . وحكم العرب هذه الأقطار والأمصار ، وأقامت بها جيوشهم ، وهاجرت إليها قبائلهم ، واختلطوا بهم وعاشروهم ، ودخل كثير من هذه البلاد المفتوحة في الإسلام ، وتعلموا العربية لغة القرآن الكريم ، واتصلوا بالعرب في السكنى والمعيشة والتجارة وشتى شئون الحياة ، وتزوج العرب منهم ، وداخلوهم مداخلة شديدة ، حتى نشأ جيل جديد من المولدين ، الذين نسلوا من آباء عرب وأمهات أعجميات وكان العرب قبلاًهم السادة والحكام ، ويبدعهم شئون الدولة والولاية ، ولهم النفوذ والسلطان ، وكانوا يصبون لكل ما هو عربي ، ويضعون الأعاجم في منزلة دون منزلتهم .. فلما قامت الدولة العباسية ، بدأ الموالى يرفعون رؤوسهم ويعتزون بكرامتهم ، ويمنون بأيادهم على الخلافة ، وينادون بأن لا فضل للعرب عليهم ، لأنهم أقدم من العرب حضارة ، وأغرق منهم سلطاناً ، وأخذت شوكتهم تقوى ، ونفوذهم يزداد ، وأصبح منهم الوزراء والقواد وكبار الكتاب ،

(١) يقصد بالعجم ما عدا العرب ، أى السلالات الأجنبية غير العربية : من فرس وروم وهنود وسريان وحش وزنوج وسوام

وحاشية الخليفة، وعماله وولاته ... وهكذا زاد امتزاجهم بالعرب ، وتغلغلوا في
أنحاء الدولة ، وكان لسياسة العباسيين وما أعلنوه من المساواة بين
العناصر والشعوب ، والعرب والموالي ، أثره البعيد . .

وحسبنا أن الكثير من العلماء والأدباء ، بل والخلفاء والأمراء ، كانوا من
أعجبيات : فلهادى والرشيد ابنا « الخيزران » وهى أم ولد من خرشنة
— بأرض الروم — ، والمأمون أمه « مراجل » ، والمعتمد أمه « مارد » ،
والواثق أمه « قراطيس » وهى رومية ، والمتوكل أمه « شجاع » خوارزمية ،
أما الأمين فأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور وهى عربية هاشمية — وكان
خصوم الدولة كثيراً ما كانوا يلوحن للخلفاء بنشأتهم فى أحضان أمهاتهم
الأعجبيات . كتب محمد بن عبد الله العلوى المنصور : « ولا أعرفت فى الأماء ،
ولا حضنتنى أمهات الأولاد » ، فبعث إليه المنصور برسالة يقول فيها : « وأما
ما ذكرت من أنك لم تعرق فيك الأماء ، فقد فخرت على بنى هاشم طراً :
أولهم إبراهيم ابن رسول الله ، ثم على ابن الحسين الذى لم يولد فيكم أحد
بعد وفاة رسول الله مولود مثله » ويقول الشاعر متألماً من كثرة أولاد الأماء :

إن أولاد السرارى كثرت يا رب فينا
رب أدخلنى بلداً لا أرى فيها هجيناً

وكان للجوارى والقيان اللواتى كثرن فى قصور الخلفاء والأمراء
والأثرياء ، أثر كبير فى زيادة الامتزاج والاختلاط ، يروى أن الرشيد كان فى
قصره ألفاً جارياً . والمتوكل أربعة آلاف .. وكانت هؤلاء الجوارى من عناصر
فارسية وتركية ورومية ، وكن يوزعن على الفاتحين ، ويبعن فى الأسواق ،
ويهدن كما تهدي الطرف النادرة

وكان من أظهر العناصر التي زاد امتزاجها بالعرب : الفرس والروم والترك .
فالفرس كانوا عماد النظام السيامي والإداري للدولة ، وكانت لهم المنزلة
الرفيعة فيها طوال هذا العصر .. وأما الأتراك فكانوا يلون الفرس في المكانة
ثم قريبهم إليه المعتصم واصطفاهم ، فزاد خطرهم ، وقويت شوكتهم ، وأصبحوا
أولى النفوذ في الخلافة ، وبلغ بهم البطر والافساد أن قتلوا الخليفة المتوكل على
الله . ذلك لما كانوا عليه من ضعف في الأخلاق ، وعبت بالنظام ، وإفساد
للأمن ، ومن شراهة في جمع المال ، وحب للهو والشهوات ، على أن هؤلاء لم
يتميزوا بسمة إلا بالنظافة والجمال ، وحب الجندية والفروسية ، وكانوا يفتخرون
لمذهب أهل السنة ، ويكرهون الاعتزال والفلسفة والجدل في الدين .

وأما الروم فقد كثروا في بيوت السادة والمترفين ، وكان منهم الغلمان
والجوارى ، وسارت شهرتهم بالجمال والظرف والذكاء ، وثقوب الذهن وحدة
الخطاير ، والإلمام ببعض الثقافات .. وإلى جانب هؤلاء وجد الزنوج الذين
كانوا يجلبون من سواحل إفريقيا الشرقية ، ليعملوا في الزراعة والصناعة وفي
بيوت الطبقات المتوسطة .

ولقد نشأ عن تقريب الخلفاء للمعجم ، أن بدأ نفوذ العرب في الاضمحلال
وجاء المعتصم فقطع أرزاقهم من دواوين الجند ، وأحل مواليه من الترك محالهم
فاندمجوا في غمار العامة ، وتكسبوا بالزراعة والحرف الصغيرة ، وضعفت فيهم
الروح العربية ، وزاد امتزاجهم بالفرس وغيرهم من الشعوب السامية والآرية
بالمصاهرة والمخالطة والمعاشرة والمجاورة .. ومهما يكن من شيء فقد أصبحت دولة
الخلافة على سمة رقعتها ، وتعدد العناصر والشعوب فيها ، بفضل هذا الامتزاج
الشديد ، والاختلاط البعيد ، قريبة النزعات والميول ، متشابهة الأخلاق
والعقائد والتفكير والعادات ، يحكمها حاكم واحد ، وتتكلم بالعربية ، وتدين

بالاسلام ، وتربطها وشائج من المودة والمحبة والتعاون والأخاء ، وصلات من المنفعة والمصلحة أو من المصاهرة واختلاط الدماء

آثاره في الحياة الاجتماعية :

لاريب أن هذا الامتزاج كان شديد الخطر ، عظيم الأثر ، في حياة الدولة الاجتماعية ، حتى لقد ظهرت نتائجه واضحة جليلة في الأخلاق والعادات والتقاليد ، وفي العقول والأجسام ، وشق نواحي المعيشة والحياة ، مما نستطيع أن نصوره فيما يلي :

١ -

انتشرت الماديات الفارسية في المجتمع في هذا العصر ، بسبب هذا الاختلاط الذي صورناه ، وذلك الامتزاج الذي شرحناه ، سواء في الطعام أو الشراب أو السكنى ، أو اللهو والغناء . فذاع اللعب بالشطرنج والبرد ، والخروج إلى البوادي والقرى للراحة أو الصيد ، واصطحاب الاخوان للزهة بين الرياض والوديان ، وأخذ العرب يحاكون الفرس في العناية بموائدهم ، ووضع الزهور والرياحين عليها ، وفي تنسيق البيوت ، وإعداد الحجرات ، وفي الاحتفاء بالأعياد الفارسية احتفاء شديداً ، ومن بينها عيد النيروز ويوم المهرجان ، حيث حرصوا على أن يتلقوا فيهما القهاني والهدايا

وذاعت الأزياء الفارسية ، من قلانس وأقبية ، وعمائم ، وسواها وتبع ذلك كثرة اللهو والترف ، حتى انهم كانوا ينفقون الأموال الطائلة في غير طائل ، اللهم إلا إشباعاً للنفس ، وإرضاء لداعى اللهو واللذة ، فلا عجب أن غالوا في مآذهم وحفلاتهم مغالاة شديدة ، حتى ليروى أن الرشيد لما بنى بزييدة بنت جعفر بن المنصور اتخذ وليمة لم يكن لها شبيهه فيما مضى من

المآدب على طول الأيام ، وكانت الهبات فيها لا تنتهي . وكذلك فعل المأمون في بنائه ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل عام ٢١٠ هـ ، فقد أعطاها في صداقها ألف حصاة من الياقوت ، وأوقد الشموع الهائلة من العنبر ، وصنع الطعام والمآدب الفاخرة

وأولعوا بالغناء ، وتفننوا فيه ، وأبدعوا في ألحانه وجددوا في آلاته ، وأكثروا في مجالسه من الملع والعبث والشراب

وكانت بغداد تعجب أصحاب الثراء لسعة عمرانها ، وبهجة مناظرها ، وروعة قصورها ومتنزهاتها وميادينها وشتى مظاهر الحضارة فيها ، قال الشاعر :
أعاينت في طول من الأرض والعرض كبغداد داراً ؟ إنها جنة الأرض
صفوا الميش في بغداد واخضر عوده وعيش سواها غير صاف ولا غض
تطول بها الأعمار إن غداها مريء ، وبعض الأرض أمر أمن بعض
أما الفقراء وذوو الحاجة فكانوا يضيّقون بها ذرعاً ، المشقاء والبؤس الشديد الذي كانوا يعيشون فيه ، قال شاعرهم فيها :

تصلح للموسر لا لأمريء يبست في فقر وإفلاس
لو حلها قارون رب الغنى أصبح ذا هم ووسواس
ويصور أبو العتاهية غلاء الأسعار في بغداد تصويراً رائعاً فيقول :
من مبلغ عني الإما م نصائحاً مقواليه
إني أرى الأسعار أسـمار الرعية غاليه
وأرى المسكاسب نـزرة وأرى الضرورة فاشيه
وأرى غيوم الدهر را ثمة تمر وغاديه
من للبطون الجائعا ت والجسوم العاربه
يا ابن الخلائف لا فـقد ت ولا عدت المافيه

أقيمت أخباراً إليك عن الرعية شافية
وكان التباين بين طبقة الخاصة وطبقة العامة شديداً ، فالنفوذ والثراء
وحياة اللذة والنعيم حظ المترفين ، ولغيرهم الشقاء والهم المقيم
وقد استلزم الترف : المغالة في البنيان ، والتنافس في تشييد القصور ، حتى
قيل إن المعتمد أنفق على بناء سامرا أموالاً طائلة ، وأنفق المتوكل على بناء
« الجعفرى » الملايين من الدينار ، وأكثروا من تشييد البرك والحدائق
والدور والقصور وبموت العبادة ، إلى غير ذلك من مظاهر الترف والنعيم
وعلى نمط النظم الفارسية سارت إدارة الدولة ، حتى لقد أنشئت المناصب
الرفيعة في الخلافة ، كنصب الوزارة الذى تقلده فى هذا العصر أفذاذ من
الرجال ، كأبى سلمة الخلال وزير السفاح ، وأبى أيوب المورىانى وزير المنصور
ويعقوب بن داود وزير المهدي ، والبرامكة الذين وزروا لارشيد ، وبني سهل
الذين وزروا للمأمون ، وقد مكن هؤلاء للنفوذ الفارسى ، والتقاليد والعادات
والنظم الفارسية فى دولة الخلافة

— ٢ —

وظهر أثر هذا الاختلاط الشديد فى العقول والأفكار ، فاستمت الثقافة ،
ونضج التفكير ، ودقت الأفهام ، وحصفت العقول ، وقويت المدارك . ونمت
المواهب ، وجنح الناس إلى العلوم والفنون والآداب ، يروون منها ظمأهم ،
ويشبعون نهمهم . كل ذلك أثر للاختلاط ، الذى دعا إلى امتزاج الثقافات ،
والعناية بالترجمة ، وإحياء علوم الأمم القديمة من فرس ويونان ورومان
وسريان وسواها ، وأخذ العرب يتحضرون ، وينشئون المدارس ويشيدون
خزائن الكتب ودور الحكمة ، ويجمعون بين فلسفة اليونان وآداب الفرس
وأساطير الهند ، ومعارف سواهم من الشعوب

أما أثره في الأجسام فهو غير خفي أو منكور ، فلا شك أن العربي قد صاهر
أبناء الأمم الأخرى ، فكسب بسطة في الجسم وسلامة في البدن ، ونشأ جيل جديد
من المولدين يحملون طابع العرب وخصائص العجم^(١) ، ويمتازون بفراهة الأجسام
الأجسام ، وسلامة البنية ، ووفرة الجمال ، مع تنوع الموهبة . والخلق في
الصناعة . إلى ما سوى ذلك من خصائص ومميزات

— ٢ —

وبتأثير الاختلاط ذاع العبث والجحون والفساد والإلحاد والزندقة التي
حاربها المهدي والرشيد حرباً لا هوادة فيها ، كما شاعت الشهوات والملذات ،
فأقبل الناس على مجالس اللهو والشراب ، والفزل بالذكور ، وانتشرت الرشوة
والخلاعة في كل مكان ، وكان للتيان والجوارى أثرهن في هذا الميدان
وإن كنا لا ننكر أن الامتزاج قد أكسب العرب سعة أفق ، ورحابة صدر
وسماحة روح ، حتى أصبح لا يستأثر بالخير ، بل يشرك منه في الفضل سواء ،
وضاعت منه عنجهية البداوة ، وحمية الجاهلية الأولى ، وجفاء الأخلاق ،
وخشونة الطباع ، فصار لبن العريكة ، موطأ الأكناف ، دماً مهذباً ، يدين
بالحبة والأخاء

٥٥٥

وبعد فقد كان لهذه المظاهر العديدة ، التي نشأت عن الامتزاج بين العرب
والعجم ، أثرها الشديد في تنوع الحياة الاجتماعية في هذا العصر ، وتوزعها
بين نسل ولهو ، وترف وفقير ، وإيتان وإلحاد ، وفي اصطباغها بصبغة التعديد
وانطباعها بطابع قوى من الحضارة والمدنية

(١) الابن الذي يولد من أب عربي وأم أعجمية يسمى « هجيناً » ، والذي يكون من
أب أعجمي وأم عربية يسمى « مقرفاً »

آثاره في الحياة الأدبية :

وكان لا متزاج العرب بالأعاجيب آثاره البعيدة في تهذيب الأفكار، وصقل الأخيلة ، ونضج الثقافة ، وتجويد ألوان الكلام من شعر ونثر، حتى ليمس المدارس الفروق واضحة بين الأدب العربي في هذا العصر والأدب في العصور السالفة .

— ١ —

فلقد نشأ بتأثير هذا الامتزاج - في الأدب فنون أدبية لم تكن موجودة كالقصص والمقامات وأدب الزهد والتصوف وأدب الطبيعة ، وتفشت ألوان الخلاعة والمجون في الأدب ، كالإغراق والمبالغة في وصف الحر والتشبيب بالجوارى والتغزل بالمذكر .

ولا شك أن تفشى هذه الألوان وذيوخ تلك الفنون إنما كان بتأثير الاختلاط وامتزاج الحياة العربية بالحياة الأجنبية وما تزخر به من الترف والمفاسد، وما تحمل بين ثناياها من شهوات طاغية ، ونزوات طائشة ، ومقع آثمة . ولقد ترجم عبد الله بن المقفع كتاب كلیلة ودمنة من الفارسية إلى العربية، فرأى العرب طراز القصة في النثر ، وأكبوا عليها ، وأعجبوا بها ، حتى لقد نظمها أبان اللاحق شعراً ، بدأه بقوله :

هذا كتاب أدب ومحنة	وهو الذي يدعى كلیلة ودمنه
فيه ضلالات وفيه رشد	وهو كتاب وضعته الهند
فوصفوا آداب كل عالم	حكاية عن ألسن البهائم
فالحكاء يعرفون فضله	والسخفاء يشتمون هزله
وهو على ذلك يسير الحفظ	لذ على اللسان عند اللفظ

— ٢ —

وكان من تأثير الامتزاج أن تطور فن الوصف في الأدب العربي ، وتما
نموا واضحا ، واتسع مجاله ، وانفسح مداه . فهذه مظاهر الحضارة المختلفة من
قصور ورياض ، وأنهار وبرك وغدران ، تقوى صورها أمام أنظارهم ، فتلهب
شاعريتهم ، وتسمو بأفكارهم ، وتخلق بأخيلائهم .

وهذه أيضا عادات المعجم وتقاليدهم وأزيائهم ، ومواسمهم وأعيادهم ،
ومجالس لهوهم وشربهم وغنائهم ، ومرابع جواريتهم وغلمانهم . كل ذلك قد أطلق
الأسنة ، وفتق الأخيصة ، وأيقظ المشاعر ، وأذكى الحواس . فأخذوا يصفون
هذه الألوان التي بهرهم بريقها ، وأسهرهم جمالها ، وأخذوا بالبإبهم ما فيها من حسن
ونضارة . فوصفوا كل هذه المظاهر أبلغ وصف ، وعبروا عنها أجمل تعبير
يصنع الأمين انزهده في دجلة خمس حراقات على صور الحيوانات ، فيأخذ
أبو نواس في وصفها ، فيقول :

سخر الله للأمين المطايا	لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرت برا	سار في الماء راكبا ليث غاب (١)
عجب الناس إذ رأوك على صو	رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليها	كيف لو أبصروك فوق العقاب (٢)
ذات زور ومذسر وجناحيم	ن تشق العباب بعد العباب (٣)
تسبق الطير في السحاب إذا ما	استعجلوها بجيئة وذهاب

(١) أى سفينة على صورة الأسد

(٢) أى فوق سفينته الأخرى التي صنعت على شكل العقاب

(٣) الزور : الصدر

ويبني المتوكل قصره « الجعفري » فيراه على بن الجهم ، فيصفه بقوله :
وما زلت أسمع أن الملو
ك تبني على قدر أقدارها
فلما رأينا بناء الإمام
رأينا الخلافة في دارها
بدائع لم ترها فارس
ولا الروم في طول أعمارها
إذا أوقدت نارها بالعراق
أضاء الحجاز سنا نارها
لها شرفات كأث الربيع
كساها الرياض بأنوارها
ويصف البحتري الربيع وصفا رائعا فيقول :

أناك الربيع العلق يخال ضاحكا
من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز في غسق الدجى
أوائل ورد كن بالأمس نوما
يفقهها برد الندى فكأنه
يبث حديثا كان قبل مكتما
فمن شجر رد الربيع لباسه
عليه كما نشرت وشيا منكما
أحل فأبدى للعيون بشاشة
وكان قذى للعين إذ كان محرما
ورق نسيم الريح حتى حسبه
يجيء بأنفاس الأحبة نهما
إلى غير ذلك مما حفلت به رياض الأدب ، من صور ومشاهد ، نبضت
بها هذه الحياة المترفة الالهية .

ولقد ورث العرب كذلك عن الأماجم غزارة المعنى ودقته ، وعمق الفكرة
وتسلسلها ، وحسن الاستقصاء ، وكثرة الاستطراد ، وبراعة التحليل . فظهر
ذلك بصورة واضحة في آدابهم ، ومأثور أشعارهم ، ومن هنا رأينا طول النفس
يتجلى في القصيدة العربية ، لكثرة الاستطراد والاستقصاء والتحليل . كما
رأينا شعرهم يحمل الكثير من المساني الدقيقة ، والأخيلة البعيدة ،
والفكرة العميقة .

ومما زاد في ظهور هذه الآثار أن كثيراً من شعراء هذا العصر كانوا يرجعون إلى أصول غير عربية ، كبشار وأبي العتاهية وأبي نواس ثم ابن الرومي وغيرهم

يقول أبو إسحق إبراهيم بن موسى :

غزيتي بجيش من محاسن وجهها	فعبها لها طرفي ليدفع عن قلبي
فلما التقى الجيشان أقبل طرفها	يريد اغتصاب القلب قسراً على الحب
ولما تجارحنا بأسيف لحظنا	جعلت فؤادي في يديها على العضب
وناديت من وقع الأسنة والقنا	على كبدي : يا صاح مالي وللحب
فصرت صريعاً للهوى وسط عسكر	قتيل عيون الغانيات بلا ذنب

ويقول اسحق الموصلي :

أخاف عليها العين من طول وصلها	فأهجرها الشهران خوفاً من الهجر
وما كان هجراني لها عن ملالة	ولسكني أمات عاقبة الصبر
أفكر في قلبي بأي عقوبة	أعاقبه فيها لترضى فما أدري
سوى هجرها والهجر فيه دماره	فما قبته فيها من الهجر بالهجر
فكنت كن خاف الندى أن يبله	فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر

ويقول مسلم :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه	فطاب تراب القبر دل على القبر
----------------------------	------------------------------

ويقول ابن المعتز في الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة	قد أثقلته حمولة من عنبر
------------------------	-------------------------

ويقول سعيد بن حميد :

لم آت ذنباً فإني زعمت بأن	آتيت ذنباً فغير معتمد
قد تطرف الكف عين صاحبها	فلا يرى قطامها من الرشيد

ويصور أثر الحضارة والبيئة هذه القصة الطريفة ، فقد روى أن لأم
 لام ابن الرومي فقال له : لم لا تشبه كتشبهات ابن المتمر وأنت أشعر منه ؟ فقال
 له : أنشدني شيئاً من قوله الذي استعجزتني عن مثله ، فأشده قوله في الهلال :
 انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر
 فقال له : زدني ، فأشده قوله في الآذريون — وهو زهر أصفر في وسطه
 خمل أسود وليس بطيب الرائحة ، والفرس تعظمه بالنظر إليه و بفرشه في المنازل :
 كأن آذريونها والشمس فيه كاليه (١)
 مداهن من ذهب فيها بقايا غالية (٢)

فصاح وا غوثاه ! تالله لا يكاف الله نفساً إلا رسمها ، ذاك إنما يصف
 ماعون يبيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أي شيء أصف ! ولكن انظر إذا أنا وصفت
 ما أعرف ، أين يقع قولي من الناس اهل لأحد قط قول مثل قولي في قوس الغمام :
 وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً على الجود كنفاً والحواشي على الأرض
 يطرزها قوس السحاب بأخضر علي أحمر في أصفر إثر مبيض
 كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض (٣)
 وقولي في صانع الرقاق :

مأنس لأنس خبازاً مرت به يدحو الرقاقة مثل الملح بالبصر (٤)
 ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر (٥)
 إلا بمقدار ما تنداح دائرة في لجة الماء يلقي فيه بالحجر (٦)

(١) كناية : مخفف من كائلة بالهمز أي ناظرة ، من كلاً بهمه في الشيء إذا رددته

(٢) الغالية : نوع من الطيب .

(٣) الخود : الشابة الحسنة الخلقة ، وغلائل جمع غلالة (بكسر الغين) وهي شعار يلبس تحت الثوب

(٤) دحاه يدحوه : بسطه .

(٥) قوراء : واسعة

(٦) انداح : اتسم .

وقولى فى قالى الزلا بية :

رأيتـه سحرأ يقلى زلا بية فى رقة القشر والتجويف كالقضب
يلقى المعجين لجينأ من أنامله فيستحيل شبا بيكا من الذهب

— ٤ —

وبتأثير الامتزاج واختلاط العرب بالعجم المتحضرين كثرت المبالغة
والغاو الشديد فى أدب الأدباء وشعر الشعراء . . يقول أبو نواس :
وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخلفك النطف التى لم تخلق
ويقول أبو تمام :

ولو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك كرم الطبع
ويقول بشار فى محبوبته :

إن فى بردى جسما ناحلا لو تو كأت عليه لا يهدم
ويقول ابن الرومى :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباقي ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

كما كثرت الحكم والأمثال والتعليقات العقلية فى الأدب، شعره ونثره . .
يقول صالح بن عبد القدوس :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه
وإن من أدبته فى الصبا كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقاً ناضرا بعد الذى أبصرت من يفسه
ويقول أبو تمام :

ينال الفتي من دهره وهو جاهل ويكذب الفتي في دهره وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا لمسات إذا من جهلهم البهائم
وقال بشار :

عى الشريف يشين منصبه وترى الوضيع يزيفه أدبه
والصدق أفضل ما حضرت به ولربما ضر الفتي كذبه
وقال أبو نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تنكشفت له عن عدو في ثياب صديق
ومن العمليات الطريقة قول أبي تمام :
ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا إن السماء ترجى حين تحتجب
وقوله :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فاسيل حرب للمكان العالى (١)
وقال العباس بن الأحنف :
لا جزى الله دمع عيني خيرا وجزى الله كل خير لسانى
نم دمعى فليس يكتم شيئا ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكقاب أخفاه طي فاستدلوا عليه بالعنوان

— ٥ —

وبتأثير الامتزاج عربت واستحدثت فى اللغة ألفاظ جديدة من لغات
الاعاجم ، فزادت ثروتها فى الألفاظ كما سيأتى .
على أن هذا الامتزاج كان له آثار سيئة أيضا ، إذ شاع اللحن ، وفشت
المعجمة والملاكنة فى الألسنة ، حتى أصبح شعرهم لا يحتج به ، كما كان يحتج
بالشعر القديم .

(١) عطل من الأدب عطلا وعطلا إذا خلا منه ، والمطل : التجرد من الحلى

ترجمة العلوم والآداب الأجنبية

أطوارها — وأشهر القائلين بها

كان للعباسيين شغف شديد بالعلوم والآداب ، وولع كبير بالمعارف والثقافات ، إذ تنوعت حضارتهم ، واتسع عمرانهم ، وامتد سلطانهم ، وانفسحت أطراف مملكاتهم ، حتى شملت كثيراً من الأمم المريقة في العلم ، الأصيلة في الحضارة والمدنية

وكانت هذه الأمم التي امتد نفوذهم إليها ، وانبسط سلطانهم عليها ، كالفرس والروم ، ذات علوم وآداب ومعارف ، تمخضت عنها عقولهم ، وتفتقت بها قرائنهم ، أو نقاوها عن غيرها من الأمم التي اتصلوا بها من قديم ، وقد وجد العرب أنهم أمام معارف يزخر بها العالم إذ ذاك ، ولاغنى لملكهم عنها ، فأقبلوا عليها بكل ما فيهم من شوق ونهم ، يترجمونها ويعربونها ، ويضيفون إلى قديمها جديداً ، تمخض عنه إدراكهم وتفكيرهم .

فالليونان حكمتها وفلسفتها وطبها ، ولها أعلامها الأفاضل ، كسقراط وأرسطاليس وأفلاطون وأبقراط وجالينوس وغيرهم .
والكلدانيون شهرتهم في الطب والنجوم .

واللهند ثقافة واسعة مدونة في النجوم والطب والحساب والآداب .

وكان للسريانيون ثقافة واسعة في الطب والفلك ورصد الكواكب . ولهم مدارس كثيرة تدرس فيها علومهم وآدابهم بالسريانية واليونانية ، كمدسة الرها ، وقنسرين ، ونصيبين .

والفرس آداب وعلوم انتقلت إليهم من الهند والصين ، ثم من اليونان

في أزمنة مختلفة ، فقد ترجعوا إلى لفهم كثيراً من كتب اليونان ، كالمناطق كما نقلوا من علوم الهند كتباً في النجوم والطب والآداب . هذا بالإضافة إلى ماورثوه من علوم وآداب أصيلة عندهم .

وكان سابور بن أردشير يبعث البعث إلى بلاد اليونان لطلب كتب الفلسفة ، وترجمتها إلى الفارسية ، وأنشأ مدرسة جنديسابور المشهورة ، وكان أساتذتها من الهنود واليونانيين ، ثم جاء كسرى أنوشروان العادل ، ففتح أبواب دولته للوافدين عليه من الفلاسفة اليونانيين الوثنيين الهاربين من اضطهاد «جوستنيان» قيصر الروم لهم على إثر إقفاله المدارس والمعابد الوثنية ، وأكرمهم وطلب منهم التأليف والترجمة في الفلسفة والطب والنجوم ، كما أكرم وفادة العلماء الهنود والسريانيين

واتصل المسلمون في هذا العصر بثقافات تلك الأمم وعلومها وآدابها ، فازدادوا حباً لها ، ومعرفة بقيمتها ، ورغبة ملحة في الاستفادة منها . . . وكان الفارسيون الذين وصلوا إلى أعلى مناصب الدولة يشجعون نشرها وتداولها ، كما كان الخلفاء يقبلون عليها ، ويحثون على ترجمتها إلى اللغة العربية وهكذا بدأت الترجمة في العصر العباسي : صغيرة ناشئة ، ثم أثمرت ثمرها ، وآتت أكلها بعد قليل .

وكان الباعث على العناية بترجمة العلوم إلى العربية : ما آلت إليه الدولة من حضارة ومدنية مما استلزم تشجيع العلوم والآداب ، وكذلك رغبة العلماء في استخدام المنطق والفلسفة للدفاع عن الدين ، ثم كانت اللغة العربية غالبية على هذه الممالك المفتوحة . فكان لا بد أن تنقل من معارفها وثقافتها أحسن وأروع ما تعتز به من آثار ، ومن هنا نشطت حركة الترجمة ، إذ وجدت في اللغة استجابة وسرعة .

ومن البواعث كذلك تشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء للترجمة ، التي أصبحت هي الصلة الوثيقة بين العرب وعلوم الأمم القديمة وثقافتها
ويعتبر كثير من مؤرخي الفكر حركة ترجمة العلوم في العصر العباسي من أعظم الحوادث الفكرية في تاريخ المساهين ، وليس ثمة شك في قيمة هذه الحركة الجبارة ، التي كان لها أكبر الآثار في سير الحضارة الإسلامية الإنسانية .

أطوار حركة الترجمة

لم يؤثر عن العرب قبل عصر نفوذ الخلفاء العباسيين أنهم ترجموا من كتب الأوائل شيئاً . . . اللهم إلا كناش أهرن في الطب ، ترجمه ماسرجويه طبيب مروان بن الحكم وأذاعها عمر بن عبد العزيز في الناس . وكان خالد بن يزيد بن معاوية المقوف في عام ٨٩ هـ ولوعاً بالكيمياء والطب والنجوم فترجم له فيها ، وهو أول من ترجم له في هذه العلوم كما يقول الجاحظ ^(١) وغيره ولكن ذلك لا يدل على أن حركة الترجمة كانت ذاتة في عصر بني أمية ، إذ أنها لم تخط خطوة واسعة إلا بعد ذلك العصر .

أما حركة الترجمة في عصر نفوذ الخلفاء من بني العباس فيمكننا أن نقسمها إلى أطوار ثلاثة :

١ -

فالطور الأول يبدأ من خلافة المنصور إلى آخر عهد الرشيد ، أي من عام ١٣٦ هـ حتى عام ١٩٣ هـ ، وقد مضى عهد السفاح دون عناية منه بالترجمة لقصر حكمه ، ولشغله الشاغل بتأسيس الدولة وتوطيد أركان الخلافة العباسية فلما ولي المنصور عني بترجمة العلوم عناية فائقة ، وخاصة الطب والهندسة

والنجوم ، وبعث إلى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله أن يصله بالديه
من كتب الفلاسفة ، واستنخار لها مهرة الترجمة وكلفهم بإحكام ترجمتها إلى
العربية ^(١) ، وترجمت له الكتب من اليونانية والرومية والفارسية والسريانية
والهندية ^(٢) . . . ولم يترجم له شيء من الفلسفة والمنطق وسائر العلوم العقلية ،
وإنما ترجمت بعد عصره ، وكان المنصور معنياً بعلم النجوم عناية فائقة ، وقرب
إليه من المنجمين نوبخت المنجم الفارسي وأولاده ، وإبراهيم الفزارى ، كما قرب
إليه جورجيس بن بختيشوع السرياني رئيس أطباء مدرسة جنديسابور ، إذ
أعجب به واتخذته طبيباً له . . . ومن أشهر المترجمين في عهده ابن المقفع .
أما المهدي والهادي فقد شغلا بمحاربة البدع والزندقة ، فألهما ذلك عن
تشجيع حركة الترجمة .

فلما ولي الرشيد الخلافة كانت الثقافة مزدهرة ، والعلوم منتشرة ،
والأذهان متفتحة لقيمة العلم والترجمة ، فأخذ يعمل على تقوية النهضة العلمية بكل
ما في قواه من جهد وعزيمة ، فقرب إليه العلماء ، وكان يستصحب معه كلما سافر
مائة عالم ، واتخذ أطباء وترجمة له من السريانيين ، كآل بختيشوع وآل
ماسويه ، وقد ترجمت في عهده كتب كثيرة في الطب والنجوم والكيمياء
والنبات والحيوان والحيل والفلسفة والأخلاق ، وأنشأ الرشيد في بغداد « دار
الحكمة » ، التي كانت تحتوى نفائس الكتب من شتى اللغات . وقد أعيد في
عهده ترجمة الكتب التي سبق ترجمتها في عصر المنصور

وفي هذا الدور الخطير ترجمت كتب كثيرة ، من أهمها : كالملة ودمنة
من الفارسية ، وكتاب السندهند من الهندية ، وترجمت بعض كتب ارسططاليس

(١) ٤٨٠ مقدمة ابن خلدون وهه طبقات الامم لصاعد الأندلسي .

(٢) ٢٤١ / ٤ للسعودي .

في المنطق وغيره ، وترجم كتاب المجسطي في الفلك ، وأخذ المترجمة يقرأون هذه الترجمات ، ويتخذون منها مادة للجدل والمناظرة .
وكان البرامكة يشجعون الترجمة والمترجمين تشجيعاً كبيراً ، ويسخون نسخاء نادراً على كل مجهود يقصل بالعلم والثقافة . فكان لتشجيعهم أبلغ الآثار في ازدهار العلوم وتقدم المعارف ونمو حركة الترجمة وتطورها .

— ٢ —

والطور الثاني لحركة الترجمة يبدأ ببداية حكم المأمون وينتهي بنهايته ، وكان المأمون عالماً متضلعا واسع الثقافة كثير الاطلاع ، وكان همه العقلي والعلمي لا حده ، وقد أولى الترجمة عنايته الشديدة واهتمامه البعيد ، فأوفد الرسل إلى ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين لنسخها بالخط العربي ، وبعث المترجمين لذلك ، وأنشأ في بغداد مدرسة لتخريج الترجمة .
وقد كان عصر المأمون أزهى عصور الترجمة ، لأنه كانت له مشاركة في كل العلوم ، وكان يناصر الاعتزال ويحاول تأييد هذه النزعة بمنطق اليونان ولذلك كان ينفق بسعة وسخاء شديد على حركة الترجمة ، حتى أعطى وزن ما يترجم ذهباً ، وكان يحرض الناس على قراءة تلك الكتب المترجمة ، ويرغبهم في تعلمها ، ويخلو بالحكام ، ويأنس بمحاضرتهم . .
وتبع الأمراء والوزراء الخليفة في هذا المضمار ، فوفد على بغداد عدد جرم من المترجمين من كل ناحية وطائفة

وكان المأمون في العرب كبير يكليس في اليونان ، وأوغسطس في الرومان ، فأنتم ما بدأ به آباؤه ، واتخذ له بطانة من علماء اليونان والسريان والفرس والهنود ، وأمر ولاته بأن يمشوا إليه بالكتب التي تقع في أيديهم ، وجعل

من شروط الصلح بينة وبين ملك القسطنطينية أن يرسل إليه مجموعة من
الككتب النادرة

— ٢ —

أما الطور الثالث من أطوار حركة الترجمة فيبدأ بخلافة المعتصم وينتهي
بقتل المتوكل عام ٢٤٧ هـ

ففي عصر المعتصم فترت حركة الترجمة ، إذ لم يكن للخليفة تحصيل في
العلم أو رغبة في المشاركة فيه

وجاء بعده الواثق ، وكان ذكياً ، واسع الاطلاع ، كبير الثقافة ، يشجع
العلم والعلماء ، فذشطت الترجمة في عهده ، واستمادت بعض ما كان لها قبل من
نشاط ، وإن كان أكثر ما ترجم في عصره هو الأسماء والخرافات .

وفي عهد المتوكل على الله تمت ترجمة العلوم النافعة ، كالطب والنبات
والنجوم ، لأنها كانت تروج عند الخليفة وتلقى تشجيعاً وعطفاً ، وكان المتوكل
آخر الخلفاء الذين آزرُوا حركة الترجمة ، وأعانوا علي نقل علوم الأمم إلى
العربية لغة القرآن الكريم

أشهر الفاتحين بالترجمة في هذا العصر

— ١ —

من أشهر المترجمين عن اليونانية : الحجاج بن يوسف بن مطر ، وكان
من جملة المترجمين للمأمون ، وقام بنقل كتاب إقليدس والمجسطي إلى العربية ،
ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحراني ..

ومنهم كذلك قسطنطين بن لوقا البعلبكي ، وهو من نصاري الشام ، وكان طبيباً

حاذقاً ، ترجم وألف رسائل كثيرة في الطب
ومنهم موسى بن شاكر وكان من المترجمين المأمون ، وسار على نهجه
كذلك أولاده الثلاثة : محمد وأحمد والحسن

ومنهم آل حنين ، وأولهم حنين بن اسحق العبادي شيخ المترجمين
(١٦٤ — ٢٦٤ هـ) وهو من انصارى الحيرة ، ثم ابنه اسحق المقوف في عام ٢٩٨ هـ
ومنهم : حبيبش الدمشقي وهو ابن اخت حنين بن اسحق وآل بخيشوع
وهم من السريان وقد خدموا الخلفاء العباسيين من المنصور إلى المتوكل

وقد ترجم هؤلاء وسواهم كثيراً من علوم اليونان وفلسفتهم وحكمتهم
ومعارفهم في المنطق والطب والهندسة والسياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق
وغيرها ، ومن أشهر ما ترجموه : كتاب السياسة نقله حنين بن اسحق ، وكتاب
الأخلاق ترجمه إسحاق ، وكتاب جالينوس وإقليدس . وقد نقل الحجاج
بن مطر لأقليدس كتاب أصول الهندسة ، كما ترجموا أصول فلسفة سقراط
وأفلاطون وأرسطو

— ٢ —

ومن أشهر المترجمين عن الفارسية : عبد الله بن المقفع ، وآل نوبخت ،
والحسن بن سهل ، وجبله بن سالم ، وإسحق بن يزيد ، وهشام بن القاسم ،
وسواهم

وقد ترجموا عن الفارسية كتباً كثيرة ، من أشهرها : كتاب كليلة
ودمنة الذي ترجمه ابن المقفع ، وكتاب خدائنامة ، الذي ترجمه كذلك
ابن المقفع ، وسماء كتاب سير ملوك الفرس ، وترجم كذلك الأدب الكبير ،
والأدب الصغير ، والدرة الميمنة ، وكتاب القاج في سيرة أنوشروان

ومن الكتب المترجمة عن الفارسية أيضاً : شهيد أردشير ؛ وتوقيعات كسرى ، وهزار أفسانه (١) وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة ، وكتاب أدب الحرب ، وسوى ذلك من نفائس المؤلفات .

— ٣ —

ومن مشهورى المترجمين عن الهندية : منكه الهندى الطبيب الذى عالج الرشيد ، وصالح بن بهلة الهندى الذى دخل بغداد فى عهد الرشيد أيضاً ، ونال شهرة واسعة ، واشتدت محالطته للأطباء ...

وقد نقل هؤلاء المترجمون عن الهندية الكثير من كتب الطب والنجوم والفلك والرياضة والحساب والقاريخ والاسمار . وثما ترجم من كتب الأدب الهندى : كتاب سنداوذ الكبير والصغير ، وكتاب بيديا فى الحكمة ، وكتاب السند هند - أى الدهر الداغر - فى الفلك وقد ترجمه من الهندية محمد بن ابراهيم الفزازى .

— ٤ —

وقد كان هناك مترجمون عن المبرية والقبطية والسكلدانية . ومما نقل عن السكلدانين كتاب الفلاحة ، وكتاب أمرار الكواكب . . . وسواها من نفائس المؤلفات .

لماذا أهمل العرب اليونانى فى الترجمة ؟

عنى المترجمون عناية خاصة بفلسفة اليونان وحكمتهم ، فترجموا الكثير من آثارهم فيها إلى العربية ، من مثل : مؤلفات أرسطو وشروخ علماء مدرسة الاسكندرية القديمة عليها ، وكتب أفلاطون ، وأهم كتب جالينوس فى الطب

(١) معناه ألف خرافة

وعلى الجملة فقد ترجموا أهم ما ابتكره العقل اليوناني في العلم والفلسفة
 ولكنهم لم ينقلوا إلينا شيئاً يذكر من آداب اليونانيين . . . فإذا قرأنا
 نبت الكتب المترجمة نجدها تبحث في كل فرع من فروع المعرفة القديمة ،
 ولا نكاد نثر على كتاب أدبي يوناني مشهور ترجم إلى اللغة العربية ، مع
 وفرة ما لليونان والرومان من آثار أدبية عالية في القصص والتمثيل
 على أنهم قد ترجموا بعض مؤلفات في علوم قريبة إلى الأدب كالنارخ
 والأسفار ، فهذا ابن النديم ينقل في كتابه الفهرست أسماء كتب لاروم في هذين
 الفنين ترجمت إلى العربية (١) .

وتساقط إلى العرب من الأسرى اليونانيين ، ومن الموالى الذين اختلطوا
 بهم من هذين العنصرين ، كثير من الحكم والأمثال ، مما تحفل به مصادر
 الأدب العربي ، كالبيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، وعميون الأخبار . . .
 وترجم لهم بعض هذه الأمثال والحكم ، مما ينسب لفيثاغورس وسقراط
 وأفلاطون وأرسطو . يروي ابن النديم أن علي بن ربن النصراني نقل كتاباً في
 الآداب والأمثال على مذاهب الفرس والروم والعرب (٢) . وهذه الأمثال
 والحكم على أي حال أبسط ألوان الأدب ، وهي شبيهة بما يعرف منهما عند
 العرب . وقد كان ولوع العرب بهما حافظاً على ترجمة بعض ما يؤثر فيهما إلى
 العربية ، بعد تجريدتهما مما يختلط بهما من أسماء ، وما يلابسهما من مظاهر حياة
 اليونان الاجتماعية . . . إذ هما حينذاك قريبان من ألف العربي ، وليس فيهما
 ما ينفّر منه من أساطير ، ولا يحتويان على أوزان شعرية لا تستسيغها العربية .
 وكذلك تساقط إلى العرب بعض آراء في البلاغة والنقد ، مما يؤثر عن

(١) ٣٥ و ٣٠٦ الفهرست

(٢) ٣١٦ الفهرست

بعض اليونانيين . ولاكن ذلك كله بعيد عما عرف من روائع الادب اليونانى القديم ، كالأساطير والملاحم والمثاليات ، وعما شهروا به من خطابة وكتابة ، وشعر غنائى ، فلم تترجم إلى العربية إلاذلة هوميروس ، ولا ما شابهها من الآثار .. مما يدل على أن المترجمين صرفوا نظرهم عنها ، وأعرضوا إعراضاً عن نقلها إلى العربية

ويمكننا أن نفسر إهمال الأدب اليونانى فى الترجمة إلى العربية بأن العرب كانوا أكثر الناس اعتزازاً بلغتهم ، واعتداداً بأنفسهم . مما جعلهم يحتقرون آداب اليونان ، ولا يقدرونها حق قدرها . وخاصة لبقاء اليونانيين على النصرانية وبعدهم عن حكم المسلمين ، بخلاف الفرس الذين أسلموا ، وخضعوا للحكم الاسلامى . . . ولعل فى هذا ما يفسر لنا غض نقاد العرب المتأخرين من أدب اليونان وثقافتهم فى صناعة البيان . فهذا ابن الأثير يذكر فى كتاب « المثل السائر » أن الشعر والخطابة فى الأدب العربى لم يأتا بثقافة اليونان البيانية ، وينفى أن يكون هو قد تأثر فى رسائله وكتابه بما ذكره علماء اليونان فى حصر المعانى ، ويذكر أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا فى الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه ورأى أن ما ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربى شيئاً (١)

وكان العرب يؤمنون بأنهم أوفر الأمم حظاً ، وأعلامهم كعباً ، وأكثرهم آثاراً ، فى الأدب والشعر ، فهم فى غنى عن أن تترجم لهم آداب الأمم القديمة ، وخاصة أن عنايتهم كانت موجهة إلى نقل ما هم فى حاجة ماسة إليه من ثقافات ومعارف . . . وإنما ترجموا ألواناً من الآداب الفارسية ، لأن الأدب الفارسى على العموم قريب من ذوق العربى كقرب ما بين الفرس والعرب من صلات

وجوار ، والأدب الفارسي في جملة ليس فيه من الأساطير والحديث عن
الآلهة نظير ما تحفل به الآداب اليونانية الوثنية ، ولهذا كان بعض نقاد العرب
المقآخرين يصورون إعجابهم بأدب الفرس ، فهذا ابن الأثير يقول في كتاب
« المثل السائر » : إني وجدت المعجم يفضلون العرب في الاسهاب ، مع الاحتفاظ
بالجودة ، فإن شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً ، وهو شرح
قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم ، كما
فعل الفرس في نظم الكتاب المعروف بشاهنامه ، وهو ستمون ألف بيت من
الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم ، وقد أجمع فصحاؤهم على أنه
ليس في لغتهم أفصح منه . وهذا لا يوجد في اللغة العربية على أنساعها ، وتشعب
فنونها وأغراضها ، وعلى أن العجم بالنسبة لهم كقطرة من بحر .

ولم يجد المترجمون حائلاً يحول بينهم وبين نقل هذه الآداب الفارسية إلى
العربية ، بل كانت يلقون الكثير من ألوان التشجيع من العناصر الفارسية
ذات النفوذ والسلطان في الدولة العباسية ، وخاصة الوزراء الذين يلقون إلى
أصول أعجمية ، وكان المترجمون يقتربون أحياناً إلى هولاء الوزراء بترجمة
آداب أمهم ، التي تمجد تاريخهم القديم ، وقوميتهم الخالدة ، وملوكهم الأجداد
وأبطالهم المغاوير ، كما كانوا يقتربون إلى الخلفاء بترجمة الطرائف الأدبية ،
والملاح الممعة ، لتكون مادة للمفاخرة والسمر .

وفي هذا جميعه ما يدلنا دلالة واضحة على أنه لم يكن هناك تأثير للأدب
اليوناني في الأدب العربي . . أما التأثير الأكبر ، فقد كان لعلومهم
وفلسفتهم .

وبذلك نستبين أن الآداب الفارسية كانت أكثر تأثيراً في الأدب العربي
من الآداب اليونانية .

أثرت حركة الترجمة ثمارها النافعة في العلوم والآداب العربية ، وأحدثت كذلك آثارها الواسعة في لغة العرب بل فقد كانت الترجمة وسيلة لزيادة ثروة اللغة العربية في الألفاظ والأساليب ، وفوق تعريب العرب للأسماء الأعجمية لتأدية أغراضهم ومعانيهم وأفكارهم ، ولتقوم اللغة بمقتضيات الملك والسياسة والاجتماع والحضارة ، وكذلك وضموا مصطلحات جديدة لتواجد العلوم ومعارفها ، وأكثروا من التوسع في مدلولات الألفاظ العربية عن طريق المجاز والاستعارة والكناية والتشبيه وما إليها . . . هذا غير ما نال الأسلوب من نماء وقوة وحياة وتجديد ودقة تصوير وبلاغة تعبير . (

وقد هذب المنطق والفلسفة أفكار الأدباء ومعانيهم ، وصقل إنتاجهم وخیالاتهم ، وغير نظرهم إلى الأشياء ، فظهر العمق والترتيب العقلي ، وقل خطأ الأديب أو الشاعر مما يرجع إلى التفكير ، وصار الكاتب يحرص على سلامة الفكرة ، وصحة التقسيم ، وينتقل من المقدمات إلى النتائج ، ويفرق بين الحقائق والمباغات الكاذبة .

فضلا عن أنه قد نشأت علوم جديدة في عصر الترجمة كانت أنرا لها ، أمدت اللغة والآداب والشعر بمحصول كبير وثروة واسعة في النواحي اللغوية والأدبية والعلمية .

(على أن حركة الترجمة كان لا بد أن يكون لها بعض الأضرار ، التي عادت على اللغة العربية بأسوأ الآثار ، ومنها كثرة استعمال أساليب المنطقيين والفلاسفة وأفعال الكون والبناء للمجهول وصوغ المصادر الصناعية ، مثل الكيفية والكمية والذاتية والعرضية والمائية والحيوانية والإنسانية ، وكثرة

لفصل بالضمير الغائب، وسوى ذلك، مما أوثر الألسنة لكثرة، والاسماء
بجمعة، والمنطق القواء، والمسلكات ضعفاً، والفطرة والطبع تهقيداً وضيقاً
هذا إلى ما نتج عن كثرة المصطلحات ودقة مدلولاتها من شيوخ الأساوي
العلماء، واستحداث أصحاب كل علم لغة تأليفية لها رموزها ومعانيها وألفاظها
صعوبة فهم البعيد عن هذا العلم لأغراض العلماء والكتابيين فيه . . . وهذه
المصطلحات كثيرة متعددة : ففي الفلك والرياضة نجد : المرصد والزيج والتعديلات
المخروط والدائرة والمثلث والمربع . وفي الطب نجد : الصيدلة والتشريح
الجراحة والتوليد والسوداء والصفراء : وفي الفلسفة نقرأ : الجوهر والمرضى
التصور والتصديق والموضوع والحمول والقياس والشكل والكيفية والكمية
الماهية والهوية واللاتباينية . . . إلى غير ذلك من المصطلحات التي كثرت
حتى وضعت لها مجاميع خاصة، منها : كليات أبي البقاء، وكشاف اصطلاحات
الفنون، وكتاب التمرينات لأبى جرائى المقوفى عام ٨١٦ هـ .

التأثير الاجنبى

فى اللغة العربية وآدابها

كان لامتزاج العرب بالعجم ، وما نشأ عنه من آثار ، وما ذاع بسببه من
أفكار ، خطره الشديد ، ودويه البعيد ، فى البيئة الاسلامية العربية .. ومن
أظهر ما نتج عن ذلك الامتزاج ، وترتب عليه ، ترجمة العلوم المختلفة ، من شتى
اللغات ، إلى اللغة العربية ، كما فصلنا

ولقد شغل بهذه الثقافات الجديدة المترجمة طبقات من المفكرين والعلماء
والأدباء والشعراء شغلا كبيرا ، وأقبلوا عليها إقبالا شديدا ، كما أقبل عليها
الناشئون ، يحاولون دراستها وفهمها وهضمها ، ليكونوا ثقافتهم تكوينا سليما ،
ويعمدوا أنفسهم للمناصب العالمية ، والدرجات الرفيعة

وأخذت العلوم الدخيلة المنقولة إلى العربية ، والمعارف العامة التى تشقت
بها عقول المستعربين ، تدخل إلى المعاهد والمدارس الإسلامية ، حيث تناولها
العلماء بالشرح والتعليق والتأليف ، حتى إذا فضجت الثقافة الفكرية ،
وازدهرت الحضارة فى البلاد العربية ، أخذ المسلمون يؤلفون فيها ، ويكتبون
فى موضوعاتها ، ويستقلون ببحوثها ، فبعد أن كانوا مترجمين ، أصبحوا باحثين
ومؤلفين . وظهرت ثمار هذه النهضة فى العواصم الكبرى للعالم الاسلامى :
خراسان والرى وخوزستان وأذربيجان وما وراء النهر والشام ومصر وسواها ،
وكانت بغداد كهبة الفلاسفة والعلماء ، ومنبت أهل الفضل ، ومقر نقلة العلم من
شتى العناصر والأجناس ، ومن مختلف اللغات .

وكان للطبقات المستعربة - من هندود وفرس ، وسريان ويونان وروم

وسواهم - عقلية مستنيرة ناضجة ، أحدثت أثرها الواسع في العرب الذين اتصلوا بهم وخالطوهم وعاشروهم ، وظهرت ميزاتهم وخصائصهم المقيمة في طبقات المولدين ، الذين شهبوا بالندابة والذكاء وسعة التفكير وخصب الخيال ، ونحن نعرف أن العرب الذين كانوا يأنفون قبلاً من الزواج بالأعجميات ، ويمدونهم عيباً ومهانة وجناية على الأبناء ، أقبلوا في هذا العصر على الزواج منهن ، لما رأوا من وفرة جمالهن ، ونجاسة أولادهن ، حتى ليروى أن أهل المدينة كانوا يزهدون في التسرى ، إلى أن نشأ فيهم على بن الحسين ومحمد بن القاسم وسالم بن عبد الله ، ففاقوا أهل المدينة ورعاً وعلماً ، فرغبوا فيه ، وأقبلوا عليه . فليس عجيباً إذن في هذا العصر أن تكثر طبقات المولدين ، ويكون لها آثارها في الحياة الاجتماعية والعقلية والأدبية .

ولقد ظهر هذا التأثير الأجنبي في الأدب واللغة واضحاً منذ بدأ عصر نفوذ الخلفاء العباسيين . أما في عصر بني أمية فكان أثره قليلاً محدوداً ، لقلّة الاختلاط ، ولأنّ لغة العرب من الزواج بالأعجميات ، ونفور العربية من الزواج بأعجمي ، ولأنّ حركة الترجمة لم تكن قد بدأت بعد ، والحركة العالمية لم تكن قد بلغت حد الازدهار ، وكان فحول الأدباء والشعراء والمطّلعين والكتّاب لا يزالون يعيشون في بلاد العرب ، أو قريباً من البصرة والكوفة ودمشق ، وكانت طبقات الموالى لا تزال تكون نفسها في اللغة ، وتأخذ بنصيبها من الثقافة العربية ، ولم تكن قد فضحت بعد مواهبها وملكاتها الأدبية .

فلما جاء العصر العباسي وبدأ بقاء الحضارة ، وذاغت ألوان الثقافة ، وقامت حركة الترجمة على ساقها ، أخذ التأثير الأجنبي يبدو بوضوح في اللغة العربية وآدابها . ولما أخذ في الحديث بشئ من التفصيل ، عن أهم هذه الثقافات وهي : الفارسية والهندية ، واليونانية ، ومدى أثرها في لغة العرب ، وما أفاد منها الأدب

الثقافات الأجنبية

وأثرها في اللغة والأدب

الثقافة الفارسية :

ترجع صلات العرب بالفرس إلى ما قبل الإسلام ، فقد كان الجوار مدعاة الاختلاط ، وسبباً لتوثيق الروابط السياسية والاقتصادية

واقعد أقام الأكاسرة إمارة الخيرة على حدود مملكتهم ، لحمايتها من عدوان القبائل العربية ، ولتأمين تجارتهم داخل الجزيرة ، كما امتدت فتوحاتهم إلى أطراف البلاد العربية كاليمن والبحرين ، وكان من نتيجة هذا الاختلاط شيوع كثير من الألفاظ الفارسية في لغة العرب وآدابهم ، كما يتضح ذلك من شعر الأعشى وعدي بن زيد وأمية بن أبي الصلت

وتأثر كذلك بعض الفرس بالآداب العربية ، حتى ليقال إن بهرام جور — وهو فارسي قديم — تعلم في الخيرة ، وأخذ الشعر عن العرب ، ونظمه بالعربية والفارسية

فلما جاء الإسلام خضعت بلاد الفرس للحكم الإسلامي ، وهاجرت القبائل العربية إلى هذه البلاد، وهاجر الفرس كذلك إلى البلاد العربية، وحنق الكثير منهم اللغة العربية وعلومها وآدابها ، فكانوا صلة بين آداب الفرس والعرب ثم زاد اتصال الأميين منذ قامت الدولة العباسية بمساعدة الموالى من الفرس ونقلت الخلافة إلى بغداد ، وأنشئ منصب الوزارة وجعل في الغالب وقفاً على النخباء الأذكياء من الفارسيين

واقف جد الوزراء والكتاب الفرس في نشر ثقافتهم وأدبيهم والممكنين
لمعارفهم في البيئة العربية، حتى صار الإلمام بهذه الثقافة والممكن من تلك الآداب
مما يرفع قدر الأديب، ويجعله ملحوظ المكانة وموق المنة. فإذا كان مطلقاً
على تاريخ الفرس وأنظمتهم في الحكم وطرائقهم في السياسة، اشتمت الرغبة فيه
وكانت الحاجة إليه.

يقول عبد الحميد الكاتب من وصيته إلى الكتاب: « واعرفوا أيام
العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه
بهممكم » وقال الرشيد للكماني معلم بنييه: « رونا من الأشعار أعفها، ومن
الأحاديث أجمها لمحاسن الأخلاق، وذا كرنا بآداب الفرس والهند »
وأصبح للثقافة الفارسية في بغداد والحوضر العربية مقام كبير، زاد من
شأنه وعظم من خطره حرص الوزراء والكتاب وأرباب النفوذ ممن نبتوا من
أصول فارسية على التمكن لها وإشاعتها، ثم حركة الترجمة الواسعة من الفارسية
إلى العربية.

أثر الثقافة الفارسية في اللغة العربية:

ويظهر أثر الثقافة الفارسية في لغة العرب فيما يلي:

١ - الألفاظ الفارسية التي عربت ونقلت إلى العربية، وهي كثيرة
لا حصر لها، مثل الفالوذج لما يسمى عندنا « البالوذة »، والاوز ينجم^(١)،
والجوز ينجم لنوع من الفطائر يحشى بالاوز أو الجوز، والكمانج وجمعه كوامنج
وهو مشه للطعام يتخذ من دقيق ولبن وملح ويجفف، والطباهجة^(٢) طعام

(١) في اللسان: في من الخوى شبه النطائف.

(٢) هو اللحم المشرح في القاموس. وفي شفاء الغليل للشهاب الخفاجي: هو الكتاب

وفي اللسان: ضرب من قلى اللحم.

من يبيض وبصل وحلم ، والسكباج ارق يعمل من اللحم والخل وأصلها سكبيا ،
وسك بمعنى نخل وباب معنى طعام .. إلى غير ذلك من أسماء الأطعمة

ومثل . الدوشاب وهو نبيذ التمر ، والجلاب لماء الورد ، والمسطار حمرة
حلو ، قال الأختل : « حمراً عيونهم من المسطار » . وغير ذلك من أسماء

الأشربة ... ومثل السحور^(١) والسنباب ، والخششار لطير الماء

ومثل : الدار صيني ومعناه شجر الصين ، والجندار وهو زهر الرمان ،
والبستان معرب بستان وبو معناها رائحة وستان معناها موضع ، والكروبا ،
والقوت ، والأذريون لنور أصفر معرب أذر كون أى لون النار ، وكانت
الفرس تقابل به .. إلى غير ذلك من أسماء النباتات

ومثل : الأسطراب^(٢) ، والزيج لحيط البناء ، والمهندز ، والزئبق ،
والأكسير ، والمغنطيس ، والزرنيخ .. وغير ذلك من مصطلحات العلوم
والصناعات

ومثل : البربط للعود ومعناه صدر العرد لشبهه به — وبر بمعنى صدر —
والهم والزير وهما من أوتار العود ، والطيلسان لما يلبس فوق الكتف ، والدرفس
العلم الكبير والعسكر ، والقخت^(٣) لما توضع فيه الثياب ، والدهقان لرئيس
القرية ، والدورق لمكيال الشراب كما في شفاء الغليل ، وفي القاموس المحيط
هو الجرة ذات العروة ، والبيارسقان لموضع علاج المرضى وبيارسق معناه مريض
واستان موضع .. إلى غير ذلك من الأسماء الفارسية المعربة

(١) دابة يتخذ من جلدها فراء .

(٢) آلة لقياس ارتفاع الكواكب عند الفلكيين .. وتعرف بواسطة ذلك الأرقام

(٣) هو الدولاب

وهكذا أخذ العرب كثيراً من الكلمات الفارسية وصفلوا بها يتفق
واسانهم . وكان هذا التعريب موجوداً منذ العصر الجاهلي ولكنه زاد ونما
في عصر نفوذ الخلفاء العباسيين

٢ — قيام اللغة العربية بمقتضيات الملك والسياسة والحضارة ، بتأثير
الثقافة الفارسية ، التي زادت في ثروة العربية ، وجمالها أقدم على التوضيح
برسالتها ، وبهشت فيها دماء التجديد والقوة والحياة بزيادة الألفاظ اللغوية عن
طريق التعريب والتوسع في مدلولات الألفاظ العربية ، ووضع مصطلحات
العلوم

٣ — ترجمة كثير من المؤلفات الفارسية في الأخلاق والآداب والسياسة
والطب والحكمة والفلسفة إلى اللغة العربية ، مما كان له أثره في زيادة مادة اللغة
العربية وأغراضها ومعانيها وأفكارها

أثر الثقافة الفارسية في الأدب العربي :

وأثرت كذلك الثقافة الفارسية في الأدب العربي تأثيراً كبيراً يظهر
بوضوح فيما يلي :

١ — كانت زعامة التجديد في الأدب العربي شعره ونثره في عصر نفوذ
الخلفاء العباسيين معتوداً لوائها بيد المتقنين بالثقافة الفارسية والعربية ، فعبد الحميد
السكرتير وابن المقفع هما إماما التجديد في النثر في هذا العصر ، وبشار
وأبو نواس شقاً لطريق التجديد للعولدين في الشعر . وكان نجاج العرب الذين
يحيون الفارسية والفرس الذين يمجسون العربية يجمع خير ما في بلاغات
العرب والفرس جميعاً من معاني وخيالات وأساليب ، لذلك أسدوا آثراً واسعة
في الشعر والنثر ، فجددوا في المعاني والخيالات والأغراض وطرق الأداء ،

وبعد أن كان الأدب في عهد بني أمية عربياً خالصاً ولم يكن للفرس إلا مداسته وحفظه وروايته ، أصبح في عهد بني العباس يزدان بأحلى وأروع ما في أدب الفرس من معان وأخيلة فتمددت الأغراض ، واتسع مجال التفكير والخيال ، وظهر التأنيق في التعبير ، مع المحافظة على فصاحة العربية والأخذ بأساليبها ، ويقول الجاحظ عن موسى بن سيار وهو أحد من حنق الفارسية والعربية وأشهر القصاص في هذا العصر : « كان من أعاجيب الدنيا وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية » ومثله كثير ممن أجادوا اللغتين ، وجمعوا بين الثقافتين : كابن المقفع وسهل بن هارون والفضل بن سهل وسواهم ، ممن كان لهم فضل كبير في رقي الأساليب العربية ، واقتباس المحسنات البديعية ، واتساع الخيال ، واستحكام المعاني والإبداع والاختراع والتجديد فيها . وكانت للفرس حكم وأمثال وتصويرات بديعة وأخيلة دقيقة ، وضع ذلك كله تحت أعين العرب ، وكانت المعاني الفارسية ترشد العربي إلى أمثل طرق التصوير والتعبير ، وكان الشعراء ينظمون ما يتسرب إليهم من الصور الفارسية ، كان كسرى أنوشروان مشتهراً بالترجس ، وكان يقول : « هو ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر ، فقال الشاعر :

وياقوتة صفراء في رأس درة مركبة في قائم من زبرجد
 كأن بقايا الطال في جنباتها بقية دمع فوق خد مورد
 وكان أردشير بن بابك يصف الورد بأنه در أبيض وياقوت أحمر على كرسى زبرجد أخضر توسطه شذور من ذهب أصفر له رقة الحمر ونفحات العطر ، فقال محمد بن عبد الله بن طاهر :

كأنهن يواقيت يطيف بها زمرد وسطه شذر من الذهب
 فاشرب على منظره مستطرف حسن من خمرة مزه كالجر في الذهب

وكان ابن الرومي يأخذ حكم بهرام جور فيبظمها شعراً عربياً .. ويقول
بزرجمهر : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق فإنها لا تفنى ، وإذا أدبرت عنك
فأنفق فإنها لا تبقى ، فقال الشاعر العباسي :
فأنفق - إذا أنفقت - إن كنت موسراً

وأنفق - على ما خيلت - حين تمسر

فلا الجود يفنى المال والجد مقبل ولا البخل يبقى المال والجد مدبر
وقيل لابن المقفع : لم لا تطلب الأمور العظام ؟ فقال : رأيت المعالي مشوبة
بالمكاره ، فاقترعت على الخمول ضداً بالعافية ، فأخذ العتابي فقال :

وإن جسيمات الأمور مشوبة يستودعات في بطون الأساود^(١)

وكان العتابي الشاعر لصلة بالثقافة الفارسية جيد المعاني والأخيلة ، وسئل
لم كتبت كتب المعجم ؟ فقال : وهل المعاني إلا في كتب المعجم ، فالإبلاغ
لنا والمعاني لهم .

ويقول أبو هلال العسكري في رسالته « التفضيل بين بلاغتي العرب
والمعجم » : للفرس أشعار لا تضبط كثرة ، واليونانيون أشعار دون الفرس «
٣ - هذا إلى ما جد من فنون أدبية بتأثير الامتزاج بين العرب والفرس
وانتشار الثقافة الفارسية ، كالآداب القصصية ، وأدب الزهد ، وأدب المقامة ،
وسواها ، على ما أشرنا إليه سابقاً

وإن كنا لا ننكر ما سرى إلى العربية بتأثير الثقافة الفارسية ، من ضعف
الملكات ، وكثرة العناية بالبديع الذي يحول دون البساطة والاعتماد على الطبع

اتسمت الفتوحات الإسلامية ، وانساب جيوش العرب المظفرة في كل مكان ، وفتح محمد بن القاسم الثقفي السند في عهد الوليد بن عبد الملك . وقد اختلط بعض الهنود بالعرب ، ودخل العرب بعض جهات من الهند ، وبدأ يظهر أثر هذا الاختلاط ، فترسبت الثقافة الهندية إلى العالم العربي ، وترجمت بعض مصادرها وأصولها إلى اللغة العربية مباشرة بواسطة العرب الذين تعلموا الهندية والهنود الذين تعلموا العربية ، وعن طريق الثقافة الفارسية التي كانت قد التهمت من قبل الكثير من المعارف الهندية .

وكانت الهند تشتهر بالحساب وعلم النجوم والطب والصناعات والتماثيل والنحت ، وبالْحِكْمَة ، التي كان الهنود معديها ، وبالألهيات والرياضيات ويقول القنطري في « أخبار الحكماء » (١) : والهند هم الأمة الأولى ، كثيرة العدد ، فخمة الممالك . قد اعترف لها بالحكمة ، وأقر بالتبريز في فنون المعرفة ، كل الملل السافرة . وكان الصين يسمون ملك الهند ملك الحكمة لفرط عنايتهم بالعلوم . فكانت الهند عند جميع الأمم معدن الحكمة ، وينبوع العدل والسياسة ، ولبعد الهند من بلادنا قلت تأليفهم عندنا ، فلم يصل إلينا إلا طرف من علومهم ولا سمعنا إلا بالقليل من علمائهم »

وقد استقدم يحيى بن خالد البرمكي بعض الأطباء من الهند أمثال منك . ونبغ من الموالى الذين جلبوا من الهند وغنموا في الحرب ووزعوا على الجند ومن أولادهم : الشعراء والأدباء والعلماء ، كأبي عطاء السندي الشاعر ، وكأبي الأعرابي العالم اللغوي المشهور ، وسواهما

والهنود نحو وصرف ، ولهم ولع بالشعر ونظمه ، ونقلت عنهم آراء في
البلاغة والأدب .. قيل لبيلة الهندي : ما البلاغة عندهم ؟ فقال : عندنا في ذلك
صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسي
بالتقييم بخصائصها وتلخيص لطائف ما فيها ، فترجعت فإذا فيها ما ترجمته : « أول البلاغة
اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح
قليل الالحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الأمة بكلام
السوقة ... » الخ (١)

وعرف العرب من عقائد الهند ومذاهبها وعلومها الكثير ، واستعانوا
بالحنود في الفلك ..

وعن الهند أخذ العرب كذلك لعبة الشطرنج ، ونظموا فيها الشعر الكثير
الجميل ، قال ابن الرومي في أبي القاسم التوزي الشطرنجي من قصيدة طويلة :
غاط الناس : لست تلمب بالشطرنج لكن بأنفس اللعبياء
لك مكر يدب في القوم أخفى من ديب الفناء في الأعضاء
وأظن افتراسك القرن فالقرن من منايا وشيكة الإرداء
وأرى أن رقعة الأدم الأسمر أرضاً جللتها بدماء
تقرأ الدست ظاهراً فتؤديب ، جميعاً كأحفظ القراء
على أن أثر الثقافة الهندية في لغة العرب كان ضئيلاً يتمثل في هذه الألفاظ
الهندية التي عربت ، مثل : الزنجبيل ، وكافور ، والآبنوس ، واللبفاء ،
والخيزران ، والأهلياج ، وسوى ذلك من أسماء الحيوانات والنباتات المنقولة
من الهندية .

أما أثرها في أدب العرب فيبدو فيما اقتبس منه الآداب العربية من القصص

والحكم الهندية المختلفة وقد تأثر الشعراء بحكم الهند وأمثالهم وأقوالهم في
الفلك ، فهذا أبو نواس يقول :

قل لزهير إذا حدا وشدا أقبال وأكثر فأنت مهذار
سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندي كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتي كذلك الثلج بارد حار
قال ابن قتيبة : وهذا الشعر يدل على نظره في علم الطبائع لأن الهند تزعم
أن الشيء إذا أفرط في البرد عاد حاراً مؤذياً

ومن مظاهر تأثر الشعر بأقوال الهنود في الفلك قول أبي نواس في الخمر :
تخيرات والنجوم وقف لم يتمكن بها المدار
يريد أن الخمر تخيرت حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب يذكرون أن
الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفة في برج ثم سيرها من هناك ،
وأنها لا تزال جارية حتى تجتمع في ذلك البرج الذي ابتدأها منه ، وإذا عادت
إليه قامت القيامة .

وظهرت كذلك آثار هذه الآراء في غير الشعر ، يقول ابن قتيبة : قرأت
في كتاب من كتب الهند : « شر المال ما لا ينفق منه ، وشر الإخوان الخاذل ،
وشر السلاطان من خافه البرى » ، وشر البلاد ما ليس فيه خصب ولا أمن »
إلى غير ذلك مما أفاده الأدب العربي من الثقافة الهندية .

الثقافة اليونانية :

حين ازدهرت النهضة العلمية في العصر العباسي ، وشجع العلماء ترجمة
العلوم ، أخذ السريان يترجمون الثقافة اليونانية من لغتهم إلى العربية ، كما
أذاعت الكتب الفارسية المترجمة الكثير من المعارف اليونانية . وبذلك

بدأت حيلة العرب بثقافة اليونان وعلومهم وفلسفتهم وحكمتهم . ثم نقل إلى العربية العديد من مؤلفات اليونان كما أسلفنا

ويبدو أثر الثقافة اليونانية في لغة العرب فيما اكتسبته من ألفاظ متعددة عربت مثل : البرجد وهو كساء ، غليظ مخطط ، والزبرجد والياقوت والزمرد والقيراط والأوقية والبلغم والبرقوق واللوبيا والهرمس ، والجاثليق والبطريق ومثل : إيساغوجي بمعنى المدخل وسموا به مقدمات المنطق وهي الكلمات الخمس : من الجنس والنوع والفصل والخاصة والمرض العام . ومثل السفسطة والفلسفة بمعنى الحكمة ، والهيولي بمعنى الأصل ، والموسيقا ، والقانون إلى غير ذلك من أمثال هذه الألفاظ التي لاعد لها

وقد أثر المنطق اليوناني في الفكر العربي تأثيراً كبيراً إذ أصبح له سلطان على العقول فاصطبغت به طريقة الجدل والبحث والتعبير والتدليل . كما كان للفلسفة اليونانية والطب والرياضة أثر كبير في عقول المسلمين وكان المتكلمون أكبر عامل في امتزاج الثقافة اليونانية بالعربية ، وصلة بين فلسفة اليونان وأدب العرب ، فقد قدموا معاني جديدة للأدباء والشعراء لم يكن لهم دراية بها

على أن الأثر البارز للثقافة اليونانية في أدب العرب يتجلى في نقل بعض الحكايات والأسفار القصيرة وترجمة بعض الحكم والأمثال الخلقية والمعاني الفلسفية فتأثر بها الأدب العربي واكتسب منها سعة في الخيال وتهذيباً في الفكر ويهمننا أن نقرر أن الأدب العربي قد أفاد من المعارف اليونانية ولم يستفد من الأدب اليوناني نفسه ، إذ لم نترجم إلى العربية روايته لما أسلفنا .

تولد العامية

واختلافها باختلاف الأقاليم

عدوى اللحن في هذا العصر :

كان اللحن حتى نهاية عصر بنى أمية قليلاً محدوداً ، إذا قيس بما حدث بعد ذلك ، لسلامة الملكات ، واستقامة الألسنة ، وعناية الخلفاء والأمراء بمقاومته ، والعمل على وضع الأعجام والشكل وأصول النحو ، ليهتدى بهديها الضال ، ويستقيم المعوج ..

فأما جاء العصر العباسي ، وزاد الفتح الإسلامي ، واعتقدت الدولة على الموالي ، وقربتهم إليها ، وعظم نفوذهم فيها ، وتسمنوا أرفع المناصب وأعلى المراتب ، وزاد اختلاطهم وامتزاجهم بالعرب ، استفحل أمر اللحن ، فأصبحت الدولة أعجمية خراسانية ، بعد أن كانت في عهد بنى أمية عربية أعرابية ، وزاد في انتشار اللحن وعظم البلاء به كثرة المولدين ، وشدة مداخلة النجم للعرب ، وانتشار الخواضن والمربيات والخدم والجواري الأعجميات في القصور ، مما أسقم الملكات ، وأضعف السلاطيق ، وجعل كل جهد يبذل لتقويم الألسنة وتربيتها على العربية وفصاحتها هباء . فهؤلاء خلفاء بنى العباس قد ربوا أبناءهم على أبدي شيوخ العربية وأثمتها وفجوها ، من أمثال : الشرقى القطامي مؤدب المهدي ، والآخر النحوي والكسائي اللذين كانا يؤدبان الأمين ، والبريدي مؤدب المأمون ، والفراء مؤدب أولاد المأمون ، والمفضل الضبي مؤدب الواثق . ومع ذلك لم يسلموا من اللحن ، وفساد الملكات ، ولم يقووا على صد هذا التيار المقدفق ، وما يؤثر عن المعصم أنه جاءته رسالة من بعض عماله ،

وفيها كلمة « الكلا » فاستمعته معرفة ممناها عليه ، فسأل وزيره احمد بن عمار
عنها ، ماهي ؟ فقال الوزير : لأدري ، فقال المقتسم : خليفة أمي ووزير عامي ؛
ثم سأل عمن بالباب من الكتاب ، فتبيل له : محمد بن عبد الملك الزيات ، فأدخل
عليه ، فسأله عن معنى « الكلا » فقال : هو العشب عامة ، فإن كان رطباً
فهو الخلا ، وإذا يبس فهو الحشيش ، فمرف المقتسم فضله واستوزره .

وسمع سعيد بن سالم الخليفة الرشيد يلحن فحف في عينه . . . وروى كذلك
أن المنصور لحن وفي المجلس أعرابي ، فصر الأعرابي أذنيه ، ثم لحن ثانية
فقال : أف لهذا ، ثم لحن ثالثة فقال الأعرابي : أشهد لقد وليت هذا الأمر
بقضاء وقدر . . . وكان المأمون يتكلم مع الناس على سجيته فإذا تكلم مع ابن
المهشم تحفظ خوفاً من اللحن لأنه يعرف الأعراب . وسمع بعض ولداء يلحن ،
فقال : ما على أحدكم أن يتعلم العربية ، فيقيم بها أودد ، ويزين بها مشهده ، ويقل
حجة خصمه ، ويمالك مجلس سلطانة ، بظاهر بيانه ، أيسر أحدكم أن يكون
لسانه كالسان عبده أو أمتة ، فلا يزال الدهر أسير كلمته ؟

ولم يسلم من اللحن كذلك العلماء والأدباء والكتاب ، فهذا الرشيد يعاتب
الفراء على ما كان يقع فيه من لحن ، فقال : يأمر المؤمنين إن طباع أهل الحضر
اللحن ، فإذا تحفظت لم لحن ، وإذا رجعت إلى الطباع لحنت . . . وهذا شيخ
العربية أبو عبيدة بن المثنى كان على سمة عامه باللغة إذا أنشد بيتاً لم يقرأ به .
وكان اللحن أنواعاً : فلحن في الإعراب ولحن في بناء الكلمة ، ثم زاد
اللحن شناعة حتى انقلب إلى عي ولكنة وعجز ونطق بالالفاظ محرفة . مما
نشأت عنه اللغة المامية على توالي الأيام .

ورغم جهود الخلفاء العباسيين في مقاومة اللحن ، وصمد تياره المقدفق ،
لتسلم العربية ، وتبقى قوية حية مزدهرة ، فقد أخذت العامية في الظهور
والقوالب ، وأخذ خطرهما يتفاقم ، وشرها يتزايد ، يوما بعد يوم .

والعامية هي اللغة التي استحدثتها العامة للفهم والتخاطب بها . . ثم تابعهم
عليها الخاصة ، بعد أن ضعفت الملكات وفست السلائق والتوت الألسنة .
وتقوم العامية على الألفاظ العربية المحولة عن أصلها بالتحريف أو التصحيف ،
وعلى المولد بالتوسيع في الاشتقاق والنعت ، وعلى الأعجمي الدخيل غير المعرب .
وتتحرر العامية من الأعراب ، ولا تثقيد بقيود اللغة العربية الفصيحة في الجمع
والقأنيث والتذكير والإشارة والأضافة والنسب وما إلى ذلك ، ويكثر تأثرها
في طرق الأداء ببعض الأساليب الأعجمية ؛ كأن تبدأ الجملة بالإسم دائما ،
وكما أخير أدوات الاستفهام عن حقها من الصدارة ، وككسر حروف المضارعة
وإدخال الباء على أول المضارع ليبدل على الحال ، وإدخال الحاء عليه بدل السين
ليبدل على الاستقبال ، وغير ذلك من طرق ووسائل تولد اللغة العامية .

وحين نشأت العامية في هذا العصر ، رأينا لغتين مختلفتين تسيطران على
الألسنة : اللغة الفصحى - وهي لغة الكتابة والخطابة والشعر - واللغة العامية
التي يسميها الجاحظ لغة المولدين والبلديين ، والتي لا تثقيد بقميد ، ولا تقف
قواعدها عند حد ، ولا تنبأ باستعمال الألفاظ كيفما كانت ، وتميل إلى إسكان
أواخر الكلمات مهما كان العامل الأعرابي .

واستمرت تلك الظاهرة آخذة في الذيوع والانتشار والسعة بعد هذا العصر ،
وأخذت فنون من الأدب العامي تحدث وتقولد : كالواليا والزجل والموشحات ،

وسواها ، وبذلك قويت المامية ، واستفحل خطرهما ، وصار أدبهما ينافس
أدب الفصحى منافسة شديدة .

ويروى أن أول ظهور المواليا كان على لسان جارية للبرامكة ، أخذت
تبكيهم وتندب أيامهم ، وتقول في رثائهم :

يادار ابن المولك راحوا أين الفرس أين الدين رعوها بالقنا والفرس
قالت تراهم رم تحت الأراضى الدرس سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خرس
ولقد أخذت المامية تحاول أن تتميز وتستقل عن العربية ، وتغزو الجماهير
وتنال استحسانهم ، وتكسب الانتصار من العامة والدعاه في العراق والشام ومصر
وشمال إفريقيا والاندلس وخراسان . ومع ذلك فقد صفت عن أن تصير لغة
قراءة وكتابة ، ولم تقطاول إلى ذلك في يوم من الأيام ، ولم يحرص أحد على
تدوين آثارها وآدابها .

وقد بذل العلماء جهوداً كثيرة ، لمقاومة المامية ، وإضمار خطرهما وتقليل
عدواها ، فبدأوا على التأليف في اللغة ، وبيان صحيحها وسقيمها ، والإرشاد
إلى العامى من ألفاظها وأساليبها ، والقنبية على وسائل إصلاح الملكات والأسمنة ،
وشرح أسرار قواعد الأعراب ، وحكمة ما وضموه من أصول في النحو ، فألف
ابن قتيبة كتابه « أدب الكاتب » وألف ثعلب كتابه المشهور « فصيح
ثعلب » ، وألف ابن السكيت كتابه « إصلاح المنطق » ، وألف اللغويون
الكثير من الرسائل في اللغة وألفاظها . واحتذى حذوهم العلماء المتأخرون ،
فألف الصولى كتابه « أدب الكتاب » ، وألف ابن خالويه كتاب « ليس في
كلام العرب » الذى بين فيه الألفاظ التى تستعملها الناس ولم يصح سماعها من
العرب ، وألف الحريرى كتابه « درة الفواصى فى أوهام الخواص » ، والجواليقى
كتاب « التكملة فيما يلحق فيه المسامة » وهو كالذييل لدرة الفواصى ، وألف

العفسي « مصحح المصحف وتحرير التفسير » ، والشهاب الخلفاني كتابه
« شفاء الغليل »

وكذلك شمر الخلفاء عن ساعد الجند ، وبدلوا اليهود الجبارة ، في مقاومة
المامية ، ومنع عدواها من الانتشار ، مما كان له أكبر الآثار في المحافظة على
العربية ، والتخفيف من أضرار المامية وآثارها السيئة المردولة

انتهز المامية بأقوالهم :

أخنت هذه اللغة المامية ، تقاون بلون الأقليم الذي تعيش فيه ، وتتمكن
من أسنة أبنائه . ومن ثم اختلفت في الأقاليم الإسلامية اختلافا واضحا ، فهي
في الشام غيرها في مصر أو العراق أو فارس ، وهي في مصر تختلف عن
أخوانها في باقي الأقطار والأمصار ، وهكذا

ويرجع السبب في اختلاف المامية باختلاف الأقاليم إلى ما يلي :

١ — اختلاف الشعوب التي امتزجت بالعرب في الأقطار الإسلامية ، فكان
لكل شعب من هذه الشعوب لغة وطنية خاصة يحكم بها ، قبل أن يتحدث
بالعربية ، فلما تعلم العربية واتخذها لغة له سرى إلى هذه اللغة العربية التي ينطق
بها كثير من ألفاظ وأساليب لغته القديمة ، وبمعدد هذه اللغات القديمة التي
سرت عدواها إلى الدين دخلوا في العربية من الموالى ، اختلفت المامية في
الأقاليم اختلافا كبيرا

٢ — تفاوت اختلاط هذه الشعوب بالعرب ، فكلما قل الاختلاط بمرتبة
المامية عن العربية ، وكلما قوى هذا الاختلاط زادت المداخلة بينهما . ثم على
مرور الأيام تأخذ اللغة المامية في الاستقلال والتميز حتى تصبح كأنها أصل
في نفسها

٣ — تفاوت المسافة بين الأقاليم المفتوحة وجزيرة العرب ، فكما قرب الأقليم إلى البلاد العربية قل خطر العامية فيه ، وزاد اتصالها باللغة العربية ، ومن ثم نجد قوام اللغة العامية في العراق والشام ومصر هذه الألفاظ العربية محرفة بعض التحريف ، وكما نأت البلاد شرقاً وغرباً أو شمالاً وجنوباً ، وقل المنصر العربي فيها ، ضعف تأثير العربية في أهلها ، وسات الأعجمية بينهم ، كما في السند وخراسان والنوبة وجنوب بلاد البربر ، حتى يروى أن الرشيد كان إذا خرج إلى خراسان وما وراءها ليمتدح أحوال البلاد اصطحب معه الترجمة حيث لا تعرف اللغة العربية ، ولما سار المتنبّي في هذه البلاد فيما بعده ، ورأى العجمة فاشية ، انطلق لسانه بقوله من قصيدة له مشهورة ، يمدح فيها عضد الدولة :

مغاني الشعب طيباً في المناني بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان
٤ — عدوى الجوار ، التي تفسد الملكات ، وتسقم الطباع ، وتحييف على الألسنة ، ولذلك نجد العامية في العراق تكثر فيها الألفاظ الفارسية ، وهي في الشام تخالطها الألفاظ الرومية ، وفي مصر الألفاظ القبطية ، وفي تونس والقيروان الألفاظ البربرية .

* * *

وهكذا نجد العامية تختلف اختلافاً واضحاً باختلاف الأقاليم ، فهي في إقليم غيرها في إقليم آخر ، ونجد لغة المخاطب في البلاد النائية كفارس وخراسان والسند والنوبة هي اللغة الأعجمية الوطنية ، وكان بعض الخاصة في هذه البلاد يتعلمون العربية ، ويحاولون إدخال السننهم على التحدث بها .
أما جزيرة العرب فن عاش في وسطها بعيداً عن مخالطة الفرس في ريف

العراق ، أو الروم في مشارف الشام ، أو الهند في البحرين ، أو القبط في حدود مصر ، فقد أمن لوثة الأسلحة ، وضعف الملكات ، ومن هؤلاء قبائل قريش وثقيف وهذيل وكنانة وخطفان وأسد وميم ، الذين هم أفصح العرب لساناً ، وأسلمهم بياناً ، وأصرحهم لغة ، لبعدهم عن الخلطة ... والقبائل الأخرى التي عاشت على حدود الجزيرة العربية خالط ألسنتها شيء من الفساد وإن كان يسيراً ، فالخميون وقضاعة وغسان عاشرُوا الروم ، وعبد القيس وأزد عمان خالطوا الهند في البحرين ، وجذام جاوروا أهل مصر من القبط ، وتغلب والتمر كانوا بين دجلة والفرات مجاورين لليونان ، وبكر عاشرُوا الفرس وداخلوهم ، وأهل اليمن ، خالطوا السودان والأحباش وسواهم ، فكانت لغتهم غير نقية لأثر الجوار ... ومهما كان فقد ظلت الفصحى هي لغة تخاطب العرب في جزيرتهم إلى نحو أواسط القرن الرابع الهجري ..

ويقول البشاري في كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » يصف السنة البلاد أيام استيلاء العباسيين على الخلافة : « إن لسان أهل جزيرة العرب هو العربية الفصحى ، إلا بصحار ، فإن فداءهم وكلامهم بالفارسية ، وأكثر أهل عدن وجدة فرس إلا أن اللسان عربى ، وبلاد العراق لغتها عربية والذين نزلوا بها من العرب أكثر ممن نزلوا بأى إقليم آخر ، وكذلك قال عن الشام ، أما مصر فنذكر أن الفاتحين أقاموا بالمدن الكبرى وكان أكثر الفلاحين بالقرى أقباطاً ، وفي أواخر العصر الأموى انتقل إليها كثير من قبائل العرب ، فتغلب على الناس الإسلام واللسان العربى . وبلاد المغرب لم يكن بها العنصر العربى ، فكان اللسان البربرى هو الغالب ، أما إقليم المشرق وهو خراسان وما وراء النهر وكذلك ما بعده شمالاً كالديلم أو جنوباً كفارس وبلاد الذوبة ، فلم يغلب اللسان العربى على أهلها ، وإن كان الإسلام قد شملهم .

النثر العباسي

نبض النثر في عصر نفوذ الخلفاء العباسيين نبضة طيبة ، لم يباغها قبل ذلك في عصر من العصور . فقد رقت الأساليب ، وعذبت الألفاظ ، وعمقت المعاني وسعت الأخميلة ، وتمددت الأغراض ، وانسقت الأفكار ، وذلك كله بما تهيأ للعباسيين من حضارة ومدنية ، وتعدد في صور الحياة ، ومظاهر الميش . وبما توفر لهم من ألوان الثقافات وأنواع المعارف الأجنبية .

وسنقحدث بالتفصيل عن كل لون من ألوان النثر في هذا العصر ، مبينين العوامل التي أثرت فيه ، والظواهر التي جدت عليه .

الخطابة

نماذج منها:

— ١ —

خطاب أبو العباس بالشام بعد مقتل مروان بن محمد فقال :

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، وأحلوا قومهم دار البوار ، جهنم يعملونها ، وبئس القرار . »

« انكص بكم بأهل الشام آل حرب وآل مروان ، يتسكعون بكم في الظلم ، ويتهورون بكم في مباحض الزلق ، يطأون به حرم الله وحرم رسوله . ماذا يقول زعماءكم غدا ؟ يقولون : ربنا هؤلاء أضلونا ، فآت بهم عذاباً ضعفاً من النار . »

« إذا يقول الله عز وجل : « لكل ضعف ولكن لا تعلمون »

أما أمير المؤمنين فقد ائتمن بكم التوبة ، واغفر لكم الزلة ، وبسط لكم

الإقالة، وعاد بهضله على نفسهكم ، وبجملته على جهلكم . فليفرخ روعكم^(١) ، ولتطامن
بكم داركم ، ولتظلمكم مصارع أولئكم ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا .

— ٢ —

وخطاب سليمان بن علي عم أبي الميَّاس ، فقال .

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون .
إن في هذا لبلاغاً لنوم عابدين » قضاء مبرم ، وقول فصل ، وما هو بالهزل ،
الحمد لله الذي صدق عبده ، وأنجز وعده ، وبعدا للقوم الظالمين ، الذين اتخذوا
الكعبة غرضاً^(٢) والفيء إزثاً ، والدين هزواً ، وجعلوا القرآن عضنين^(٣) ،
ولقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فكأين ترى من بشر معطلة وقصر مشيد^(٤) ،
ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد ، أمهلوا والله حتى نبذوا
الكتاب ، واضطهدوا العترة ، ونبذوا السنة ، واعتدوا واستكبروا ، وخاب
كل جبار عنيد ، ثم أخذهم فهل تحسن منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً »

— ٣ —

وخطاب أبو جعفر المنصور يوم الجمعة فقال :

« أحمد الله وأستعينه ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أيها الناس : اتقوا - فقام إليه رجل . فقال . أذكرك من ذكرتنا به

(١) يقال أفرخ روعه : أي خلا قلبه من الهم وعلى هذا يكون معنى أفرخ خلا ،
ومعنى الروح القلب . أما قولهم : أفرخ روعه بفتح الراء فالروع هنا الخوف

(٢) إشارة إلى ما نال الكعبة من بني أمية من هدم وتدمير في فتنة الزبير

(٣) العضة : الفرقة ، وجمعها عضون ، والمضه (بالهاء) : الكذب وجمعه عضون أيضاً
فمعنى جعلوا القرآن عضنين : جعلوه أجزاء فقال بعضهم انه شعر ، وقال آخرون هو شعر
وقال غيرهم كهانة . وقيل جعلوه كذبا

(٤) المشيد : المطلق بالمشيد وهو الجص ، والمشيد (كمشكرم) : المطول

وَأَنْتَ فِي ذِكْرِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : سَمِعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : مَنْ شَهِدَ عَشْرَ نِعَمٍ مِنْ اللَّهِ وَذَكَرَ بِهَا وَأَعُوذَ بِاللَّهِ أَنْ أَذْكَرَ بِهِ وَأَنْسَاءَ ، فَقَاتَلَنِي الْعِزَّةُ بِالْإِسْمِ ، فَقَدْ ضَلَّاتِ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَمِّينَ . ثُمَّ التَفَتَ إِلَى الرَّجُلِ وَقَالَ : وَمَا أَنْتَ يَا فَاثِلَاهَا فَوَ اللَّهِ مَا اللَّهُ أَكْدَتْ بِهَا ، وَلَسَكُنَ لِمَقَالِ قَاءِ فُلَانٍ فَقَالَ نَمُوتُ قَبْ فَصَبِرْ ، وَأَهْوَنُ بِهَا لَوْ كَانَتْ الْمَقْبُورَةُ . وَنَدَّ أَنْذَرَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ اخْتِياراً فَإِنَّ الْمَوْعِظَةَ الْحَسَنَةَ عَلِيمُنَا نَزَلَتْ وَفِينَا نَبِغَتْ . ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَوْضِعِهِ مِنَ الْخُطْبَةِ فَقَالَ : رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا نَظَرَ فِي دُنْيَاهُ لِأَخْبَرْتَهُ فَمَشَى الْقَصْدَ ، وَجَانِبَ الْمَجِيرِ .

ثُمَّ أَخَذَ بَقَاءَ سَيْفِهِ وَقَالَ : إِنْ بَكِيَ دَاءُ هَذَا شِفَاؤُهُ وَأَنْدَ زَعِيمٌ لَكُمْ بِشَفَائِهِ . فَلَا يَمْتَنِعُ عِنْدَ قَبْلِ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ . فَمَا بَعْدَ الْوَعِيدِ إِلَّا الْإِيْقَاعُ ، وَإِنَّمَا يَفْتَرِي السَّكَنْبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ .

— ٤ —

وَيُخَاطَبُ أَبُو جَعْفَرُ الْمَنْصُورُ بِالْمَدَائِنِ عِنْدَ قَتْلِ أَبِي مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِيَّ فَقَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَخْرُجُوا مِنْ أَنْسِ الطَّاعَةِ إِلَى وَحْشَةِ الْمَعْصِيَةِ ، وَلَا تَسْرُوا غَيْبِ الْأَثَمَةِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَسِرْ أَحَدٌ قَطْ مِنْكَرَةٍ إِلَّا ظَهَرَتْ فِي آثَارِ يَدِهِ ، وَفَلَقَاتِ لِسَانِهِ ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ ، وَبَدَأَ اللَّهُ لِإِيمَانِهِ بِالْعِزَّازِ دِينَهُ ، وَإِعْلَاءَ حَقِّهِ . إِنَّا إِنَّمَا نَبْخَسُكُمْ حَقُوقَكُمْ ، وَلَنْ نَبْخَسَ الْإِيمَانُ حَقَّهُ عَلَيْكُمْ ، إِنَّهُ مِنْ نَارِ عَمَّا عَرُودَ هَذَا الْقَمِيصِ ، أَجْزَرُ نَادٍ خَفِيَ هَذَا الْغَمْدُ ، وَإِنْ أَبَا مُسْلِمٍ بِإِيمَانِهِ وَبَايَعَ النَّاسَ لَنَا ، عَلَى أَنَّهُ مِنْ نَكَثٍ بَنَّا فَقَدْ أَبَاحَ دَمَهُ ، ثُمَّ نَكَثَ بَنَّا ، فَخَسَكُنَا عَلَيْهِ لِأَنفُسِنَا حَكْمَهُ عَلَى غَيْرِهِ لَنَا ، وَلَمْ نَمْنَعْنَا رَعْدِيَةَ الْحَقِّ لَهُ ، مِنْ إِقَامَةِ الْحَقِّ عَلَيْهِ . »

— ٥ —

وَوَصَّى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ابْنَهُ فَقَالَ : « أَيُّ نَبِيٍّ ، إِنِّي مُؤَدِّ حَقِّ اللَّهِ فِي تَأْدِيكَ ، فَادَّ إِلَى حَقِّ اللَّهِ فِي الْإِسْتِمَاعِ . »

منى ، أى بنى . كنت الأذى ، وارفض البذاءة^(١) واستمعن عن الكلام بطول
الفكر فى المواطن التى تدعوك فيها نفسك إلى الكلام ، فإن للقول ساعات
يضر فيها الخطأ ، ولا ينفع فيها الصواب ، واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً
كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غائماً ، لأنه يرديك بمشورته ، واعلم يا بنى أن
رأيتك إذا احتمجت إليه وجدته نائماً ، ووجدت هواك يظنان ، فأياك أن تستبد
برأيتك ، فإنه حينئذ هواك ، ولا تفعل فعلاً إلا وأنت على يقين أن عاقبته
لا ترديك ، وأن نتيجته لا تجنى عليك .

— ٢ —

وخطب المؤمن خطبة الجمعة فقال :

« الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومستوجبه على خلقه ، أحمده وأستعينه
وأؤمن به وأتوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد
أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو
كره المشركون : أوصيكم عباد الله ونفسي بقتوى الله وحده ، والعمل لما عنده
والتنجز لوعده ، والخوف لوعيده . فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه وعمل له
وأرضاه ، فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى
بما يزول عنكم ويفنى ، وترحلوا عن الدنيا ، فقد جد بكم^(٢) ، واستعدوا للموت
فقد أظلمكم ، وكونوا كقوم صيح فيهم فانتبهوا ، وأعلموا أن الدنيا ليست لهم
بدار فاستعدوا . فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثاً ، ولم يترككم سدى ،
وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به ، وإن غاية تنقصها
الاحتضنة وتمهد بها الساعة الواحدة لجديرة بقصر المدة ، وإن غائباً يحذوه الجديدان

(١) البذاء : السفه والافحاش فى المنطق .

(٢) الجد فى الامر : الاجتهاد وضد الهزل ، وقولهم « أجهدك لا تفعل » بكسر الجيم
التيه بخلاف بالهقيمة وبالفتح استعلاف بالبعث ، وإذا قيل « وجهك لا تفعل » فتح لا غير

الليل والنهار جدير بسرعة الأوبة ، وإن قاذما يحل بالفوز أو الشقوة المستحق
لأفضل العدة ، فاتقى عبد ربه ، ونصح نفسه ، وقدم توبته ، وغلب شهواته ،
فإن أجله مستور عنه ، وأمله خادع له ، والشيطان موكل به ، يزين له المعصية
ليركبها ، ويمنيه التوبة ليسوقها ، حتى تهجم عليه منيته أغفل ما يكون عنها ،
فيها حيرة على كل ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة ، وتؤديه منيته إلى
شقوة ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطرح نمته ، ولا تقصر به عن طاعة
ربه غفلة ، إنه سميع الدعاء ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير .

— ٧ —

وخطب عبد الله بن طاهر بن الحسين الناس وقد تيسر لتقال الخوارج
فقال : « إنكم فئة الله ، المجاهدون عن حقه ، الذابون عن دينه ، الدائرون
عن محارمه ، الداعون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاية أمره ،
الذين جعلهم رعاة الدين ، ونظام المسلمين ، فاستنجزوا موعود الله ونصره ،
بمجاهدة عدوه وأهل معصيته الذين أشروا وتمردوا ، رشقوا العصا ،^(١) وفارقوا
الجماعة ، ومارقوا من الدين ، وسعوا في الأرض فساداً ، فإنه يقول تبارك وتعالى :
« إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »

فليكن الصبر معقلكم الذي إليه تلجئون ، وعدتكم التي بها تستظهرون ،
فإنه الوزر المنيع الذي دلکم الله عليه ، والجنة الحصينة التي أمرکم الله بلباسها ،
غضوا أبصاركم ، واخفتموا أصواتكم في مصافكم ، وامضوا قدما على بضائعكم ،

(١) أصل العصا الاجتماع والائتلاف وشقوا العصا أي شقوا الاجتماع والائتلاف وفارقوا
الجماعة وأصل ذلك أن الحاديين يكونان في رفقة فإذا فارقهم الطريق شقت العصا التي
معهما فاخذت هذا نصفها وهذا نصفها وهو يضرب لكل فرقة .

فَارْعَيْنِ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَالْإِسْتِمَافَةِ بِهِ كَمَا أَمَرَكَ اللَّهُ، فَإِنَّهُ يَقُولُ « إِذَا لَقِيتُمْ قَوْمًا فَابْتَغُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أَيْدِكُمُ اللَّهُ بَعِزُّ الصَّبْرِ ، وَوَلَايِكُمُ بِالْجَبَّارَةِ وَالنَّصْرِ »

— ٨ —

صَوَابُ بَيْنِ الْمَأْمُونَةِ وَابِرَاهِيمَ بْنِ الْمُهْدِي

لَمَّا ظَفَرَ الْمَأْمُونُونَ بِعَمِهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهْدِي (١) أَمَرَ بِإِدْخَالِهِ عَلَيْهِ ، فَجِئَ بِهِ يَحْجُلُ فِي قَيْودِهِ ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُونَ : لَا سَلَامَ لِلَّهِ عَلَيْكَ وَلَا حَفَظُكَ وَلَا أَرْعَاكَ وَلَا كَلَأُكَ يَا إِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَى رِسَالِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلِي الثَّأْرُ مُحْكَمٌ فِي الْقَصَاصِ ، وَالْعَفْوُ أَقْرَبُ لِلْعَفْوَى ، وَمَنْ مَدَّ لَهُ الْإِغْتِرَارُ فِي الْأَمَلِ هَجَمَتْ بِهِ الْإِنَانَةُ عَلَى الْقَلْفِ ، وَقَدْ أَصْبَحَ إِذْنِي فَوْقَ كُلِّ ذَنْبٍ ، كَمَا أَنَّ عَفْوَكَ فَوْقَ كُلِّ عَفْوٍ ، فَإِنْ تَعَاقَبَ فَبِحَقِّكَ ، وَإِنْ تَعَفَّ فَبِفَضْلِكَ ، ثُمَّ أُنْشَأَ يَقُولُ :

ذَنْبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهُ

فَخَذَ بِحَقِّكَ أَوَّلًا فَاصْبِرْ بِفَضْلِكَ عَنْهُ

إِنْ لَمْ أَكُنْ فِي فِعَالِي مِنْ الْكِرَامِ فَكُنْهُ

فَأُطْرِقَ الْمَأْمُونُونَ مَلِيًّا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ : إِنِّي شَاوَرْتُ أَبَا إِسْحَاقَ وَالْعَبَّاسَ

فِي قَتْلِكَ فَأَشَارَا عَلَيَّ بِهِ ، قَالَ : فَمَا قُلْتَ لَهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : قُلْتُ لَهَا :

(١) لَمَّا عَقَدَ الْمَأْمُونُونَ وِلَايَةَ الْمُهْدِي أَمَلَى الرِّضَا الْعَلَوِي أَنْ يَنْكُرَ الْإِبْرَاهِيمُونَ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَخَلَعُوهُ مِنَ الْخِلَافَةِ وَبَايَعُوهُ بِهَا عَمَهُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْمُهْدِي فَامْرَحَ إِلَيْهِ الْمَأْمُونُونَ فَهَرَبَ رَتَوَارِي وَلَكِنْ الْمَأْمُونُونَ ظَفَرُوا بِهِ

بدأنا له بإحسان ونحن نستأمره فيه ، فإن خير فالله خير مما به ، فقال : أما أن يكوننا قد نصبحناك في عظم قدر الملك وما جرت عليه عادة السياسة فقد فضلا ، ولكن أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله ، ثم استمير يا كيا فقال له المأمون . ما يبكيك ؟ قال : جدلا ، إذ كان ذنبي إلى من هذه صفته في الأنعام . ثم قال يا أمير المؤمنين إنه وإن كان جرمي يبلغ سفك دمي فحلم أمير المؤمنين وتفضله يبلغاني عفوه ، ولي بعدها شفاعته الإفراج بالذنب ، وحرمة الأب بعد الأب ، قال المأمون : القدرة تذهب الحفيظة ، والندم توبة ، وعفو الله بينهما وهو أكبر ما يحاول ، يا إبراهيم لقد حببت إلى العفو حتى خفت ألا أوجر عليه ، أما لو علم الناس ما لنا في العفو من اللذة لتقر بوالينا بالجنائيات ، لا تتريب عليك يفقر الله لك ، ولو لم يكن في حق نسبك ما يبلغ الصفح عن زلتك لبغاك ما أملت حسن توصلك ، ولطيف توصلك ، ثم أمر برد ماله وضياعه ، فقال :

رددت مالي ولم تبخل علي به	وقبل ردك مالي قد حققت دمي
فأبت منك - وما كافأتها - بيد	هما الحياتان من وفر ومن عدم
وقام عليك بنى فاحتمج عندك لي	مقام شاهد عدل غير منهم
فلو بذلت دمي أبقي رضاك به	والمال حتى أسل النمل من قدمي
ما كان ذاك سوى عارية رجعت	إليك لو لم تهبها كنت لم تلم

ولما حج المنصور مر بالمدينة فقال الربيع الحاجب : على بجعفر بن محمد ، فقلني الله إن لم أقتله ، فلما كشف الستر بينه وبينه ، تقرب جعفر وسلم فقال المنصور : لا سلم الله عليك يا عدو الله ، تعمل على القوائل في ملكي ، فقلني الله إن لم أقتلك ، قال يا أمير المؤمنين إن سليمان صلى الله على محمد وعليه أعطى فشكر ، وإن أيوب ابتلى فصبر ، وإن يوسف ظلم ففهر ، وأنت على إرث منهم ، وأحق

من تأمى بهم ، فنكس أبو جعفر رأسه ملياً ثم رفعه وقال لجعفر : إلى أبا عبد الله
فأنت القريب القرابة وذو الرحم الواشجة ^(١) السليم الناحية ، القليل الفائلة ،
ثم صافحه بيمينه وعانقه بشماله وأجلسه معه على فراشه ، وانحرف له عن بعضه
وأقبل عليه بوجهه يخادته ويسأله ، ثم قال : ياربيع عجل لأبي عبد الله كسوته
وجانزته وإذته

— ٩٠ —

ودعا المنصور بالربيع بن يونس حاجبه ووزيره فقال له : سألني ما تريد
فقد شككت حتى أنظفت ، وخففت حتى ثقلت ، وقلات حتى أكرت ، فقال :
والله يا أمير المؤمنين ما أُرهب بخلق ، ولا أستقصر عمر ، ولا أستصغر فضلك ،
ولا أغتشم مالك ، وإن يومى بفضلك على أحسن من أمسى ، وغدك فى تأميلي
أحسن من يومى ، ولو جاز أن يشكرك مثلى بغير الخدمة والمناصحة لما سبقنى
لذلك أحد ، قال : صدقت ، علمى بهذا منك أهلك هذا الحال ، فسألني ما شئت ،
قال : أسألك أن تقرب عبدك الفضل ^(٢) وتؤثره وتحبه ، قال : ياربيع إن
الحب ليس بمال يوهب ، ولا رتبة تبذل ، وإنما تؤكده الأسباب ، قال فاجعل
لى طريقاً إليه بالفضل عليه ، قال : صدقت وقد وصلته بألف ألف درهم ، ولم أصل
بها أحداً غير عمومى ، أعلم ماله عندى ، فيكون منه ما يستدعى به محبتي ، ثم
قال : فكيف سألت له المحبة ياربيع ؟ قال : لأنها مفتاح لكل خير ومغلاق
لكل شر ، تستقر بها عندك عيوبه ، وتصير حسنات ذنوبه . قال صدقت .

— ٩١ —

دخل معن بن زائدة الشيباني على المنصور وقد أسن قمارب فى خطوطه ،

(١) الشبكة لشدة القرابة .

(٢) هو ابنه الفضل بن الربيع وقيل وزير الرشيد بمسند البرامكة ولا يشبه الامين .
وبه يسكن الربيع .

فقال له المنصور : لقد كبرت سنك يا معني . قال : في طاعتك يا أمير المؤمنين
قال : وإنك لجلد . قال : على أعدائك يا أمير المؤمنين ، قال : وإن فيك لبقية
قال هي لك يا أمير المؤمنين ، قال فأى الدولتين أحب إليك ؟ هذه أم دولة
بنى أمية ، قال : ذلك إليك يا أمير المؤمنين إن زاد برك على برهم كانت
دولتك أحب إلى .

من أقوال الرعايا

— ١٢ —

حكى أن الأوزاعي قال : بعث إلى المنصور ، فقال : لم تبطن عنا ؟ قلت :
وما تريد منا ؟ قال : آخذ عنكم وأقتبس منكم ، فقلت له : مهلا فإن عروة بن
رويم أخبرني أن نبي الله ﷺ قال : من جاءته موعظة من ربه فقبلها شكر
الله له ذلك ، ومن جاءته فلم يقبلها كانت حجة عليه يوم القيامة ، مهلا فإن مثلك
لا ينبغي له أن ينام ، إنما جملت الأنبياء رعاة لاهلهم بالرعية : يجبرون الكسير ،
ويسمنون الهزيلة ، ويردون الضالة ، فكيف من يسفك دماء المسامين ويأخذ
أموالهم ؟ أعيذك بالله أن تقول إن قرابتك من رسول الله ﷺ تدعوك إلى
الجنة ، إن رسول الله كان في يده جريدة يستاك بها ، فضرب قرن اعرابي ،
فنزل عليه جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد ، إن الله تبارك وتعالى لم يبعثك
جباراً مؤيساً مقنطراتكسر قرون أمتك . ألقى الجريدة من يدك ، فدعا الأعرابي
إلى القصاص من نفسه ، فكيف بمن يسفك دماء المسامين ؟ إن الله عز وجل
أوحى إلى من هو خير منك ، إلى داود عليه السلام (يا داود إنا جعلناك خليفة
في الأرض فاحكم بين الناس بالحق) وأوحى إليه : يا داود إذا أتاك الخيلان ،
فلا يكونن لأحدهما على صاحبه الفضل فأنحوك من ديوان نبوتي ، واعلم أن ثوباً

من يُياب أهل النار لو علق بين السماء والأرض لمات أهل الأرض من تن رِيحه ، فكيف بمن تقصصه ؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبال الدنيا لذابت كما يذوب الرصاص حتى تنتهي إلى الأرض السابعة ، فكيف بمن تقادها ؟

ودخل ابن السماك على الرشيد ، فقال له الرشيد : عظمي . قال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك غداً واقف بين يدي الله ربك ، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما : جنة أو نار ، فبكى الرشيد حتى اخضلت لحية ، فأقبل الفضل بن الربيع على ابن السماك فقال : سبحان الله ! وهل يتخالج أحد شك في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله ، فأقبل ابن السماك على الرشيد ، وقال : إن هذا ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم ، فاتق الله وانظر لنفسك ، فبكى الرشيد حتى أشفق عليه الحاضرون .

ودخل عليه مرة ، فبينما هو عنده إذ استسقى الرشيد فأتى بقلعة ماء ، فقال ابن السماك : على رسلك يا أمير المؤمنين : بقرايتك من رسول الله ﷺ لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشقريها ؟ قال بنصف ملكي . قال : اشرب هناك الله ، فلما شربها قال : أسألك بقرايتك من رسول الله لو منعت خروجها من يدك بماذا كنت تشقريها ؟ قال : بجميع ملكي . قال ابن السماك : إن ملكاً قيمته شربة ماء لجدير ألا ينافس فيه .

حال الخطابة

هو اصل رقيهم :

كان قيام خلافة بنى العباس انقلاباً خطيراً هز المشاعر ، وأثار الخواطر ، وهاج النفوس ، وقلب الأوضاع ، ودفع إلى كثرة الجدل والمناظرة ، واستدعى تأليف الجماعات ، وقيام الكثير من الدشوات ، وحض الناس على التثمين لبنى هاشم ، وإعلان السخط والافتكار على بنى أمية ، وسياسةهم الجائرة ، وما اقترفوه من سيئات ، وارتكبوه من منكرات

ولاشك أن حدثاً جليلاً مثل هذا الحدث ، لا بد أن يستهين بالخطابة على جذب القلوب ، وكسب الأنصار ، وتحميس المتشيعين ، وتأجيج نار البغض على الدولة الفاسدة ، ودفع الجنود بالبلاغة الباهرة إلى خوض المعارك القاهرة الظافرة .

وكان من شأن بنى العباس أن يقيموا الدعاة ، ويثبتوا الخطباء في كل مكان ، يعلنون بالحجة الساطعة حقهم في خلافة المسامين ، وإمامة الناس بعد سيد المرسلين

كما كان من شأنهم أن يهتموا بعناية بالغة بالموااسم الدينية ، والأعياد الإسلامية فهم يخرجون في مواكب رائعة ، وجموع حاشدة ، ويسيروا بين الصفوف المرصوفة ، حتى يصلوا إلى المسجد ثم يدخلون في خشوع ووقار ، وأبهة وجلال ، وعظمة وبهاء ، ويؤمن الناس ويخطبونهم ، ويلقون عليهم بليغ المعطيات ، ورائع الآيات ، حرصاً منهم على الظهور بتظهر الامامة الدينية ، والزعامة الروحية ، وإعزاز الدين ، والغيرة على الإسلام ، لأن هذا المظهر هو الذي تأسس به ملكهم وقامت عليه دولتهم

لذلك كان الخطابة في عهد نفوذ الخلفاء العباسيين مكانة مرموقة ومهنة

كريمة ، وشأن عظيم

وزاد من نهضة ورقيها في مطالع هذا العصر ما كان عليه مؤسسو الدولة من أصالة الطبع ، وسلامة الملكة وفصاحة الألسنة ، لأن خطر العي واللكنة والضعف لم يكن قد ظهر بعد في مظهره الشديد .

وقد آزر الملكات ما كانوا يأخذون به أنفسهم ، من تعليم الناشئين الخطابة وفنون القول ؛ يروى ^(١) أن بشر بن المعتز مر بابراهيم بن جبلة بن خزيمة الخطيب ، وهو يعلم الفتيان الخطابة ، فوقف بشر ، فظن ابراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلاً من النظارة ، فقال بشر : « اضربوا عما قال صفحا ، واطوروا عنه كشحا . ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميته ، وكان أول ذلك الكلام :

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، فان قليل تلك الساعة أكرم جوهرأ ، وأشرف حسبا ، وأحسن في الاسماع ، وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة ، من لفظ شريف ومعنى بديع ، وإياك والتوعر ، فان التوعر يسامك إلى التعميد ، والتعميد يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريما فليلمتمس له لفظا كريما ، فان حق المعنى الشريف ، اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما وترهن نفسك بملاستهما وقضاء حقهما . الخ

وكان كذلك كثير من الخطباء والبلغاء يعيشون في البادية ، حيث

الفصاحة واللسن والبيان وقوة الحجج وشدة المعارضة ، وقد كثر وفودهم على الخلفاء للاستئذان والشكوى والاستعطاف وغير ذلك .
فلا عجب إذن أن تنهض الخطابة وتزدهر ، ويملأ شأنيها ، وترتفع منزلتها ، ويكثر الخطباء المفوهون

دواعيها ومرضوهاسها :

وقد تعددت دواعي الخطابة في عصر نفوذ الخلفاء ، وتنوعت مظاهرها ، وكثرت ألوانها :

١ — فقد كانت الحاجة ماسة إليهم في تثبيت الملك ، ودعم الدولة ، وتوطيد أركان الخلافة ، وإقناع الناس بأحقية بني العباس لها ، أو في مجادلة الخصوم ، وتهديد المعارضين ، والتشجيع على بني أمية ، بما قارفوا من أخطاء ، واجترحوا من مساوئ ، وفي إثارة النفوس ، وكسب القلوب ، وتحسيس الجنود ، والقبشير بفتح ، والقهنمة بنصر ونحو ذلك .

٢ — كما اتخذوها أداة لاوعظ ، وتذكير الناس بالآخرة ، وتحذيرهم من غرور الدنيا ومقاعها ، وذلك في المحافل العامة ، والمواسم الجامعة ، والأعياد الدينية . وجمالها القصاص في قصصهم وسيلة إلى إثارة المشاعر وإمتاع النفوس بذكر سير الأولين وتاريخ الماضين . ومن أشهر القصصا ص موسى بن سيار الإيسواري ، وأبو علي الإيسواري ، وكان يقص في فنون كثيرة ويستشهد بالقرآن الكريم في قصصه . وكان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب ويحتج به ، ثم قص بعسده أبو العباس الضير ولم يدرك في القصص مثله ، وصالح المري ، وكان صحيح الكلام ، رقيق المجلس ، وقال فيه سفيان بن حبيب حين رأى بيانا لم يحتسبه ومذهبا لم يكن يدانيه : « هذا ليس قاصا ، هذا نذير »

٣ — كما كانت اسان الوفود الذي يندون على دار انطلافة، تأييداً لسياسة،
أو إظهاراً لمحبة، أو طلباً للحاجة أو شكاية من مظلمة.

٤ — ومما يقرب من الخطابة في روعة أسلوبها، وشدة تأثيرها، وشمو
بياتها، الحوار الذي كان يدور بين البلغاء والفصحاء، من خاصة القوم، ورجال
الدولة... وقد مرت ألوان من هذا الحوار.

فصلانها :

وقد امتازت الخطابة بجمال أسلوبها، وفخامة ألفاظها، وبمدها عن الحوشية
والغرابية وعن الابدال والإسفاف.

كما تمتاز بقوة تأثيرها، ورعة تصويرها لاصطباغها بصيغة الذين وتأثيرها
بأسلوب القرآن الكريم واعتمادها على الكثير من آياته والاقباس من عظامته
والاستشهاد بكلام الرسول. ويكثر فيها أسلوب الحجاج، ومعاني الوعد والوعيد
والتسفيه والتهديد، والامتنان بالنعمة، والشكر على كريم الهمة، وجليل المودة
على أن الحضارة التي غرقوا فيها قد أكتسبت غزارة في المعاني ووفرة في المادة
ورقة في الأساليب، ودمائة في الألفاظ، مما ضاعف تأثيرها وزاد في بهاها
ورونقها.

أشهر الخطباء :

وقد نبغ في هذا العصر أعلام من الخطباء المصانق وفحول من البلغاء
المقاول، ممن نشأوا نشأة عربية قوية، وورثوا ملكات البلاغة والخطابة من
أصولهم العربية، أو اكتسبوها بالتأديب والتعلم والدرس والحفظ.

وكان للخلفاء الأولين ودعاتهم فيها الشأن الرفيع، والشأو البعيد، من أمثال

بنى المباسي وبنى هاشم ، وبنى عبد المطلب ، وخطباء القواد من العرب ، ونايبي
الفاشئين من الفرس والأدباء من أهل الرواية للشعر والأخبار والقصاص والأسماء
واللغة والأدب والنقد . . . ومن ولاية الدولة وخصوصها ، من خوارج وعاديين
وشعو بيمين .

وكان الخلفاء يخطبون الناس ويؤمنونهم في الصلاة ، واستمر ذلك بعد هذا
العصر إلى الرازي المتوفى عام ٣٣٩ هـ ، والذي كان آخر خليفة عباسي خطب
على المنبر . . . ويصف الباحث في رائية بايعة له خروج المتوكل لصلاة عيد الفطر
وإمامته للناس ، وخطبته فيهم ، فيقول فيما يقول :

أيدت من فصل الخطاب بحكمة تنبى عن الحق المنير وتخير
ووقفت في برد النبي مذكراً بالله تنذرت تارة وتبشر

ومن خطباء هذا العصر من الخلفاء : السفاح والمنصور والمهدي والرشيد
والأمين والمأمون .

ومن الأمراء : داود بن علي المتوفى عام ١٣٣ هـ ، وأخوه عبد الله وصالح
وأبناؤه عبد الملك وإسماعيل وعبد الله ، ومنهم : سليمان بن علي ، وابنه جعفر
وبنوه : سليمان وداود وأيوب . . . ممن يصفهم الجاحظ في كتابه « البيان
والتميين » فيقول : « جماعة من ولد العباس في عصر واحد لم يكن لهم نظراء
في إصالة الرأي ، وفي الكمال والجلالة ، وفي العلم بقريش والدولة ، وبرجال
الدعوة ، مع البيان العجيب ، والغور البعيد ، والنفوس الشريفة ، والأقدار
الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء ، وفوق أصحاب الأخبار ، وكانوا يجالون عن
هذه الأسماء ، إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك » (١)

ويقول الجاحظ في داود بن علي « كان أنطق الناس ، وأجودهم ارتجالاً
واقتراباً للقول ، ويقال إنه لم يقدم في تحبير خطبة قط ، وله كلام كثير
معروف محفوظ (١) »

ومن خطباء الملوين الهاشميين : جعفر الصادق ، وعبد الله بن الحسن
وأبناؤه : محمد وإبراهيم وموسى

ومن خطباء بني طالب : عبد الله بن معاوية
ومن الوزراء : الفضل بن سهل وأخوه الحسن ذو الرياستين وزير المأمون
وصهره ، وجعفر البرمكي

ومن الخطباء سهل بن هارون خازن بيت الحكمة المأمون (٢) ، وطاهر
ابن الحسين ، وعبد الله ابن طاهر - ومنهم : العتابي الذي يقول فيه الجاحظ :
« ومن الخطباء الشعراء ، ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة
مع البيان الحسن : كثوم بن عمرو العتابي » ومنهم : خالد بن صفوان ،
وشبيب بن شيبه المتوفى عام ١٧٠ هـ الذي يقول فيه الراجز :

إذ غدت سعد على شبيبها على فتاها وعلى خطيبها

من مطلع الشمس إلى مغيبها عجبت من كثرتها وطيبها

وغيرهم من فحول الخطابة والبلاغة ، وأئمة البيان والفصاحة

(١) ٢٦٣ / ١ البيان والتهن

(٢) راجع كلام الجاحظ عليه في البيان والتهن ٥٩ / ١

الكتابة في هذا العصر

نحافه بها :

— ١ —

كتب عبد الله بن المقفع يعزى :

أما بعد : فإن أمر الآخرة والدنيا بيد الله ، هو يدبرها وبقدرته ، ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة لئلا يطمع أحد من خلقه في خلد الدنيا ، ووقت السكل شيء هيئات أجل ، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ، فليس أحد من خلقه إلا وهو مستيقن بالموت ، لا يرجو أن يخلصه من ذلك أحد ، نسأل الله خير المنقلب . وبلغنى وفاة فلان ، فكانت وفاته من المصائب العظام ، التي يحسب ثوابها من ربنا ، الذي إليه منقلبنا ومعادنا ، وعليه ثوابنا ، فعمليك بتقوى الله والصبر وحسن الظن بالله ، فإنه جعل لأهل الصبر صلوات منه ورحمة ، وجعلهم من المهتدين .

— ٢ —

وله في وصف أحد إخوانه :

« إني مخبرك عن صاحب لي كان أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ماعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه ، كان خارجا من سلطان بطنه ، فلا يتشهى ملا يجده ولا يكتر إذا وجد ، وكان خارجا من سلطان فرجه ، فلا يدعو إليه ريبة ، ولا يستخف له رأيا ولا بدئا ، وكان لا يأشر عند نعمة ، ولا يستكين عند معيبة ، وكان خارجا من سلطان إسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ، ولا يمارى فيما

علم ، و كان خارجاً من سلطان الجاهل ، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة ، و كان أكثر دهره صامتاً ، فإذا نطق بذ القائمين ، و كان يرى ضعيفا مستضعفا ، فإذا جدد الجدد فهو الليث عادياً ، و كان لا يدخل في دعوى ، ولا يشارك في وراء ، ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضيا فهما ، وشهوداً عدولا ، و كان لا يalom أحداً على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره ، و كان لا يشكو وجمعه إلا إلى من يرجو عنده البرء ، ولا يستشير صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة ، و كان لا يقهرم ولا يتسخط ولا يتشكى ولا يتشهى ، و كان لا ينقم على الولي ، ولا يفعل عن العدو ، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحياته وقوته فعلمك بهذه الأخلاق إن أطقها - وإن تطيق - ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

- ٣ -

وكتب المنصور إلى النفس الزكية :

أما بعد : وقد إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم . ولك على عهد الله وميثاقه ودمته وذمة رسوله ﷺ إن تبنت ورجمت من قبل أن أؤدر عليك أن أومنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم ، على دمائكم وأموالكم ، وأسوغك ما أصبت من دم أو مال ، وأعطيك ألف ألف درهم ، وما سألت من الخوائج ، وأنزلت من البلاد حيث شئت ، وأن أطلق من في حبسى من أهل بيتك ، وأن أومن كل من جاءك وبايعك واتبعتك أو دخل معك في شيء من أمرك ، ثم لا أتبع أحداً منهم بشيء كان منه أبداً ، فإن أردت أن

تتوثق لنفسك فوجه إلى من أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثق به
— ٤ —

وكتب يحيى بن خالد البرمكي وهو في الحبس ^(١) إلى هرون الرشيد :

لأمير المؤمنين ، وخليفة المهديين ، وإمام المسلمين ، وخليفة رب العالمين ،
من عبد أسامة ^(٢) ذنوبه ، وأوبقته ^(٣) عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه
صديقه ، ومال به الزمان ، ونزل به الحدثنان ، فحل في الضيق بعد السعة ،
وعالج البؤس بعد الدعة ، وافترش السخط بعد الرضا ، واكتمل السهاد بعد
المجود ، وساعقه شهر ، وليلته دهر ، فقد عاين الموت ، وشارف الفوت ، جزعاً
لموجدتك يا أمير المؤمنين ، وأسفاً على ما فات من قربك ، لا على شيء من
المواهب ، لأن الأهل والمال إنما كانا لك وبك ، وكانا في يدي عارية
والعارية مردودة .

وأما ما أصبت به من ولدي فبدني به ، ولا أخشى عليك الخطأ في أمره ، ولا
أن تكون تجاوزت به فوق حده .

فتذكر يا أمير المؤمنين كبر سني ، وضعف قوتي ، وارحم شيبتي ، وهب
لي رضاك ، بالعفو عن ذنب إن كان ، فمن مثلي الزال ومن مثلك الإقالة ،
وإنما أعتذر إليك باقرار ما يجب به الاقرار حتى ترضى عني ، فإذا رضيت
رجوت إن شاء الله أن يتبين لك من أمري وبراءة ساحتي مالا يمتاظمك بعده

(١) كان البرمكي قد استأثروا بشئون الدولة وأموالها ، وغلبوا الرشيد على سلطانه
ولم يكن له معهم تصرف في ماله ، ولم يبق له من الخلافة إلا رسمها وصورتها ، فغرم
على نسكبتهم . حتى انتهت فرصة رجوعه معهم من الحج سنة ١٨٧ هـ فقتل جعفر بن يحيى
ليلاً في طريقه . وقبض على سائر البرمكية وسجنهم .

(٢) أسامة : خذله ، فاستعطفه من عيائه مرتبته . أو أسامته إلى السجن والعذاب .

(٣) أوبقته : أهلكته .

ذنب أن تغفره ، مد الله لي في عمرك ، وجعل يومى قبل يومك ، وكتب اليه
بهذه الأبيات :

قل للخليفة ذى الصنية	مة والعطايا الفاشية
وابن الخلائف من قریش	والمالوك العالمة
إن البرامكة الذير	ن رموا ليدك بداهية
صفرو الوجوه عليهم	خلع المذلة بادية
فكانهم ما بهم	أعجاز نخل خاوية
عمتهم لك سخطة	لم تبق منهم باقية
بعد الامارة والوزا	رة والأمر السامية
ومنازل كانت لهم	فوق المنازل عالية
أضحوا وجل مناهم	منك الرضا والعافية
يا من يود لى الردى	يكفيك منى ما بيه
يكفيك ما أبصرت من	ذلى وذل مكانيه
وبكاء فاطمة الكئيد	مة والمدامع جارية
ومقاهلها بتوجع	ياسوءتى وشقائيه !
من لى وقد غضب الزما	ن على جميع رجاله
يا لطف نفسى لطفها	ما للزمان وماليه
يا عطفة المالك الرضا	عودى علينا ثانية

فلم يكن له جواب من الرشيد .

وكتب طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله لما ولاه المأمون الرقة ومصر

وما بينهما (٢٠٦ هـ) عهداً طويلاً حكماً ، ضمنه كثيراً من درر النصائح الثمينة ، وقد شاع أمره حتى بلغ المأمون فدعاه وقرى عليه ، فقال : ما بقى أبو الطيب (يعني طاهراً) شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البيضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به ، وتقدم وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال ، ومنه :

وتفقد أمور الجند ، وأدرر عليهم أرزاقهم ، ووسع عليهم في معاشهم ، لينذهب بذلك الله فائقهم ، ويقسوم لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وانشراحاً ، وحسب ذي سلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة في عدله وحيطته وإنصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته .

واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذي تمعدل عليه الأحوال في الأرض ، وباقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية ، وتأمين السبل ، وينتصف المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المميشة ، ويؤدي حق الطاعة ، ويرزق الله العافية والسلامة ، ويقوم الدين ، وتجرى السنن والشرائع ، وعلى مجاريها يتنجز الحق والعدل في القضاء .

واشتمد في أمر الله ، وتورع عن النطف (١) ، وامض لاقامة الحدود ، وأقلل العجلة ، وابعد من الضرر والفتاق ، واقنع بالقسم ، ولتسكن ريحك ، ويقر حدك وانفع بتجر بقلك وانتبه في صمتك ، واسدد في منطقتك ، وانصف الخصم ، وقف عند الشبهة ، وابلغ في الحجة ، ولا يأخذك في أحد من رعيتهك محاباة ولا

محاماة. ولا لوم لأثم ، وثبتت وتأن وراقب ، وانظر وتدبر ، وتفكر واعتبر
وتواضع لربك ، وارأف بجميع الرعية ، وسلط الحق على نفسك ، ولا تسرعن
إلى سفك دم — فإن الدماء من الله بمكان عظيم — أنبها كما لها بغير حقها .
وانظر هذا الخراج الذي قد استقامت عليه الرعية ، وجعله الله للإسلام عزاً
ورفعة ، ولأهله سعة ومنمة ، ولعدوه وعدوهم كبتاً وغيطاً ، ولأهل الكفر
من معاديبهم ذلاً وصغاراً ، فوزعه بين أصحابه بالحق والعادل والتسوية
والعموم فيه ، ولا ترفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه ، ولا عن غني لغناه ،
ولا تكلفن أمراً فيه شطط ، واحمل الناس كلهم على مر الحق ، فإن ذلك أجمع
لألفتهم ، وألزم لرضاء العامة .

واعلم أنك جعلت بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً ، وإنما سعى أهل عملك
رعيته لك لأنك راعيهم وقيهمهم ، تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدريتهم ،
وتنفقه في قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم ، فاستعمل عليهم في كور^(١) عملك
ذوى الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل ، والعلم بالسياسة ، والعفاف ،
ووسع عليهم في الرزق ، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسندت
وأسند إليك ، ولا يشغلنك عنه شاغل ، ولا يصرفنك عنه صارف ، فإنك
متى أثرته وقت فيه بالواجب ، استدعيت به زيادة النعمة من ربك ، وحسن
الأحدوثة في عملك ، واحترزت النصيحة من رعيته ، وأعنت على الصلاح ،
فدبرت الخيرات ببيلدك ، وفشت العمارة بناحيته ، وظهر الخصب في كورك ،
فكثرت خراجك ، وتوفرت أموالك ، وقويت بذلك على ارتباط جنودك ،
وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم عن نفسك ، وكنت محمود السياسة ، مرضي

العدل في ذلك عند عدوك ، وكنت في أمورك كلها ذا عدل وقوة وآلة
وعدة ، فنافس في هذا ولا تقدم عليه شيئاً ، تحمد مغبة أمرك إن شاء الله .

— ٦ —

وكتب أحمد بن يوسف يهني ، ببولود :

أما بعد ، فليس من أمر يجعل الله لك فيه سروراً إلا كنت به بهيجاً ، أعتد
فيه بالزمنة من الله الذي أوجب على من حقاك ، وعرفني من جميل رأيك .
فزادك الله خيراً ، وأدام إحسانه إليك . وقد بلغني أن الله وهب لك غلاماً
سرياً ، أجهل صورته ، وأتم خلقه ، وأحسن فيه البلاء عندك ، فاشهد سروري
بذلك ، وأكثرت حمد الله عليه ، فبارك الله فيه ، وجعله باراً تقياً ، يشد عضدك
ويكثر عددك ، ويقر عينك .

— ٧ —

وكتب في الذم :

أما بعد ، فلا أعلم للمعروف طريقاً أحزن ، ولا أوعر ، من طريقه إليك .
ولا مستودعاً أقل زكاه ولا أبعد ثمرة خير ، من مكانه عندك ، لأنه يحصل منك
في حسب ذن ، ولسان بذي ، ونسب قصي ، وجهل قد ملك طباعك ،
فالمعروف لديك ضائع ، والشكر عندك مهجور ، وإنما غايتك في المعروف
أن تحرزه . وفي وليه أن تكفر به

— ٨ —

وقال أحمد بن يوسف : دخلت على المأمون وفي يده كتاب وهو يعاود

قراءته مرة بعد مرة ، ويصعد فيه بصره ويصوبه ، فالتفت إلى وقد لحظني في
أثناء قراءته للكتاب ، فقال : يا أحمد ، أراك متفكراً فيما تراه مني ؟ قلت :
نعم ، وفي الله أمير المؤمنين من المسكاره ، وأعاذه من المخاوف ، قال : لا مكروه

إن شاء الله ، ولكني قرأت كتاباً وجدته نظير ما سمعت الرشيد يقوله في
البلاغة ، فإني سمعته يقول : « البلاغة التباعد من الإطالة ، والتقرب من
البعية ، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى » ، وما كنت أتوهم أن
أحداً يقدر على هذه البلاغة ، حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو بن مسعدة
ورمى به إلى ، فقرأته فإذا فيه :

كتابي إلى أمير المؤمنين ، ومن قبلي من قواده وسائر أجناده ، في الانقياد
والطاعة ، على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد
كفاة تراخت أعظياتهم ، واخفقت لذلك أحوالهم ، والثابت (١) معه أمورهم
فلما قرأته قال : إن استعساني إياه بعشي أن أمرت للجند قبله بعظائمهم
لسبعة أشهر ، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حل محله في صناعته .

— ٩ —

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات عن لسان الخليفة إلى أحد العمال :
« أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأذكره ، ولا تخلو من إحدى
مزلتين ، ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة ، ولا يزيل لأمة ، إما
تقصير في عمالك دعائك للاخلال بالحزم ، والتفريط في الواجب ، وإما مظاهره
لأهل الفساد ، ومداهنة لأهل الريب ، وأية هاتين كانت منك ، محلة النكر
باك ، وموجب العقوبة عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة
والنظرة ، والأخذ بالحجة ، والتقصد في الإيعاز والإيذار . وعلى حسب
ما أقلت من عظيم العشرة . بحجب اجتهتساده في تلافى التقصير والإضاعة ،
والسلام »

وكتب الجاحظ إلى ابن الزيات يستعطفه وقد تذكر له وتلون عليه :
 أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمتك من سرف الهوى ، وصرف
 ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجح في قلبك إيثار الأناة ، فقد
 خفت — أيدك الله — أن أكون عندك من المنسويين إلى نزق السفهاء ،
 ومجانبة سهل الحكماء : وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :
 وإن امرأ أمسى وأصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لسعيد
 وقال الآخر :

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وباليساطل
 فإن كنت اجتريأت عليك — أصلحك الله — فلم أجتريء إلا لأن دوام
 تغافلك عني شبيهه بالإهمال الذي يورث الاغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من
 المكافأة . ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لثمان رحمه الله : عمر كان خيراً
 لي منك أرهبني فأثقتاني ، وأعطاني فأغنانني . فإن كنت لا تهيب عقابي — أيدك
 الله — للخدمة ، فهبه لأياديك عندي ، فإن النعمة تشفع في النعمة ، وإلا تفعل ذلك
 لذلك فعد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الاحدوثة ، وإلا فأت
 ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة ، فسبحان من
 جعلك تعفو عن المعتدد ، وتمجاني عن عقاب المصير ، حتى إذا صرت إلى من
 هموته ذكر ، وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، والإنعام إلا منك ،
 هجمت عليه بالعقوبة . واعلم — أيدك الله — أن شين غضبك على كزبن صفحك
 عني ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببي منك كحياة ذكرى مع اتصال سببي
 بك . واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم .. والسلام .

ومن رسائل أبي اسحق الصولي على ايمان المشوك كل لأهل مخلص انظار جين عليه ، وهي من الرسائل التي أغنت عن الجيوش :
أما بعد ؛ فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه مما قوم به من أود ، وعمل به من زيغ ، ولم به من منتشر ، اشتهال ثلاث يقدم بهنهن على بعض :
أولاهن ما يقدم به من تزييه وتوقيف ، ثم ما يستظهر به من تحسب وتخييف ، ثم التي لا يقع بحسب الداء غيرها :
أداة ، فإن لم تكن عقب بعدها ، فإن لم يكن أغنت عزائه

وكتب إلى ابن الزيات يستعطفه :
كتبت وقد بلغت المدينة الحز ، وعدت الأيام بك على بعد عدواي بك عليها ، وكان أسوأ الظن وأكثر خوفي أن تسكن في وقت حركتها ، ونكف عند ذاتها . فصرت أضرب على منها ، فكف الصديق عن نصرتي خوفاً منك ، وبادر إلى العدو تقرباً إليك

وقال أبو يوسف في كتاب « الخراج » الذي كتبه للرشيد :
وأنا أرى أن تبث قوماً من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته ، يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به في البلاد ، وكيف جبروا الخراج على ما أمروا به ، وعلى ما وظف على أهل الخراج واستقر ، فإذا ثبت ذلك عندك وسمح ، أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤدوه بعد المقوبة الموجبة والنكال ، حتى لا يتعدوا ما أمروا به ، وما عهد إليهم فيه ، فإن كل ما عمل به وإلى

الخراج من الظلم والفساد فإنما يحمل على أنه قد أمر به ، وقد أمر بنفسه ، وإن أخطأت بواحد منهم العقوبة الموجهة انتهى غيره واتقى وخاف ، وإن لم تفعل هذا بهم تمدوا على أهل الخراج واجترأوا على ظلمهم وتكسبهم وأخذهم بما لم يجب عليهم . وإذا صح عندك من العامل والوالي تمد بظلم وعسف وخيانة لك في رعيته ، واحتججنا شيء من الفى ، أو خبث طعمته ، أو سوء سيرته ، فحرام عليك استعماله والاستمانة به ، وأن تقلد شيئاً من أمور رعيته ، أو تشاركه في شيء من أمرك . بل عافيه على ذلك عقوبة تردع غيره من أن يتعرض لمثل ما تعرض له ، وإياك ودعوة المظلوم فإن دعوته بحماية .

وصف الكتابة

يراد بالكتابة هنا هذا الفن البليغ من الشعر الذى أداته القلم وعماده التجويد والتهذيب ، واصطلاح الصور الأدبية الرائعة التى تحدث فى النفس ارتياحاً وإعجاباً ، وتبعث فيها نشوة وهزة . وهو ما نسميه الكتابة الانشائية أو الفنية أو الأدبية ، التى يتأنق فيها الكتاب ، ويعنى بها الأدباء ، ويدرسها النقاد والمعلماء ، ويحفظونها ويتأدب بها الشداة فى الأدب ، لأنهم يظهرون مظاهر البلاغة والبيان ، وفيها مقمة للنفس ، وغذاء للروح .

ألوان الكتابة وموضوعاتها :

والكتابة الفنية فى هذا المصطلح ألوان عدة :

فمنها الرسائل الإخوانية التى يكتبها الأصدقاء بعضهم إلى بعض فى ثمينة أو تعزية أو شكر أو شجاعة أو عقاب ، وما إلى ذلك ، وهى أوسع ميداناً ،

وأكثر افتناناً ، وأعذب بياناً ، وأعلى منزلة ، وأسمى قدراً ، وأقرب إلى الأمانة
عن فكرة الكاتب وعاطفته ، وأخلاق الناس ومنافعهم .

— ٢ —

ومنها الرسائل الأدبية المخطوطة التي يكتبها البلغاء ، يسجلون فيها خواطرهم ،
ويدونون آراءهم فيما يعين لهم من شئون الاجتماع أو الفكر أو الأدب ، أو يعملون
على تأييد مذهب وتفضيل فريق على فريق ، أو يكتبونها في الترويج عن النفس
أو الفكاهة والسخرية . ونحو ذلك ، مما يتجلى في السير والأسمار والخرافات
والأخبار والقصص ، كرسائل الحميس التي كان يكتبها البلغاء في هذا العصر
لتنقرا في خراسان تأييداً للدعوة والدولة والخلافة ، وكرسائل ابن المقفع ،
وككتب الجاحظ ورسائله مثل البخلاء والتربيع والتدوير والحاسد والمحسود
ومناقب الترك .

فضلاً عن اصطناع الكتابة في فنون أخرى عديدة : كالوصف والمناظرة
ونحو ذلك من الموضوعات التي كانت وقتاً على الشعر .

— ٣ —

ومن ألوان هذه الكتابة الرسائل الديوانية أو الرسمية ، التي تصدر من
ديوان الرسائل بنوعيه (الخاتم والتوقيع) ، في شأن من شئون الدولة ، وكانت
الكتابة في هذا الديوان بخلافها في الدواوين الأخرى الكثيرة ، إذ كانت
تعتمد على التأنيق في الأسلوب والجمال في العبارة والبراعة في إظهار المعنى بصورة
واضحة مقبولة .

وتحس نعلم أن المدنية ازدهرت في عصر نفوذ الخلفاء ازدهاراً بالغاً ، وأعمال
الدولة اتسعت اتساعاً ظاهراً ، بسبب مخالطة الأعاجم للعرب ، ونفوذ الفرس في

الدولة ، وسعة سلطان الخلافة في المشرق والمغرب ، فأنشأ الخلفاء العباسيون الكثير من الدواوين التي تقوم بإنجاز الأعمال المتعددة ، وخصوا كل ديوان منها بعمل من الأعمال ، وأشرف على تنظيم هذه الدواوين الوزراء الفارسيون وأتباعهم ممن نقلوا النظام السكروى فى الإدارة وطبقوه فى دولة الخلافة .
ومن الدواوين التى كانت موجودة : ديوان الخراج والنققات ، وديوان المظالم والشرطة ، وديوان البريد ، وديوان الضياع والاقطاعات ، وديوان الخواص وديوان الجيش ، وديوان المعاون ، وديوان المشرق ، وديوان المغرب ، وديوان الحسبة ، وديوان القضاء .

وكان الوزير الذى يقبل منصب الوزارة تسند إليه إدارة تلك الدواوين كلها ، ماعدا ديوان الجيش ، فكان يشرف عليه كبار القوادى فى جيش الخلافة ، وقد يقتصر فى فيه الخليفة بنفسه أو بواسطة حاشيته . فاذا كان الوزير أثيراً لدى الخليفة ، موثقاً به الثقة كلها ، وشهر بحسن التدبير ، وصواب الرأى ، ألقى إليه الخليفة مقاليد جميع الأمور ، ووكّل إليه إدارة جميع الدواوين ، فيصبح المشرف على جميع أعمال الدولة ، والمقصر فى شئون الحرب ، كالفضل ابن سهل ، الذى وُكِّل إليه المأمون ذلك كله ، ثقة به ، بعد أن انتصر جيش الخلافة بقيادة طاهر بن الحسين على عيسى بن ماهان بقدير الفضل وحسن سياسته ، ولقبه الخليفة « ذا الرّياستين » وكان له علم على سنان ذى شعبتين ، وكتب على سيفه من ناحية رياسة التدبير ، ومن الأخرى رياسة الحرب . . ولخطر منصب الوزير وجلاله اشترط فيمن يتقلده أن يكون عالماً أديباً بليغاً أريباً مصيباً داهية محنكاً ، قد أدبته التجارب وعلمته الأيام ، يروى أن المأمون كتب فى اختيار وزير : « إني التمت لأمرى رجلاً جامعاً لخصال الخير ، ذا عفة فى خلأته ،

وإستقامة في طرائقه ، قد هتفت به الآداب ، وأحكمت التجارب ، إن أوثمن على الأسرار قام بها ، وإن تلمهت الأمور نهض فيها ، ويسكته الحلم ، وينطقه العلم ، وتكفيه الملاحظة ، وتنبيه الامتحة ، له صولة الأمر ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء وفهم الفقهاء ، إن أحسن إليه صبر ، وإن أبغى بالاساءة صبر ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غد ، يسترق قلوب الرجال بخلاصة لسانه وحسن بيانه (١) والذين تسنموا هذا المنصب الخطير (٢) كانوا من صنوة الناس وأعلام أديبا وخلفاء وكفاية ودراية وذكاء وفهما : كأبي سلامة الخلال وزير السفاح ، وأبي أيوب المورياني وزير المنصور ، ويعقوب بن داود وزير المهدي ، ويحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد ، والفضل بن سهل وزير المأمون وأخيه الحسن بن سهل وأحمد ابن يوسف وسواهم ، ممن كانوا درة في جبين الدهر ، وغرة في وجه الخلافة ، وشجوة المصاوم والآداب ، وأيدوا حركة الترجمة ورعوها . وكان لكل وزير كاتب أو أكثر ، يمينه على أعماله ، ولولاية الأقاليم كذلك كتاب ، فابن المقفع مثلا كان يكتب لوالي كرمان داود بن عمر بن هبيرة . وكان أكثر هؤلاء الوزراء والكتّاب ممن نهقوا من أصول فارسية ، وكان الوزير قاما يختار لمنصبه إلا إذا كان من أفذاذ الكتّاب .

(١) ٢١ الاحكام السلطانية

(٢) قال ابن خلدون : اختلف أرباب اللغة في اشتقاق كلمة الوزارة على قولين : أحدهما : أنها من الوزر وهو الحمل فكان الوزير قد حمل عن السلطان الثقل وهذا قول ابن قتيبة والثاني أنها من الوزر بفتح الواو والزاي وهو الجبل الذي يعتصم به لينجى به من الهلاك ، وكذلك الوزير معناه الذي يعتمد عليه الخليفة والسلطان لينجى إلى رأيه وهو قول أبي اسحاق الزجاج « ١/٢٢٩ وفيات الاعيان »

ويذهب بعض المستشرقين إلى أن الكلمة ليست عربية بل هي مأخوذة من اللغة الفهلوية من كلمة « فيشير » ومعناها الأمر أو التقرير ولم يكن لقب الوزير موجودا في الدولة لمن يتولى مثل هذا المنصب قبل الخلافة العباسية وإن كان يسمى قبل ذلك كاتباً مشيراً

وقد ألفت في أدب الكتاب والوزراء كتب كثيرة، منها : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وأدب الكتاب للصولي ، وكتاب الكتاب لابن درستويه ، وكتاب الوزراء والكتاب للجوشيارى ، وكتاب الأحكام السلطانية ، وسواها ، وألف القلقشندي المصري أخيراً كتابه الضخم « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » ... وحول ثقافة الكتاب وشخصيته يقول أبان بن عبد الحميد اللاحق من قصيدة رفعها إلى الفضل بن يحيى بن خالد مستجيحاً غطفه وفضله ، راجياً أن يكون في حاشيته ، وقائماً بخدمة (١) :

أنا من بغية الأمير وكنت	من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أديب	ناصر زائد على النصاح
شاعر مفلح أخف من الريد	شدة إما تكون تحت إيلناح
لى فى النهو فطنة واتقان	أنا فيه قلادة بوشاح
ثم أروى من ابن سيرين لله	سلم بقول منور الأفضاح
وظريف الحديث فى كل فن	وبصير بثرهات المسلاح
أيمن الناس طائراً يوم صيد	لغدو دعيت أو لرواح
لست بالناسك المشمر ثوب	ولا المساجن الخليع الوقاح

وهكذا اتسمت الدواوين بانساع الأعمال ، وتنوعت بتنوع مطالب الدولة ، بيد أن الكتابة — فيما عدا ديوان الرسائل — كانت لا تتجاوز ضبط الجباية وحساب الإيراد والنفقات والمرتبات ومحاسبة الولاة وتصريف الأمور ، مما

(١) يروى أن أبان لما رفع هذه القصيدة إلى الفضل دعاه فلما دخل عليه أتاها بكتاب فرمى به إليه وقال له : أحب منه ، فاجاب أبان بما فى نفسه بأحسن ، فأمر له بألف ألف درهم ، وكان يرى أول داخل عليه وآخر خارج من عنده ، فيحسده أبو نواس فيجسده فأقصاه الفضل عنه

لا يخرج عن التسجيل في الدفاتر ، والتمداد والاحصاء ، وليس في ذلك كله مجال لبراعة أو بيان وإفصاح ، ولا يهتم الباحث الأدبي بالحديث عنه ، إلا من حيث الثقافة العامة الواجب الاحاطة بها وفهمها

فأما الكتابة في ديوان الرسائل فهي التي تلقى العناية والاهتمام من كل جانب ، لأن رسائل الدولة ذات البال إنما كانت تصدر عن هذا الديوان ، وترد إليه ، ولذلك تولاه فحول البيان ، وأعلام البلاغة ، وحذاق الأدب المحيطون بشئ الثقافات ، فكان ما يصدر عن هذا الديوان مثلاً أعلى في الفصاحة والجمال وتمثيل المواطن والمشاعر ، مع عمق الفكرة وجلال التصوير

هذه هي الكتابة الفنية التي عرفت في هذا العصر .
أما الكتابة العلمية ، التي هي كتابة التأليف والتدوين ، والتي تحفل بالاصطلاحات ، ويراعى فيها دقة الفكر ، وترتيب المقدمات لتؤدي إلى النتائج ، وضبط العبارة ، وتحكيم المنطق ، والتي تعتمد أكثر ما تعتمد على الحقائق ، لا على التهور بل والانطلاق مع الخيال والانسياق وراء العاطفة :
نقول : أما هذه الكتابة فلم يكن لها كبير خطر في هذا العصر ، لأن العلوم كانت لا تزال موضوعاتها مختلطة ، وكانت حينذاك في بداية التدوين .. حاشا كتب الأدب التي كتبت بلغة شعبية بلغة الرسائل الأدبية ، أما الكتب التي ترجمت في هذا العصر في مختلف العلوم والثقافات ، فإنها لم تأخذ السمات التأليفية الذي ظهر بوضوح بعد عصر نفوذ الخلفاء .

— ١ —

وقد بلغت الكتابة الفنية في هذا العصر من الرقي والسمو ما لم تبلغه في أى عصر من العصور . وذلك لظهور آثار الثقافات الأدبية والفكرية ، والكثرة محفوظات الأدباء من آداب العرب والآداب المترجمة ، ويروى أن رجلاً سأل ابن المقفع : ما الذى ممكنك من البلاغة ؟ قال : حفظ كلام الأصم ، يعنى به الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وكان تشجيع الخلفاء والوزراء والرؤساء للأدب وللكتاب باعثاً على النهوض بالكتابة ، داعياً إلى ارتفاع شأنها ، وسمو منزلتها ، ثم كان التنافس القوي بين الأدباء وتسابقهم إلى خدمة الخلفاء والرؤساء حافزاً على تجويدها والتأنق فى أساليبها .

ولئن كانت الكتابة فى آخر عصر بنى أمية ، قد صارت صناعة عقيدة ، لها أصولها ومناهجها ورسومها وقواعدها ، بما زاد فيها سالم مولى هشام ، وتلميذه عبد الحميد ، من تهذيب وصقل وتجويد وجمال تصوير ، فقد نهضت وازدهرت فى عصر نفوذ الخلفاء ، وصارت صناعة من أشرف الصناعات ، وأصبحت سلم الوصول إلى المجد ، والصعود إلى رتبة الوزارة وغيرها من أشرف المراتب وأسمى المناصب ، ونبع فيها فحول لم يجد الدهر بمثلهم فى البلاغة والفصاحة والخلق والبراعة واللفظ وشرف الصناعة . حتى بدوا فحول الشعر فى عظمة الجاه ، وسعة النفوذ والسلطان .

— ٢ —

وتتماز الكتابة الفنية فى هذا العصر بعدة ميزات ظاهرة فى الأسلوب واللفظ والمعنى والخيال .. ومن هذه الميزات :

١ - سمة الخيال وطرافته ، وعمق المعاني ودقتها وتنوعها وهدتها وسعتها ،
وظهور آثار الثقافات الأصيلة والمترجمة فيها ، واستخدام العلم والفلسفة والمنطق
في أدلتها والإقناع بها .

٢ - التأني في الألفاظ وحسن تخييرها والتمسك بها عن الحوشية والغرابة
٣ - أما أسلوبها فقد امتاز بالتجويد والتهديب ، واستعمال المحسنات البديعية
والإكثار من ألوانها ، مع وضوح العبارة ، وحسن الإشارة ، وجودة الرسم
وجمال السبك ، وقوة الأداء ، والتنوع في تخيير الأساليب ، في جزالة حيناً ،
وعذوبة حيناً آخر . . . وقد عمد الكتاب إلى اختراع المقدمات في أوائل
الرسائل المطولة وفي بعض المنشورات والسهود ، وإلى تنويع عبارات البدء
والختام في الرسائل ، وكانوا يبذلون في الإيجاز حيناً وفي الاطناب حيناً آخر ،
وفق ما تقتضيه الأحوال والمقامات . وكان بعض الكتاب يحرص على الإيجاز
ويوصي به ، ولكنه لم يكن السائد في أسلوب كتابة الرسائل في هذا العهد ،
ويروى عن جعفر البرمكي أنه كان يقول لكتابه : « إن استطعتم أن تنجزوا
كتبكم كلها توقيعات فافعلوا »

٤ - وقد اقتبس الكتاب من الكتابة الفارسية أروع ما راقهم منها
من تهويل في الخطاب وتمديد الألقاب ، وإفراط في استعمال طرفي الإيجاز
والاطناب ، وشدة تلاؤم الخيالات وابتداعها ، وتلاحم المعاني واختراعها ،
والمقدمات التي كانوا يفتتحون بها رسائلهم المطولة وبعض سهودهم ومنشوراتهم

ونلاحظ أن كتاب الرسائل كانوا يكتثرون من التهديب والتقنيـيح
والتجويد ، وتوخى الصحة والسلامة والبلاغة والبراعة ، حذراً من النقد الذي
قوى في هذا العصر . . . وقد كان الكتاب يفرقون بين أسلوب وأسلوب ،

وعبارة ، ويضمون الفروق بين التراكيب والصيغ ، ويطلبون سواهم بها ،
ويحرضونهم عليها ، ويهيئون على من خالفها ، يروى أن عاملاً تلميذة زبيدة على
بعض ضياعها كتب إليها من رسالة : « وأدام كرامتك » ، فلما قرأت الكتاب
وقعت على ظهره : « أصاح خطأك وإلا صر فتاك عن عمالك » ، فأعاد الامعان في
أملويه فلم يهتد لخطئه ، فعرضه على صديق له ، فقال : إنما كرهت قولك في
صدر الرسالة : « وأدام كرامتك » لأن كرامة النساء دقتهن ، فغير ذلك الدعاء
وأعاد عليها الكتاب ، فوقعت على ظهره : « أحسنيت ولا تعد » . . . ومن
دقتهن في ملاحظة الفروق بين الأساليب أنهم خصوا « أبغاك الله وأمتع بك »
بالاين وانقطع المنقطع إلى كاتب الرسالة وأشباههما ، ولقد كتب محمد بن
عبد الملك الزيات إلى عبد الله بن طاهر رسالة ، وردت فيها كلمة « وأمتع بك »
فكتب إليه عبد الله :

أحدث عما عهدت من أدبك	أم نلت ملكاً قهت في كعبك؟
أم قد ترى أن في ملاطفة الـ	إخوان نقصا عليك في أدبك؟
أكان حقاً كتاب ذى مقة	يكون في صدره « وأمتع بك »؟
أنعت كفيك في مكاتبتى	حسبك ما قد لقيت من تعبك

فرد عليه ابن عبد الملك بقوله :

كيف أخون الأخاء يا أُمى	وكل شيء أنال من سبيك
أنكرت شيئاً فليست فاعله	ولن تراه يخطئ في كعبك
إن يك جهل أذاك من قبلى	فعد بفضل على من حسبك
فأعرف فذلك النفوس عن رجل	يميش حتى الممات في أدبك

وكذلك جعلوا « أطال الله بقاءك » أرجح وزناً من قولهم « أبغاك الله »

طويلاً ، قال ابن عبد ربه في كتابه المقدم الفريد (١) « من الألفاظ المرغوب
عنها ، والصدور المستوحش منها ، في كتب السادات والملوك ، على اتفاق
المعاني : مثل « أبقاك الله طويلاً » وإن كنا نعلم أنه لا فرق بين قولهم « أطال
الله بقاءك » وبين قولهم « أبقاك الله طويلاً » ولكن جعلوا هذا أرجح وزناً
وأنبه قدراً في مخاطبة ، كما أنهم جعلوا « أكرمك الله وأبقاك » أحسن منزلاً
في كتب الفضلاء والأدباء من « جعلت فداك » على اشتراك معناه ، واحتمال
أن يكون فداؤه من الخير ، كما يحتمل أن يكون فداؤه من الشر .. على أن كتاب
المسكر قد أولعوا بهذه اللفظة ، حتى استعملوها في جميع محاوراتهم ، وجعلوها
هجيراً في مخاطبة الشريف والوضيع »

ويروى أن الربيع قال : دخلت على الشافعي وهو مريض فقلت له : « قوی
الله ضعفك » فقال : لو قوى ضعفي قتلني ، قلت : والله ما أردت إلا الخير ،
قال : أعلم أنك لو شئمتني ما أردت إلا الخير ، قل : « قوی الله قوتك
وضعف الله ضعفك »

وهذه الدقة المأثورة عن الشافعي يؤكدتها ما روى عنه أنه قال : « أكره
أن تقول : « أعظم الله أجرك في المصائب » ، لأن معناه أكثر الله مصائبك
ليعظم أجرك

أشهر الكتاب :

— ١ —

والكتاب في عصر نفوذ الخلفاء العباسيين طبقات :

(١) من ١٧ و ١٨ / ٣ العقد - وراجع في ذلك الرسالة العذراء لابن المدير .

١ — فالطبقة الأولى هي التي أدركت الدولتين ، وهي طبقة ابن المقفع ، ويحيى بن زياد الحارثي ، وعمارة بن حمزة ، وأبي أيوب المورياني . ممن كتبوا للمنصور

٢ — والطبقة الثانية طبقة أبي عبيد الله معاوية ويعقوب بن داود وزيري المهدي ، ويحيى بن برمك ويوسف بن القاسم ممن كتبوا للمهدي والهادي والرشيد

٣ — والطبقة الثالثة طبقة جعفر بن يحيى ، وأخيه الفضل ، وإسماعيل ابن صبيح ، والفضل بن سهل ، والحسن بن سهل ، وأحمد بن يوسف ، وعمر بن مسعدة ، وأحمد بن أبي خالد الأحول — ممن كتبوا للرشيد والأمين والمأمون والطبقة الرابعة : الطبقة التي ربيت في عصر المأمون وجمعت بين الآداب والبلاغة العربية والدخيلة ، وقرأت كتب اليونان والفرس والهند ، وإليها انتهت البلاغة ، وفتحت أبواب البديع ، وبذ أعلامها فحول الشعر في عظمة الجاه والرياسة ، مثل : الجاحظ ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، وإبراهيم بن العباس الصولي ، وسعيد بن حميد ، والحسن بن وهب ، وسليمان بن وهب ، وسواهم ممن كتبوا للخلفاء بعد المأمون

— ٢ —

ويجعل بعض الكتّابين ^(١) هذه الطبقات طبقتين : الأولى ، رئيسها ابن المقفع ، وطريقته تنويع العبارة ، وتقطيع الجملة ، والمزاوجة بين الكلمات ، وتوخي السهولة ، والعناية بالمعنى ، والزهد في السجع : وقد حدد البلاغة فقال : « هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » ، وقال لبعض الكتّاب : « إياك وتتبع الوحشي من الكلام طمعا في نيل البلاغة فإن ذلك هو العي »

لا كبر ، وقال الآخر : « عليك بما سهل من الألفاظ مع التعجب لألفاظه
سهلة »

والثانية رئيسها الجليظ ، وطريقته أشبه بالاولى في سهولة العبارة
جزالتها ، وإنما تمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقننة أو مرسلة ، وزياد
لاطناب في الألفاظ والجل والاستطراد ، ومزج الجمل بالذيل ، وتحليل المعنى
استقصاءه ، وتحكيم العقل والمنطق ، والاعتراض بالجل الدعائية
وهؤلاء الكتاب جميعا صفوة من البلغاء والفصحاء وأرباب البيان ،
ملكوا أزمة البلاغة ، وبلغوا أعلى منازل الفصاحة والبراعة ، وامتازت كتابته
بطول النفس ، وجمال الأداء ، وبراعة الأسلوب ، وشرف المعاني ، وحماس
الابتداع في الأخيلة ، مع الازدواج حيناً ، والسجع حيناً آخر .. إلى غير ذلك
من الخصائص والميزات التي أفضنا في شرحها

التوقيعات

التوقيع فن يليغ من فنون النثر ، ولون رائع من ألوان الكتابة . وهو عبارة موجزة باليفة يكتبها الخليفة أو الأمير أو الوزير في أسفل الكتاب الواردة إليه ، بإبداء الرأي فيما يرفع إليه من شكوى ، أو يقدم له من رجاء ، أو يستشار فيه من أمر .

والتوقيع في اللغة معان متعددة : جاء في اللسان : وقع ^(١) ظنه على الشيء ، قدره وأنزاه . والتوقيع الإصابة ، وتنظر الأمر ، وتوهم الشيء . ومن معانيه اللغوية التأثير ، يقال : جنب هذه الناقة ، وقع ، أى أن فيه تأثيراً خفيفاً من الطحال التي تشد عليها ، والمناسبة بينه وبين المعنى الاصطلاحي ، أن التوقيع في أسفل الكتاب تأثير خفيف ، إلى جانب ما كتب فيه من عبارات طويلة ووقع القوم : عرسوا ، أى نزلوا آخر الليل ، كما أن التوقيع يكون في آخر الكتاب المرفوع . ووقعت ^(٢) الإبل : بركت أو اطمأنت بالأرض بعد الرى ، فكان الموقع بعد توقيعه قد اطمأن إلى ما أبداه من رأى .

والتوقيع في الكتاب إلحاق شيء فيه بعد الفراغ منه ، وقيل هو مشتق من التوقيع الذي هو مخالفة الثاني للأول . قال الأزهرى : توقيع الكاتب في الكتاب المكتوب أن يجمال بين تضعاف سطوره مقاصد الحاجة ، ويحذف الفضول ، وهو مأخوذ من توقيع الدبر ^(٣) ظهر البعير . فكان الموقع في الكتاب يؤثر في الأمر .

وفن التوقيع موجود من قديم في الأدب الفارسي ، ووجد في الأدب العربي

(١) بتشديد القاف

(٢) المدبر بفتح الـ والباء الموحدة في ظهر البعير .

منذ عصر صدر الاسلام ، ويروى أن أول توقيع عرف كان لعمر حين كتب إليه سمد بن أبي وقاص يستأذنه في بناء ، فوقع له عمر : « ابن ما يكتك من الهواجر وأذى المطر » . . وقد رويت توقيعات كثيرة للخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية ... ولكن هذا الفن قد نضج واستحكم وقوى في عصر نفوذ الخلفاء ، ونبغ فيه كثير من أعلام الكتّاب وفحول البلغاء ، وروى منه الكثير كذلك لخلفاء بني العباس ووزراء دولتهم في هذا العصر وكان الكتّاب يتنافسون في إجادته ، ويتبارون في بلوغ أقصى الغاية فيه حتى غلبت على توقيعاتهم روعة الإيجاز ، وقوة التعبير ، وجمال التصوير ، وشدة التأثير ، ولطف الإشارة ، وكانت توقيعاتهم أحيانا مثلا أو حكمة أو آية من القرآن أو حديثا مأثورا عن رسول الله ، أو بيتا من الشعر وكان الأدباء الناشئون يحفظونها ويروونها ويعنون بجمعها ، وقد يبدلون في التوقيع الواحد من الدراهم إلى عشرين درهما .

نماذج من التوقيعات :

وقع السفاح في كتاب لأبي جعفر وهو يحارب ابن هبيرة بواسط : إن حلمك أفسد علمك ، وتراخيك أثر في طاعتك ، فخذ لي منك ، ولك من نفسك .
ووقع المنصور في كتاب عبد الحميد صاحب خراسان : شكوت فأشكيتك ، وعقبت فأعتبتك ، ثم خرجت على العامة ، فتأهب لفراق السلامة .
ووقع لوالى مصر حين كتب يذكر نقصان النيل : طهر عسكريك من الفساد يعطلك النيل القياد .

ووقع في قصة فقير : سل الله من رزقه . . ووقع المهدي في قصة رجل حبس في دم : وإسكن في القصاص حياة يا أولى الألباب .

ووقع الرشيد إلى صاحب خراسان : داو جرحك لا يتسع .

ووقع في نكبة جعفر البرمكي : أنبقة الطاعة وحصدته المصيبة .

ووقع المأمون في قصة مظلم من أحمد بن هشام : اكفى هذا الرجل
وإلا كفيته أمر .

وقال عمرو بن مسعدة : كتبت كتاباً إلى عامل فأطلقه ، فأخذ المأمون
من بين يدي وكتب : قد كثر شاكوك وقل شاكوك ، فلما اعتدلت
وإما اعتزلت ... وينسب هذا القوميع لجعفر البرمكي أيضاً

ووقع المأمون في كتاب لأبراهيم بن المهدي : القدرة تذهب الحفيظ
والندم جزء من التوبة ويذهبها عفو الله .

ووقع جعفر البرمكي في قصة محبوس : العدل أوقعه والتوبة تطلقه .

ووقع يحيى البرمكي لمظلوم : طب نفساً فكفى بالله لالمظلوم ناصراً .

ووقع طساهر بن الحسين في قصة مستمنح : سننظر أصدقت أم كنت

من الكاذبين .

الشعر في هذا العصر

— ١ —

كان الشعر — ولا يزال — صورة المجتمع في كل بيئة ، ومرآة الحياة في كل عصر ، وسجل الأحداث في كل زمان . ذلك لأنه فيض الخاطر ، ونبع الشعور ، ونبضة الحبس ، وخلجة النفس ، وفورة الوجدان . ولأن الشعراء أبلغ من الكتّاب استجابة لمظاهر الحياة ، وأسرع تجاوباً مع أحوال المجتمع ، وأشد تأثراً بأحداث البيئة ، وأعمق شعوراً بأسرار الطبيعة ، وأقوى إحساساً بنوازع الآمال والآلام .

ومن هنا نرى الشعر في كل زمان ومكان ، صدى للحياة ، وصورة للمجتمع ، وانمكناً للآمال والمشاعر ، وتاريخاً صحيحاً لمصره ومصره . فهو في الجاهلية ديوان العرب الذي يسجل مناخرهم ، ويدون مآثرهم ، ويصور أساليب حياتهم من حرب وسلم ، ونجمة واسقرار ، وبأس ونجاسة ، وحماسة وفقوة ، ونحو ذلك من ألوان خلفهم ، وأحوال عيشهم . وأنت تقرؤه فتجد في صفحته صورة البادية ، ويعورة مسالكها ، ووعورة شعابها ، وخشونة هضابها ، وترى فيه الرمال والكثبان ، والرسوم والأطلال ، والأباعر والغزلان ، والصياد والطاراد ، أكثر مما ترى أي شيء آخر .

وهو في ظلال الاسلام صورة للحياة الجديدة ، يتفاعل معها ، ويستجيب لدواعيها ، وتتحوّل أغراضه وألفاظه ومعانيه ، تبعاً لما تقتضيه الدعوة ، وتثراً بديانها الحكيم ، وتجاوباً مع ما يتيح للدولة من حظ في الحضارة ، وما استجد من شئون في السياسة ، وما طرأ من عمران وعرفان . فتراه قد غاش في المصيرية ، وجال في السياسة ، وصال في المدح والمهجاء ، وأيدو عارض ،

وجادل وخاصم ، وجد في ميادين المجدين ، وتكشف في محاريب الزاهدين ،
وتبتدل في مواطن الغزل والمجون مع المترفين الأباحين .

ومع هذا فإنه لم يهد كثيراً عن منهجه الجاهلي ، لأصالة العروبة ، وقرب
المهد بالبداوة ، وقلة الحظ من الحضارة ، وندرة الامتزاج بالأعاجم ، والترفع
عن خلطهم . فلم تتغير مناهجه ، أو تعدد مذاهبه ، أو تتجدد ألوانه ،
إلا بمقدار ما سمح به التغير الطارئ في مناهج الحياة ، وأساليب العيش ،
ومظاهر الحضارة .

وهو في جاهليته وإسلامه أنغام شجية تهدد الأشجان ، وتنبه العبرات ،
وتستثير المشاعر ، وتستفز العزائم ، وتجمل الحياة .

وإذا كان هذا شأنه والحضارة معدومة أو محدودة ، وخياله المجنح يخلق
في آفاق الجمال ، فيبني من الصخر قصراً ، وينبت من القفر زهراً ، ويخلق من
الرسوم الدوارس ، شيوخاً وأوانس ، ويصور من البحر المتنـاثـر ، لآلئ
وجواهر ... فما بالك به في العصر العباسي ، والحضارة في الأوج ، والمدنية
في القمة ، والطبيعة في جلاء ، والأرض في زينة ، والثقافة متنوعة ، والمناظر
متجددة ، والعمران في عنفوان ؟

لقد اتخذ العباسيون عاصمة ملكهم (بغداد) في ديار الأعاجم ، وامتزجوا
بهم كل الامتزاج ، واندمجوا فيهم كل الاندماج . ول هؤلاء ألوان من الثقافات ،
وأعاط من العيش ، وأنواع من الخلق ، وأشتات من العادات والتقاليد . . .
فكان لهذا كله أثره في نفوس الشعراء ، كما كان له أثره في نفوس العرب جميعاً ،
ووجد الشعراء إلى جانب ذلك من المناظر والمظاهر وألوان الحضارة ما لم يألوه
خيالهم من قبل ، فهذه رياض ناضرة ، وقصور شاهقة ، ومناظر موقنة ، وتلك

مجالس مفاكهة وسمر ، ونجالي منادمة وطرب ، إلى غير ذلك مما يمد الشعر ويندبه ، ويثيره وينميّه ، ويجمله يخلق في أرحب أفق وأعلى سماء .
وكذلك كان الشعراء أبلغ من تأثر بذلك كله ، وأول من استعجاب إلى هذه الحياة الجديدة ، لأن نفوسهم أعلق بالترف ، وألصق بالمدنية ، وهم كذلك أقرب إلى الخلفاء ، وأدنى إلى مظاهر الحضارة في قصورهم . ولهذا رأينا الشعر يخلق في كل أفق ، ويفرد فوق كل فن ، فهو ينادم على الشراب ، ويعاقر كؤوس الخباب ، ويفاكه السمار ، ويساجل الأوتار ، وينشد الحسن ، ويهتف بالجمال . وهكذا انتقل من الصحارى المجربة ، والخيام المنطبة ، إلى الرياض والغياض ، والقصور والزهور ، والجداول المتفرقة ، والمروج المنمقة ، ومطارح اللهو والترف والنعيم .

— ٣ —

وكان الشعر إذن كالطائر الصداح ، تخرج لهاته خشونة الحياة ، وينحن شدوه لفح الحجير ، حتى إذا أشرقت شمس الربيع ، وهبت نسائمه ، وتفتح زهره ، وتضوع عطره ، خفق بجناحه طرباً ، وحلق ما شاء فرحاً ، وابتدع أفانين الشدو والغناء . وما العصر العباسي إلا ذلك الربيع .
وهكذا يقطور بقطور الأمة العربية ، ويتدرج مع الحياة الانسانية ، فيكون في الجاهلية أنغام صبي ، وحماسة فتوة ، وعواطف أثرية . وفي الإسلام أناشيد جهاد ، وثوران عصبية ، وأطماع حياة ، ثم يستحير شبابه . ويكتمل في صدر الدولة العباسية ، فيظهر في شعر بشار وأبي نواس وأضرابهما : عبث شباب ، وأغاني طرب ، ومظاهر ترف ... » (١)

عناية الخلفاء ومنزلة الشعراء

كان الخلفاء والأمراء في عصر نفوذ الدولة العباسية عرباً، جرى في عروقهم دم العروبة، وتأسلت ملكتها، وسحرتهم بلاغتها، ورأوا في الشعر مجدهم القليل، وفخرهم القديم، فحرصوا على روايته وإحيائه، واهتزت أريجيتهم لسماعه وإنشاده، وخبأ أفئدتهم القول الرائع، والبيان الفائق، واحتلبت عطاياهم المدح الجيد، والثناء البليغ.. ولهذا قربوا الشعراء، وفرضوا لهم في بيت المال، وأغدقوا عليهم العطايا والصلوات، وأغرقوهم بالمنح والهبات، حتى تجاوزت آمالهم التكسب بالشعر للعيش والكيف، إلى الثراء الواسع، والغنى السابغ واختزان المال، والأخذ بأكبر نصيب من الرضاة والبسوخ والنعيم. حتى رأيناهم يققنون الثروات الواسعة، ويسامون الملوكة في المنزلة، ويساوون ذوي اليسار في نعيم العيش، وتترف الحياة، وامتلاك القصور والضياع.

قالوا: إن ساما الخامس مات عن خمسين ألف دينار، ويحدثنا صاحب الأغاني أنه كان يأتي باب المهدي على البرذون قيمته عشرة آلاف درهم، ولباسه الخبز والوشى، وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الثمن، ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه.

ومروان بن أبي حفصة أعطى مائة ألف دينار غير مرات. وكان أبو نواس محظوظاً لا يدرى ما يصل إليه، وكان يتساجل في الانفاق هو والعباس بن الأحنف وصريع الغواني.

وكان البحري مليحاً ، وقد فاض كسبه ، وكان يركب في موكب من عبيده (١) .

وهكذا تفيض كتب الأدب بما لا تكاد تصدقه اليوم عن ثراء الشعراء ، وما كانت تستدره رقاهم السحرية من مال . ولم يقف الخلفاء والأمراء عند سماع الشعر ، والإرتياح لأنشاده ، والعناية بأصحابه ، بل كان لهم به بصر وخبرة ، ومشاركة ، ومعرفة ، وحذق ، وإلمام .

فهذا المنصور يفججه الدهر في ابنه جعفر ، فتستبد اللوعة بقلبه ، ويسد الحزن عليه منافذ السلوى ، فلا يجد سبيلاً للأعزاء إلا قصيدة أبي ذؤيب في رثاء أبنائه ، فيطلب إلى الربيع من ينشده من أهل بيته :

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعقب من يجزع ؟
فلا يجد الربيع من يحفظها ، فتكون مصيبتهم في أهل بيته أشد من لوعته في ابنه ، ثم يهتث إلى القواد والولاء ، حتى يصادف الربيع شيخاً مؤدباً ، فيذهب به إلى المنصور ، فينشد المطلع مائة مرة ، حتى إذا بلغ قول أبي ذؤيب :
« والدهر لا يبقى على حدثانه » ، عرف موطن الإبداع ، فاستعاد مائة مرة ، وهو يقول : سلا أبو ذؤيب عند هذا القول .

وكذلك كان المأمون ، وسيأتي من أخباره ما يدل على ذوقه وبصره . وكان الناس يعرفون للشعر منزلته عند الخلفاء ، فيواجهون به أخرج المواقف ، التي يتحاشون المواجهة فيها . كالذي حدث من نقض نقفور ملك الروم عهده مع الرشيد ، بعد أن خضع له وبذل الجزية . فلم يجرؤ أحد على

إخبار الرشيد ، حتى بذل يحيى بن خالد الأموال للشراء على أن يخبروه . فقدم
إليه شاعر من أهل جدة يكنى أبا محمد ، وأنشده :

نقض الذي أعطيت به نفور فمليه دائرة البوار تدور

أبشر أمير المؤمنين فإنه فتح أقالمك به الإله كبير

فلما انتهى من قصيدته ، قال الرشيد : أو قد فعل ؟ ثم غزاها وفتح هرقله .

وكان الرشيد شاعرا كغيره من الخلفاء العباسيين ، الذين شاركوا في

النهضة الشعرية بقول الشعر ، إلى جانب عنايتهم به ، وإغداقهم على قائله .

يروون أنه قال في قينة :

تبدي صدوداً وتخفي تحته مقة فالنفس راضية والطرف غضبان

يامن وضعت له خمدى فداله وليس فوقى سوى الرحمن سلطان

وقال في رثاء جارية :

طارقت عيشى حين فارقتها فما أبالي كيفما كانا

قد كثر الكلام ولكنى لست أرى بهدك إنسانا

وقال في جواربه الثلاث : سحر وضياء ونخث :

ملك الثلاث الأنسات عناني رحلان من قلبي بكل مكان

مالي تطاوعنى البرية كلها وأطيسهن وهن فى عصياني

ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطاني

أما الذى لا شك فيه فهو أنه كان أدق حساً ، وأنقى ذوقاً ، وأصح فهماً

وبصراً به من سواه . ولقد أنشده النعمان يوماً فى صفة فرس :

كأن أذنيه إذا تشوفا قادمة أو قادمة محرفا

فقال له : دع كأن ، وقل نخال ، حتى يستوى الشعر .

وقالوا إن المأمون وصف الشطرنج بقوله :

أرض مربعة حمراء من آدم ما بين إلفين موصوفين بالكرم
 هذا يغير على هذا وذاك على هذا يغير وعين الحرب لم تم
 فانظر إلى الخيل قد جاشت بمركة في عسكريين بلا طبل ولا علم
 وبعد فهذه بعض أمثلة نضيفها إلى ما سبق ، وننبهها بأخرى في مجالس
 الأدب ، وكلها تدل بوضوح على مبلغ عناية خلفاء هذا العصر وأمرائه بالأدب
 والشعر ، كما تتجلى فيها منزلة الشعراء لدى هؤلاء الخلفاء ، وما كانوا ينعمون به
 من حظوة وجه ومال .

— ١ —

أقبل أبو دلالة على المنصور ، فأنشده :

لو كان يقد فوق الشمس من كرم قوم لقييل اقموا يا آل عباس
 ثم ارتقوا في شعاع الشمس كالكو إلى السماء فأنتم أطهر الناس
 وقدموا القائد المنصور رأسكو فالعين والأنف والأذنان في الراس
 فهز أريحته ، وأنساه حرصه وتشدده ، فقال له : بأى شيء تجد أن
 نعمتك ؟ قال أبو دلالة : تملأ لى هذه الخريطة دراهم ، فملت فوسمت أربعة
 آلاف درهم .

وقال الربيع بن زياد : قلت المنصور يوما : إن الشعراء يبابك وهم
 كثيرون ، فقال : اخرج إليهم فاقرأ عليهم السلام ، وقل لهم : من مدحني منكم
 فلا يصفني بالأسد ، فإنما هو كلب ، ولا بالحية فإنما هي دويبة منتنة تأكل
 التراب ، ولا بالجيل فإنما هو حجر أصم ، ولا بالبحر فإنما هو لجب . فمن كان
 في شعره هذا فلم ينصرف . فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هرمة الذي دخل
 فأنشده قصيدة قال منها :

له طينة بيضاء من آل هاشم إذا اسود من كرم التراب القبائل

إذا ما أتى شيئاً مضى كالذي أتى وإن قال إني فاعل فهو فاعل
فقال : حسبك ، هذا عين الشعر ، قد أصرت لك بخمسة آلاف درهم .

— ٢ —

وهذا ابنه المهدي يدخل عليه عمرو بن سلم الخامس ، فيمنشه :
أليس أحق الناس أن يدرك الفنى مرجى أمير المؤمنين وسائله
لقد بسط المهدي عدلاً ونائلاً كأنهما عدل النبي ونائله
فقال : أما ما ذكرت من الجود ، فوالله ما تعدل الدنيا عندي خاتمي هذا ،
وأما العدل فإنه لا يقاس برسول الله أحد فيه ، وإني لأتحرره جهدي .
ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أنواب ، ودخل عليه بعدها فأنشده :
إن الخلافة لم تكن بخلافة حتى استقرت في بني العباس
شدت مناكب ملوكهم بخلافة كالدهر يخاط لينه بشباس
فأمر له بعشرين ألف درهم وعشرين ثوباً . ثم دخل عليه بعدها فأنشده :
أقنى سؤال السائلين بجوده ملك مواهبه تروح وتغتدي
هذا الخلافة جوده ونواله نفذ السؤال وجوده لم ينفذ
فأمر له بثلاثين ألف درهم وثلاثين ثوباً .

ودخل عليه ابن الخياط فمدحه ، فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما قبضها
فرقها على الناس ، وأنشأ يقول :

لمست بكفى كفه أبتغى الفنى ولم أدر أن الجود من كفه يمدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الفنى أقدت وأعداني فأتلفت ما عندي
فلما بلغ المهدي ما فعل أعطاه بكل درهم ديناراً .

ودخل مروان بن أبي حفصة على الهادي فأنشده في مدحه :

تشابه يوماً بأسه ونواله فما أحد يدري لأيهما الفضل

فقال له الهادي : إنما أحب إليك ثلاثون ألفاً مسجلة أو مائة ألف تدور
في الديوان ؟ قال : تعجل الثلاثون ألفاً وتدور المائة ألف ، قال : بل تعجلان
لك جميعاً ، فحمل له ذلك .

وأُسند الصولي عن سعيد بن سلم قال : إني لأرجو أن يغفر الله للهادي
بشيء رأيته منه . حضرته وأبو الخطاب السمدى يمشيه في مدحه :

يا خير من عقدت كفاه حجزته وخير من قلده أمرها مضر

فقال الهادي : إلا من ؟ ويا لك . فقلت يا أمير المؤمنين : إنما يعني من أهل
هذا الزمان ؛ ففكر الشاعر فقال :

إلا النبي رسول الله إن له فضلاً وانت بذلك الفضل تفتخر

فقال : الآن أصبت وأحسن ، وأمر له بخمسين ألف درهم (١) .

أما الرشيد فقد جاوز عطاؤه للشعراء كل أمل ، وفاقت عنايته بالشعر كل
عناية ، ولا بدع فهو شاعر أديب ، يتذوق الأدب ، ويفهمه فهم الملم ؛
ويقائر بالشعر أبلغ القائر ، حتى إنه لما آلمه طين الملاحين الذين كانوا يغنون
في دجلة ، أمر أبا العتاهية وهو في السجن أن يعمل لهم شعراً يغنون فيه ، ليصلح

من ألسنتهم ، فعمل أبو المقاهية شـمراً في الوعظ والتذكير بقلب الأيام ،
لينفض على الرشيد سروره إذا سمعه ، وقد غاظه منه أنه لم يأمر بإطلاقه من
السجن . فسكان الرشيد يبكي ويلتجئ إذا سمع هذا الشعر الذي كان منه :

خاناتك الطرف الطموح	أيها القلب الجموح
هل المطلوب يذنب	توبة منه نصوح
كيف إصلاح قلوب	إنما هن قروح
يصير المرء يوما	جسداً ما فيه روح
بين عيني كحل حي	علم الموت يلوح
كلنا في غفلة والـ	موت يغدو ويروح
نح على نفسك يامـ	كبن إن كنت تنـوح
لتموتن وإن عمر	ت ما عمر نوح

واقعد مدحه مروان بن أبي حفصة بقصيدة منها :

وسدت بهارون الثغور فأحكمت به من أمور المسلمين المرائر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية على الرغم قسرا عن بد وهو صاغر
ترى حوله الأملاك من آل هاشم كما حفت البدر النجوم الزواهر
فأعطاه خمسة آلاف دينار ، وكساه خلعة ، وأمر له بعشرة من رقيق
الروم ، وحمله على برذون من خاص مراكبه .

ومدحه إبراهيم الموصلي لما ولي الخلافة واستوزر يحيى بن خالد ، فقال .
ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما أتى هرون أشرق نورها
تلبست الدنيا جمالا بملكه فهارون واليها ويحيى وزبرها
فأعطاه مائة ألف درهم ، وأعطاه يحيى خمسين ألفاً .

وقال المأمون يوماً للحمد بن الجهم : أنشدني ثلاثة أبيات في المدح والهجاء
والرثاء ، ولك بكل بيت كورة ، فأنشده في المدح :

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود
وأنشده في الهجاء :

قبحت مناظرهم فحين خبرتهم حسنت مناظرهم لقبح الخبر
وأنشده في الرثاء :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر

وكان المتوكل جواداً ممدوحاً ، يقال : ما أعطى خليفة شاعراً ما أعطى
المتوكل .. دخل عليه علي بن الجهم ، وبمديه درتان يعلبهما ، فأنشده قصيدة ،
فرمى إليه بدرة ، فقلبها ، فقال : تستنقص بها وهي والله خير من مائة ألف ؟
قال : لا ، ولكنني أفكر في أبيات آخذ بها الأخرى ، فقال : قل ، فقال :

بسر من را إمام عدل تعرف من بجره البحار
الملك فيه وفي بنيه ما اختاف الليل والنهار
يرجى ويخشى لكل خطب كأنه جنة ونار
يدام في الجود ضربات عليه كاتماها تغار
لم تأت مثله اليمين شيئاً إلا أتت مثله اليسار
فرمى إليه بالدرة الأخرى (١)

ودخل عليه مروان الأصغر بن مروان بن أبي حفصة ، فأنشده :

سقى الله نجداً والسلام على نجيد ويا حبذا نجد على القرب والبعد
نظرت إلى نجد وبغداد دونها لى أرى نجداً وهيات من نجد
ونجد بها قوم هواهم زيارتي ولا شيء أحلى من زيارتهم عندي
فلما أتم القصيدة نفحه بششرين ومائة ألف درهم ، وخمسين ثوباً ، وثلاثة
من الظهر ، حتى أنطقه بالشكر في قوله .

تخير رب الناس للناس جعفراً فملكه أمر العباد تخيراً
فلما انتهى إلى قوله :

فأمسك ندى كفيك عني ولا تزد فقد خفت أن أظني وأن أتجبرا
قال المتوكل : لا والله لا أمسك حتى أغرقك بجودي ، ولا تبرح أو تسأل
حاجة ، فسأله ضياعاً كانت قد أقطعت له ، وحيل بينه وبينها ، فردها إليه .
ودخل عليه البحترى وهو جالس ببعض البرك والماء يسقط فيها ، فقال له
قل في هذا يا بحترى ، قال البحترى : ولم أكن ذا بديهة ، ولكنى اعتزلت
جانباً ، فقلت :

ذات ارتجاز بحنين الرعد مجرورة الذيل صدوق الوعد (١)
مسفوحة الدمع لغير وجد لها نسيم كنسيم الورد
ورنة مثل زئير الأسد ولمع برق كسيموف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد فانقثرت مثل انتشار العقيد
فراحت الأرض بعيش رغيد من وشى أنوار الربا في برد
كأنما غدرانها في الوهد يامبين من حبابها بالنرد
فقال المتوكل : انظروا ماذا في الخزائن من ماء الورد العتيق ، فأنفعوه

(١) الارتجاز : صوت الرعد . مجرورة الذيل كناية عن كونها سحابة طويلة ، والمراد
بصدق الوعد أن برقها ليس خفياً

إلى البحترى . قال : فأخذت من ذلك شيئاً كثيراً ، وبعته بمال .

— V —

ولم يكن عظماء الدولة وولاتها وأمرائها أقل اهتماماً بالشعر ، أو بذلا
للشعراء . قالوا إن الزوار كانوا يسمون بالسؤال ، حتى كرمهم خالد بن برمك ،
وسماهم الزوار ، لأن فيهم الأشراف والأحرار وأبناء النعم . فقال بشار :

حذا خالد في فعله حذو برمك فوجد له مستطرف وأصيل
وكان ذوو الآمال يدعون قبله بلفظ على الإعدام فيه دليل
يسمون بالسؤال في كل موطن وإن كان فيهم نابه وجليل
فسماهم الزوار سـمـوا عليهم فأستقار له المجتدين سدول
فأمر له خالد لكل بيت ألف درهم . وكان يعطيه في كل وفادة خمسة آلاف ،
بل إنه أعطاه مرة أربعة آلاف دينار ، ومرة ثلاثين ألف درهم .

* *

*

وعلى هذا النحو من السخاء كان الخلفاء يبذلون للشعراء ، ويفدقون عليهم ،
وكأنما أخذتهم رقى الشعر ، وصرعتهم شياطينه ، فهم يعطون باليمين وبالشمال ،
ويتمزقون في هذا العطاء حتى كأنهم لا يدرون ماذا يعطون ، وكان الأمراء
من حولهم والولاة من قبلهم يصنعون هذا الصنيع ، ويمدحون هذا المنح .

ولو أننا أفضنا في أخبار هؤلاء الخلفاء ، وتبعنا عطاياهم الجسام ، وصلاتهم
التي تفوق الخيال ، لما اتسع لذلك المجال ، فحسبنا هذا القبس دليلا على عنايتهم
بالشعر ، وانطباع نفوسهم على حبه ، وإيثارهم للشعراء ، وتقريبهم ، والإسراف
في مشورتهم ، حتى صارت لهم منزلة لا تدانيها منزلة ، ومكانة لا تساويها مكانة ،
فالخلفاء يقبلون شفاعتهم ، ويقبلون إساءتهم ، ويفضون عن أذاهم ، بل ويستمعون
لما يقولونه فيهم من هجاء ، ولقد قالوا إن دعبلأ هجا المأمون بقوله :

أيسومني المأمون خبطة عاجز أو ما رأى بالأمس رأس شهيد
 إن التراث مسهد طلابها فاكشف لما بك عن امام الأسود
 إني من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
 شادوا بذكرك بمد طول خوله واستنقذك من الحضيض الأوهده
 فذهب أبو سعد الخزومي ، وأنشد المأمون هذا المہجاء ، وقال له : أتأذن
 لي يا أمير المؤمنين أن أجيئك برأسه ، فقال له : لا ، هذا رجل فخر علينا ،
 فافخر أنت عليه ، فأما قتله بلا حجة فلا .
 ولم يزد المأمون على أن قال : « قاتل الله دعبلًا ، متى كنت غاملا وفي
 حجر الخلافة ولدت ، وبدرها غذيت وفي مہدها ربيت » . (١)
 وقالوا إن المتوكل غضب على محمد بن البعيث ، لخروجه عليه ، فأرسل إليه
 من أتى به أسيرا ، فأمر بضرب عنقه ، فأنشده :

أبي الناس إلا أنك اليوم قاتلي إمام الهدى والصفح بالناس أجمل
 وهل أنا إلا جبلة من خطيئة وعفوك من نور النبوة يجبل
 فإنك خير السابقين إلى الملا ولا شك أن خير الفعالين تفعل
 فقال المتوكل لجلسائه : إن فيه لأدبا ، وأمر بإطلاقه والعفو عنه ، وهكذا
 شفع له مقام الأدب ، وجاء الشعر ، وما أعظمه من جاء عند هؤلاء الناس .
 بل إن أبعد من هذا دلالة على مكانة الشعراء وعظم جاههم ، ما كان من
 أبي تمام حين شفع الواثق عند أبيه في ولاية العهد ، فقال :
 فاشدد بهرون الخلافة إنه سبكن لوحشها ودار قرار
 ولقد علمت بأن ذلك معصم ما كنت تترك بدون سوار

مجالس الشعر والأدب

قوم يرثون هذا الشغف بالشعر ، ويجلون الشعراء ذلك الاجلال ، ويحاولونهم من نفوسهم وقلوبهم تلك المكانة ، وينزلونهم من عنايتهم ورعايتهم هذه المنزلة ، فلا يسكتون بما يسد رمتهم ، أو يفنى حاجتهم ؛ بل يغمرونهم بالعطاء ، ويغرقونهم بالثراء ؛ ويغممونهم بالترف والبنسج والنعيم ... قوم هذا شأنهم ، لا بد أن تهمر مجالسهم بالأدب ، وتحتفل نواديهم بالشعر ، وتزخر قصورهم بالشعراء والأدباء ، ولا بدع فهم عرب تترنح أعطافهم نشوة بالأدب ، وتهتز أريجيتهم نشاطاً له ؛ وتهفو مشاعرهم صبرة إليه .

ولقد كان للخلفاء والأمراء في هذا العصر — كما كان لغيرهم من رجال الفن والأدب — مجالس يتفأكلون فيها بالطريف من الشعر ، ويتسامرون بالغريب من الرواية ، ويتعجاذبون الرائع من القول ، ويتبادلون التعليل والفقد ، ويستجيدون الجيد ، ويهجنون الضعيف . وكلها تدل على دقة الحس ، ورقة الشعور ، وسلامة الذوق ، وفطرة البيان . كما تدل على عنايتهم بالأدب ، واعتبار مجالسهم متعة للنفس ، وغذاء للحس ، وأنساً للروح ، ولذة للعقل والقلب والشعور . وهذه بعض أمثلة لمجالس الأدب والشعر في هذا العصر :

— ١ —

عقد المهدي يوماً مجلساً مروان بن أبي حفصة حشد فيه وجوه بني العباس ، فلما اكتمل عقدهم ، دعا مروان فأنشده :

كأن أمير المؤمنين مجداً لرأفته بالناس للناس والد
على أنه من خالف الحق منهمو سقته به الموت الخوف الرواصد

فأشار إليه فأمسك ، فقال يا بني العباس ، هذا شاعركم المنقطع إليكم
المعادي فيكم ، فأتوه ما يسره ، فأعطاه موسى ابنه خمسة آلاف درهم ، وأعطاه
هرون مثلها ، وأعطاه الجميع كل على قدر حاله ، وأعطاه هو ثلاثين ألفاً ، ثم قال
له : وسياً تيك منى ما يؤديك إلى الفنى ، فقال مروان : قد رأيت من قبولك
وبشرك وسرورك بما سمعت منى ما سأزداد به شعراً .

— ٢ —

وقالوا إن المنصور ركب يوماً هجيناً في وقت الهاجرة ، فجعلت الشمس
تابع بين عينيه . فقال لمن حوله : إني قاتل بيتاً ، فمن أجازته فله جبتي هذه ، وقال :
وهاجرة نصبت لها جبتي يقطع ظهرها ظهر العظاية (١)
فابتدر بشار فقال :

وقفت بها القلوص ففاض دمي على خدي وأقصر واعظايه
فتزع المنصور جبته وهو راكب ، وأعطاهها له ، فباعها بأربعمائة دينار .

— ٣ —

وكان الهادي مغرمًا بجمع السلاح ، فلما وقع إليه سيف عمرو بن معد يكرب
الزبيدي ، عقد مجلساً للمشعراء ، واقترح عليهم فيه وصفه ، فقال بعضهم :
حاز صمصامة الزبيدي من بيـ بن جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا خير ما أغضت عليه الجفون
أخضر اللون بين حديه برد من زعاف يمدس فيه المنون
فاذا ما سلقه بهر الشمس ضياء فلم تكد تستبين
ما يبالي من انقضاء لحرب أشمال سطت به أم يمين
يسقطير الأبصار كالقديس المشـ هل ما تستقر فيه العميون

(١) العظاية : دويبة صغيرة ملساء تشبه سام (يرس)

وكان الفرند والجوهر الجا رى على صفحتيه ماء معين
فبقيت عشرين ألف درهم .

— ٤ —

وكانت مجالس الرشيد أعمر هذه المجالس ، وأحفلها بالأدب ، لأنه كان
علماً شاعراً أديباً ، ذا حس مرهف ، وذوق ناقد ، وبصر بالأدب ، وغرام
بالشعر ، كما كان أجزل الخلفاء عطاء ، وأبلغهم تأثراً وتقديراً .
وهو الذى شق عليه امتناع أبي العتاهية عن قول الشعر وحضور مناديقه
حين أدركته حال الزهد ، فلما لم يفلح فى رده عن هذه الحال ، أمر بضربه سقين
عصا ، ثم سجنه وأقسم ألا يخرج من حبسه ، حتى يقول الشعر .
ولكن أبا العتاهية أقسم ألا يقسم سنة إلا بالقرآن أو الشهادة ، فندم الرشيد
وأمر بالقوسعة عليه ، حتى إذا انتهى العام ، قال أبو العتاهية فى امرأته :

من لقلب مقيم مشتقاً شفه شوقه وطول الفراق

طال شوقى إلى قعيدة بيتى ليت شعرى فهل لنا من تلاق

فلما سمع الرشيد الشعر ، أعطاه بدل السقين عصا ، سقين ألف درهم .
ودخل عليه أعرابى فأنشده ، فقال : يا أعرابى أسمعك مستحسناً ، وأنكر
متبهاً ، فقل لنا بيتين فى هذين — الأمين والمأمون — فقال : يا أمير المؤمنين
حملتنى على الوعر القرد (١) ، وأرجعتنى عن السهل الحدر ، روعة الخلافة ،
وبهر الدرجة ، ونفور القوافى على البديهة ، فقال الرشيد : قد جعلت اعتذارك
بدلاً من امتحانك ، فقال : يا أمير المؤمنين نفست الخناق ، وسهلت ميدان
السباق ، ثم أنشد :

بنيت لعبد الله ثم عهد ذرى قبة الإسلام فاخضر عودها

(١) القرد : ما ارتفع من الأرض

هما طيباها بارك الله فيهما وأنت أمير المؤمنين عمودها
 فقال الرشيد : بارك الله فيك ، فسل ولا تكن مسألتك دون إحسانك ،
 قال : الهنيذة ^(١) يا أمير المؤمنين ، بأمر له بمائة ناقة وسمع خلع .
 وروى حماد بن اسحق عن أبيه قال : كنا عند الرشيد ، فحضر الأصمعي
 والكسائي ، فسأل الرشيد عن بيت الراعي :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً ودعا فلم أر مثله مخذولاً
 فقال الكسائي : كان قد أحرم بالحج ، فضحك الأصمعي ونهأف ^(٢) ،
 فقال الرشيد : ما عندك ؟ فقال : والله ما أحرم بالحج ، ولا أراد أيضاً أنه دخل
 في شهر حرام ، كما يقال أشهر وأعام إذا دخل في شهر أو عام . فقال الكسائي :
 ما هو إلا هذا ، وإلا فما المعنى للأحرام ؟ قال الأصمعي : فخبروني عن قول عدي
 ابن زيد :

قتلوا كسرى بابل محرماً فتولى لم يمتنع بكفن
 أي إحرام كسرى ؟ فقال الرشيد : فما المعنى ؟ قال : يريد أن عثمان
 بات شيئاً يوجب تحليل دمه ، فقال الرشيد : يا أصمعي ما تطاق في الشعر .
 ودخل عليه سهل بن هرون ، وهو يضاحك المأمون ، فقال : اللهم زده
 وابسط له في البركات ، حتى يكون كل يوم من أيامه موفياً على أمسه . مقصراً
 عن غده . فقال الرشيد : يا سهل من روى من الشعر أحسنه وأجوده ، ومن
 الحديث أصح وأبلغه ، ومن البيان أفصح وأوضحه ، إذا رام أن يقول لم
 يعجزه . . قال سهل : يا أمير المؤمنين ما ظننت أحداً تقدمني إلى هذا المعنى .
 فقال الرشيد : بل أعشى همدان حيث يقول :

وجدتلك أمس خير بني لؤي وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً كذلك تزيد سادة همد شمس

— ٥ —

ولم يكن المأمون بأقل من أبيه فهما للشعر ، وبصراً بالأدب ، وعناية بالأدباء
وإفساحاً لهم في مجالسه .

واقعد حضر بمجالسه مرة مروان بن أبي حفصة ، فأنشده :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً بالدين والناس بالدنيا مشاغلاً
فلم يهترب المأمون ، ولم يسغ ما قال الشاعر ، وأعرض عنه ، فقال مروان
لعمارة بن عتيق : أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر ؟ فقال عمارة : ومن ذا يكون
أعلم به منه ؟ والله ! إنا لنشده أول البيت ، فیسبقنا إلى آخره ، قال
مروان : إنه لم يتحرك لقولي . فقال عمارة : إنك والله ما صنعت
شيئاً ، وهل زدت على أن جملة عجزاً في محرابها ، وفي يدها مسابحها ! فمن
القائم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها وهو المطوق بها ؟ هلا قلت فيه كما قال عبدك
جرير في عبد العزيز بن مروان :

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

فقال مروان : الآن علمت أني أخطأت

وقال النضر بن شميل : دخلت على المأمون في سمرة ليلة ، فدار الحديث
على ذكر النساء ، فروى المأمون عن هشام حديث الرسول « إذا تزوج
الرجل المرأة لدينها وجهها كان فيها سداد — بفتح السين — من عوز »
قلت يا أمير المؤمنين : حدثنا عوف بن أبي جميلة عن الحسن عن علي كرم الله
وجهه عن رسول الله : إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجهها كان فيها سداد

- بكسر السين - من عوز . وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً ، وقال
يا نضر ، كيف قلت سداد بالكسر ؟ قلت نعم لأن السداد بالفتح لحن ، قال
أو تلمحنى . قلت : إنما لحن هشام فتبجح أمير المؤمنين لفظه ، قال : فما الفرق
بينهما ؟ قلت : السداد بالفتح القصد في الدين والسبيل ، وبالكسر البلفة
وكل ما سددت به شيئاً فهو سداد . قال : أو تعرف العرب ذلك ؟ قلت :
نعم : هذا المرجى يقول :

أضاعوني وأى قى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثمر
قال المأمون : قبح الله من لا أدب له ، ثم أمر لي بخمسين ألف درهم ودفع
لي الفضل بن سهل ثلاثين ألفاً ، فأخذت ثمانين ألفاً بحرف واحد .

— ٢٦ —

واجتمع الشعراء في مجلس المقصم فقال لهم : من كان منكم يحسن أن
يقول مثل قول منصور النيرى في الرشيد .

أحلك الله منها حيث تجتمع	خليفة الله إن الجود أودية
ومن وضعت من الأقوام متضع	إذا رفعت أمراً فالله رافعه
فليس بالصلوات الخمس ينفع	من لم يكن بأمين الله معصمه
أوضاق أمر ذكرناه فيسمع	إن أخلف القطر لم يخلف مخايله

فليقل ، فقال محمد بن وهيب الحميري : فينا من يقول خيراً منه ، وأنشد :

شمس الضحى وأو إسحق والقمر	ثلاثة تشرق الدنيا بهجتها
إذا تقطع عن إدراكها النظر	فالشمس تحكيه في الأشراف طالعته
إذا استنارت لياليه به الغرر	والبدر يحكيه في الظلماء منبجاً

فهش له وبالغ في جائزته .

وكذلك كان المتوكل في مجالسه ، والبحترى يصول فيها ويجول . ولقد
شهد أبو عنبس الصيمري بعض هذه المجالس ، فقال : كنت في مجلس المتوكل
والبحترى ينشده :

عن أي ثغر تبتسم وبأي طرف تحتم
حتى انتهى إلى قوله :

قل للخليفة جعفر الـ متوكل بن المعتصم
والجعدى بن المجعدى والمنعم بن المنعم
اسلم لدين نجد فإذا سلمت فقد سلم
وكان البحترى من أبغض الناس إنشاداً ، وأشدهم غروراً ، فضجر المتوكل
وقال لى : أما تسمع ما يقول يا صيمري ؟ قلت بلى ياسيدي ، فمرنى بما أحببت
قال بحياتي أهجه على هذا الروى ، فقلت :

أدخلت رأسك في الرحم وعلمت أنك تنهزم
يا بحرئى حذار ويد حاك من قضا قضية ضخم^(١)
فلقد أسأت بوالدي لك من الهجاسيل العرم
فبأي عرض تعقصم وبهتكه جف القلم
وبحق جعفر الأما م ابن الامام المعتصم
لأصيرنك شهرة بين المسيل إلى العلم

فجعل المتوكل يضحك ، ويصفق بيديه ، وخرج البحترى غاضباً .

(١) قضاية : جمع قضاض وهو الأسد . ضخم : جمع ضيخم وهو الأسد

ألفاظ الشعر وأساليبه

— ١ —

تغيرت الحياة العربية في هذا العصر الذهبي تغيراً ماهوساً يوشك أن يجلبها جديدة كل الجدة في جميع مظاهر العيش والاجتماع . فقد أظلت الحضارة الناس بظلالها وألوانها ، وغمرتهم المدنية بزخارفها وزينتها . حتى رأيناهم يتأنقون في اللباس ، ويفتقدون في الطعام ، ويخرفون في المكن ، ويصفون في كل مظهر .

فلم يعد مسكنهم بالخميمة التي ترفع عمدتها ، وتشد أطناها ، في رمال الصحراء المنبسطة ، وإنما هو غرف تزدان بالمناضد ، وتزركش بالسقائر ، وتجلى بالمرصعات ، وتتألق بالثريات . وبالقرب منها ، قصور الخلقة بستوفها المخلاة ، وحيطانها الموشاة ، وأرائكها الوثيرة ، وثرياتها الناصعة ، وأبهاها العامرة ولياليها الساهرة ، وقيامها المفردة .

ولم يعد طعامهم بالثريد أو الحيس ، وإنما هو ألوان وأنواع ، يتأنقون فيه فيطعمونه في صحاف الذهب والفضة ، ويخاطونه بماء الورد والكافور (١) كما يحملون أواني الشراب بالصور المنقوشة ، والحلى المزركشة ، على نحو ما يصف أبو نواس في قوله :

تدار علينا الراح في عسجدية حبثها بأنواع القصاوير فارس
وكذلك كان تأنقهم في الملابس حتى رأينا الرجال يلبسون الثياب المصبغة
بالوان الزهر كاللبس النساء والنساء يلبسها مطرزة موشاة ، وهذا ابن الرومي يشبه بها قوس قزح فيقول :

وقد نشرت أبدي الجنوب مطارفا على الجود كفا والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحمر في أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض
وكن يحلن الرؤوس بجلي من الذهب ، ويزينها بالمصناعات المنضدة ، ويحاكهن
الفارسيات في صبغ الشفاه والحدود .

هذه الحضارة الزاهية بألوانها ومظاهرها ، وما فيها من جمال وتجميل ،
وزخرف ووشى ، وصناعة وتصنيع ، قد انتقلت من الحياة العامة إلى الحياة
الفنية الخاصة ، كما يقول ابن خلدون : « وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة
الصنائع للقائف فيها حينئذ ، واستعجادة ما يطلب منها ، بحيث تتوفر دواعي
الترف والثروة » (١)

وهكذا تأثر الأدب بالمدينة والحضارة ، وكان الشعر دائما أكثر تأثرا ،
وأسرع استجابة للمدينة والمتحضر ، لأنه المجال للظرف والتأنق ، والمصور
للحسن والجمال ، والمخلق فوق الطبيعة بأجنحة الخيال ، والموضوع الأول
للحن والغناء . ولهذا :

١ — رقت ألفاظه وعذبت ، ولانت تراكيبه وسهلت ، حتى كاد كل
منهما يسيل رقة حاشية ، وأناقة مظهر ، وعذوبة مخرج ، وسهولة بيان . فهجرت
الكلمات الغريبة ، ووضعت الأساليب ، وأشرقت ديباجة الكلام :

قال البيهقي :

مخلف في الذي وعسى	سهل وهلا فلم يجبد
وهو بالحسن مستب	د وبالذل منفرد
يتشنى على قضيد	ب ويفسر عن برد

قد تطالبت مخرجا من هواه فلم أجده
ضاق صدرى بما أج ن وقلبي بما وجد
وتفضيت أن شکو ت جوى الحب والكمد
واشتكائى هواك ذنب فإني تعف لم أعده
وقال أبو تمام في وصف الروض :

إن الربيع أثر الزمان لو كان ذا روح وذا جثمان
مصوراً في صورة الانسان لكان بساما من الفتيان
بوركت من وقت ومن أوان فالأرض نشوى من ترى نشوان
تختال في مفوف الألوان في زهر كالحدق الرواني
من فاقع وناصع وقان عجبت من ذى فكرة يقظان
رأى جفون زهر الألوان فشك أن كل شيء فان
أست ترى أثر الحضارة في رقة اللفظ وصفائه ، وسماحة الأسلوب وبهائه ،
وسجاجة الكلام وإشراقه ؟

وقد اجتمع مسلم بن الوليد وأبو نواس وأبو الشيمس ودعبل في مجلس ، فقالوا
ليشد كل واحد منكم أجود ما قال ، فأشدهم أبو الشيمس :
وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك للذينة حباً لذكرك فلأيلني اللوم
فقال أبو نواس إنى أرى خطأ خسر وانياً مذهباً (١).

ويحدثنا ابن رشيق أن أبا المعاهية وأبا نواس والحسين بن الضحاك اجتمعوا

يوماً فقال أبو نواس : لينشد كل منكم قصيدة لنفسه في مراده ،
فأنشد أبو المعاهمية :

يا إخوتي إن الهوى قاتلي فيسروا الأَكفان من عاجل
ولا تأوموا في اتباع الهوى فاني في شغل شاغل
عيني على عقبة منهلة بدمعها المنسكب السائل

فسلم له أبو نواس وابن الضحاك ، وقالوا : أما مع سهولة هذه الألفاظ وملاحة
هذا القصيد ، وحسن هذه الإشارة ، فلا نندش شيئاً^(٢)

وهكذا لأن عيشهم فلانت ألغائهم ، وورقت شمائهم فرقت عباراتهم .

٢ — وكان من أثر هذه الحضارة الوارفة ، والمدنية المشرقة ، وما تزدان به
الحياة من قصور ورياض ، وملاعب حسان ، ومجالس هو وشهو ، أن خلا
أسلوب الشعر من الابتداء بذكر الأطلال وبكاء الديار ، وانصرف الشعراء
عن هذا النحو الذي يذكروهم بالبداوة ، إلى مظاهر الحضارة وبريقها .

ويبدو أن أول من كسر هذا القيد مطيع بن إلياس . ذكروا أنه اجتمع
بفتى من أهل الكوفة ، ودار الحديث بينهما في هذا الشأن ، فقال مطيع :
لأحسن من بيد يحاربها القطا ومن جبلى طى ووصفكما سلما
تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مقلة في وجه صاحبة ثرى
وجاء أبو نواس فراح يسخر من ذلك الأسلوب القديم كما في قوله :
قل لمن يمكى على رسم درس واقفناً ما ضر لو كان جلس
وقوله .

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وقوله :

تبكى على طلال الماضين من أسد لا در درك قل لى من بنو أسد
لا جف دمع الذى يبكى عل حجر ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

وقوله :

دع الرسم الذى دثرا يعانى الريح والمطرا
ألم تر ما بنى كسرى وسابور لمن غبرا

وقد كان لهذه الحلة أثرها فى الشعراء ، فكان منهم من استقيدت به
نشوة الراح ، وصرعته هميا الاقداح ، فاستهل قصائده بوصف الخمر . ومنهم
من هزه الجمال ، وأرقه طيف الخيال ، فابتدأها بالقلز ومنهم من بهره جمال
الحضارة ، وسحره بهاء الطبيعة . فراح يشدو بمحاسنها ، ويتغنى بشيهاوروائها ،
ويجعل ذلك استهلاكا قصيده . وفاتحة موضوعه

وإنا لنرى أبا تمام بمدح المعتصم ، فيقدم بين يدي هذا المدح وصف الربيع ،
ويمثل الدهر فى حواشيه الزاهية التى يتمايل فيها الثرى ، كروس تتثنى فى حليها ،
وتتكسر فى زينتها :

رقت حواشى الدهر فهى تمرمر وغدى الثرى فى حليها يتكسر
من كل زاهرة ترقرق بالندى فكأنها عين إليك تحدر
تبدو ويحجبها الجيم كأنها عذراء تبدو تارة وتخفر
حتى غدت وهداتها ونجادها فتثنى فى حلال الربيع تبخر

أرأيت إلى الشعر كيف جعلته الحضارة يختال فى وشيهاوزينتهاورقتها ؟
على أن هناك ظاهرة جديدة بدأت تظهر فى هذا العصر ، تلك هى أن
الشعراء أخذوا يعنون بمطالع القصائد ، ويقعدون لها سمعا آخر غير ذلك كله .

فجعلوا المطلع دالا على القصد من أول الأمر ، مشيراً إلى موضوع القصيدة
ابتداءً ، واختاروا له اللفظ المناسب للمقام رقة أو فخامة ، وسهولة أو جزالة .
ومن ذلك ابتداء أبي تمام في مدح المقتصد بعد فتح عمورية :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
وقوله في مطلع مرثية :

أصم بك الناعى وإن كان أسماً وأصبح معنى الجود بمدك بالمعما
وقوله :

كذا فليجل الخطاب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
وقد تبع ذلك احتفالهم بختام القصيدة ، فجعلوا البيت الأخير مؤذناً بالفراغ ،
مشيراً إلى الانتهاء . باشتماله على ما تسكن النفس إليه من دعاء أو حكمة أو
نحو ذلك .

٣ — وسرى زخرف الحضارة ووشيا ، وما فيها من تصنيع وتجميل إلى
الشعر ، فظهر الحسن البديع ، وشاعت ألوانه ، من جناس وطباق وتورية
ونحو ذلك .

وقد كان أول أمره ساذجاً واضحاً في شعر مسلم وأبي نواس والبحتري ؛
ثم غلا فيه أبو تمام وأوغل ، حتى غض من جمال شعره ، وما زال الشعراء
يلحون فيه ، ويقوسمون في فنونه ، حتى كان آخر من انتهى إليه الأبداع
فيه ابن المعتز .

وانظر إلى الجناس والطباق في شعر مسلم بن الوليد الذي يعد أول من
سعى هذه المحسنات بالبديع ، كما يعد أول شاعر ظهرت هذه الألوان بوضوح في
شعره . قال يمدح يزيد بن يزيد الشيباني :

يفشى الوغى وشهاب الموت في يده يرمى الفوارس والأبطال بالشعل

(يفتر) عند (افترار) الحرب (مبتسما) إذا (تغير) وجه الفارس البطل
 ووقف على (مهيج) في يوم ذى (رهج) كأنه (أجل) يسمى إلى (أمل)
 واقراً هذا الطباق الذى يعد أهم لون كان يستخدمه البحترى . إنه
 طباق لا تمقيد فيه ولا تكاف ، ولكنه بسيط ساذج ، أشبه ما يكون بقداعى
 المعانى ، لامتسقة فيه ولا صموبة :

منى وصل ومنك هجر وفى ذل وفيك كبر
 وما سواء إذا التقينا سهل على خسلة ووعر
 قد كنت حرّاً وأنت عبد فصرت عبداً وأنت حر
 أنت نعيمى وأنت يؤسى وقد يسوء الذى يسر

أما أبو تمام فقد كان لتأثره العميق بالفلسفة والثقافات الأجنبية ، يستخدم
 ألوان البديع استخدماً فلسفياً ، ويمزجها بالتصوير مزجاً غرباً حتى يكبد الذهن
 فى فهمه ، ويقع العقول فى إدراكه .

إنه يصف بهيمه وما أصابه من نحول وسقم لكثرة الأسفار فيقول :
 رعت به الفيا فى بهد ما كان حقبة رعاها وماء الروض ينهل ساكبه
 فلا تجد طباقاً عادياً بين رعته ورعاها ، إنه بهيم يرعى الفيا فى ونرشاه
 الفيا فى ، وهكذا يمزج بين الطباق والاستعارة والتصوير
 وعلى هذا النحو قوله :

وأحسن من نور تفتح به الصبا بياض المطايا فى سواد المطالب
 واقراً له فى المشاكاة :

أظن السمع فى خدى ســـــيبقى رسوماً من بكائى فى الرسوم
 وكذلك كان جناسه يقكى على التصوير ويلتف على التشبيه والاستعارة :
 تظل البطول الدمع فى كل موقف وتمثل بالصبر الديار المواتل

فقد سحبت فيها السحاب ذيلها وقد أخلت بالنور منها الحمايل
وكذلك (القديح) في مثل قوله :

كأن سواد الليل ثم اخضراره طيالة سود لها كفف خضر
وهكذا كان أبو تمام يغرب في المحسنات إغرابه في معانيه ، حتى إنها
لستنفذ منه جهداً شاقاً ، إذ يفرقها في استعاراته وتصويره ، فيجلها الغموض
ومن مطرف الجناس قول البحري :

فإن صدفت عنا فربت أنفس صواد إلى تلك الوجوه الصوادف
ومن مقلوبه قول العباس بن الأحنف :

حسامك فيه للأحباب فتج ورحمك فيه للأعداء حتف

— ٢ —

وكان للغناء - وهو من أظهر مظاهر هذه الحضارة - أثره في انتقاء ألفاظ
الشعر وجودة اختيارها ، وسهولة الأساليب ، وترقيق حاشية التراكيب
وكانت مجالسه بجانب مجالس الأدب ، أو مندجة فيها . وقد استعجاب
الشعراء للمغنين ، فنظموا لهم المقطوعات الصغيرة التي تناسبهم ، وتخبروا لهم
الألفاظ الرقيقة الرشيقة ، والأساليب السهلة الأنيقة ، والأوزان المستحدثة
القصيرة .

وكان من أثر ذلك أن نما الشعر الغنائي المذهب الرقيق ، واحتفل الشعراء
به ، وتسابقوا فيه ، وذهبوا في ترقيق معانيه ، وتهذيب أساليبه كل مذهب
حتى كان منهم من تخصص فيه ، كالعباس بن الأحنف ، الذي يقول عنه
صاحب الأغاني : « لولا أن العباس أحق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاماً
وخاطراً ما قدر أن يكثر شعره في مذهب واحد ويجوده » .

وقد أثر الغناء في أوزان الشعر لأن المغنين كانوا يدخلون في الغناء ألقانا

فارسية ورومية ، فاضطر الشعراء أن يجددوا في أوزانهم ، على النحو الذى سنتحدث عنه فيما بعد . كما يلاحظ أنهم تجنبوا كثيراً - فى شعرهم الغنائى - الأوزان الطويلة ، وقصروها على الأوزان القلبيدية الأخرى ، وأكثروا من البحور المجزوءة التى تلائم الغناء .

ويمكن أن نقول إن الغناء قد أثر فى الشعر بوجه عام ، غنائياً كان أو تقليدياً ، من حيث الموسيقى الداخلية ، التى تعنى اختيار الكلمات وترتيبها والمشاكاة بين أصواتها ومعانيها .

ومن الممكن اعتبار البحتري أبرع شاعر يصور هذا الجانب . قال الباقلانى : «إنه كان يتتبع الألفاظ وينقدها نقداً شديداً (١) ... وما يزال يتتبعها حتى يؤلف منها ألفاظاً عذبة ، كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات ، وقد تحلين بأصناف الحلى (٢)»

اقرأ له فى رثاء المتوكل ، وانظر كيف اختار ألفاظه جزلة ضخمة لأنه نائر غاضب ، كأن لها قعقة السلاح ؟ وكيف ربط التوافى بالهاء الساكنة ، فصوته ينطلق بالكلمات والمقاطع ، ثم ينخفض فجأة كالناطح القعب :

محمل على القاطول أخلق دائره	وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره
تغير حسن الجعفرى وأنسه	وقوض بادي الجعفرى وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءه	فعادت سواء دوره ومقابره
ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه	وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
وإذ صييح فيه بالرحيل فهتكت	على عجل أسقاره وسقاره

واقراء له :

لى حبيب قد لج فى الهجر جدا وأعاد الصمود منه وأبدى

يقابى منعاً ، وينعم إسماع
أعدي راضياً وقد بت غضباً
وبنفسى أفدى على كل حال
مربى خالياً فأطعم فى الوصل
وثنى خده إلى على خو
سیدی أنت ما تعرضت ظالماً
أترانى مستبدلاً بك ما عشت
حاش لله أنت أفن الحما
فأنت تراء قد استوفى كل ما يمكن من وسائل التفوق فى فن الصوت ،
فقد كرر الجليم فى الشطر الأول ، وكرر الدال فى الثانى ، فأحدث فى البيت
الأول توافقاً صوتياً ، وفى البيت الثانى يوفق بين الألفاظ ، فيأتى بكلمة
(يقابى) كأنها مشدودة إلى (ينعم) بهذا الرباط المحكم (منعاً) ، وعلى هذا
النحو فى شطره الثانى . وانظر إلى الطباق بين يدنو وبعده ووصلاً وصددا .
ثم انظر إلى إقبال كل كلمة على أختها فى البيت الثالث ، كأن الكلمات من أسرة
واحدة ، ثم إلى قوله : بنفسى أفدى وتشابكهما . وكذلك ما فى الأبيات من
طباق وتقسيم ومقابلة ، وما فى قوافيها من إحكام القرار ، واتحاد عدد الحروف
والسكنات والحركات ، مما يسميه البديعيون بالقطرير . وهكذا تجد الجوانب
الموسيقية المتعددة (١)

ولقد اختلط العرب بغيرهم من العناصر الأجنبية على نحو ما درسناه فيما
سبق ، ولهذا العناصر ثقافات ولغات وألفاظاً وإطلاحات علومها وفلسفاتها ،

(١) راجع الفن ومناقشه فى الشعر العربى لشوق ضيف ٤٦

وكان لهذا الامتزاج أثره في ألفاظ الشعر إلى جانب آثاره في نواحيه
الأخرى . فقد شاعت في الشعر ألفاظ فارسية بقيت على حالها أو عربت وصقلت
وربما كان بقاؤها على حالها للتخالف والتفكك ، على نحو ما كان يصنع الأعشى
وغيره من قدامى الشعراء .
يقول أبو نواس :

خبز إسماعيل كالوشح سى إذا ماشق يرفى
إن رفاك هذا أحق الأمة كفا
فإذا قابل بالنص ف من (الجردق) نصفا
أحذق الصنعة حق لا ترى مغرز إشفى (١)

ويقول إبراهيم الموصلي :

إذا ما كنت يوما في شجائها فتل للعبد يسقى القوم (يرا) (٢)

ويقول العمانى فى وصف من وقف بين الأسود :

لما هوى بين غياض الأسد وصار فى كف الهزبر الورد
آلى يذوق الدهر آب سرد (٣)

أما ما صقلوه وعربوه فكثير : كلفظ آذريون معرب آذر كون ، أى لون
النار ، ويطلقونه على ورد أحمر الورق مع سواد الوسط أو اصفراره ، يقول
ابن الممتز :

عيون آذريونها للشمس فيه كالية
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

وكذلك نيروز معرب نوروز ، ونحو ذلك .

(١) الجردق الرغيف معرب كردة : والأشقى الممتزج
(٢) الير لفظ فارسي معناه ملائمه وهو بتشديد الراء
(٣) آب سرد : هو الماء البارد

كما شاعت في ألفاظ الشعر كذلك الاصطلاحات العلمية التي كانت تجري على الألسنة في العلوم الكلامية والفلسفية والكيميائية والهندسية ونحو ذلك . قال أبو نواس :

وذا ت خد هورد قوهية المتجرد

تأمل العين منها محاسنا ليس تنفذ

فبعضها قد (تناهى) وبعضها (يتجدد)

ويقول أبو تمام في الخمر :

خرقاء يلعب بالعقول حبايبها كتلاعب الأفعال بالآسماء

ويقول :

هب من له شيء يريد حجابيه ما بال لا شيء عليه حجاب

فمهر عن العدم بكلمة (لا شيء) الفلسفية .

ويقول :

صاغهم ذوالجلال من (جوهر) المج يد وصاغ الأنام من (عرضه)

كما يقول :

لن ينال العلا (خصوصاً) من الفقيه يان من لم يكن نداه (عموماً)

ويقول غيره :

محاسنه (هيولى) كل حسن ومغناطيس أفئدة الرجال (١)

وعلى هذا النحو سار الشعراء بعدهم في الاقتباس من المصطلحات،

حتى رأينا المقلبي يقول :

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعا مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم

والخلاصة أن عوامل الحضارة والفناء والامتزاج ، أثرت تأثيرها في لفظ الشعر وأسلوبه ، بما طرأ عليهما من رقة اللفظ ، وعدوثة الكلام ، وسجاجة التركيب ، وسهولة الأسلوب ، وإشراق الديباجة ، وجمال الاستعارة ، ولطف التشبيه ، واستحداث البديع والاكثار منه ، والاكثار من النظم في البحور القصيرة ، وابتداع أوزان جديدة ، واستعمال الألفاظ والمصطلحات الأجنبية ، والعناية بمطالع القصائد وختامها ، والحرص على التناسب بين أجزاء القصيدة .

قال الخاتمي : « مثل القصيدة مثل الانسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمضى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب ، غادر الجسم ذاهبة تتخون محاسنه ، وتخفي معالمه ، وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناعات من المحدثين ، يحترسون في مثل هذه الحال حتى يقع الاتصال ، وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة . . . وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ولطف أفكارهم . . . »

أما الذي هجر فهو اللفظ الخشن ، والكلمة الغريبة ، والتركيب المتوعر ، والاستهلال بذكر الأطلال .

الأوزان والقوافي

وتتصل بألفاظ الشعر وأساليبه أوزانه وقوافيه ، وقد قلنا إن الفناء حمل الشعراء على متابعة المغنين بتحرى الأوزان الملائمة للأطمان ، وابتداع أوزان أخرى تسائر فنون الموسيقى والفناء .

ولقد أرجع الخليل أوزان العرب إلى خمسة عشر بحراً ، وجعلها تلميذه الأخفش ستة عشر بإضافة المقدار .

وقد راح الشعراء العباسيون يروجون الأوزان القديمة التي تناسب الفناء :

كالمقارب والهزج والرمل والخفيف ونحو ذلك ، فإذا ألما بالبحر الطويلة
نوعوا فيها أو جزؤوها .

ولم يكتفوا بذلك ، بل أخذوا يخترعون أوزانا أوحى بها مزاجهم ، أو
دعا إليها فن الغناء . فاسلم بن الوليد قصيدة مطلعها :

يا أيها المعمود قد شفك الصبود

فأنت مستبهم حالفك السهود

وأخرى مطلعها :

نبا به الوساد وامتنع الرقاد

وصنع سلم الخاسر أرجوزة يمدح بها موسى الهادي على جزء واحد :

موسى المطر غيث بكر عدل السير باقى الأثر

وهكذا ، ويقول ابن رشيق إنه أول من ابتدع ذلك فى الرجز

وكان أبو العتاهية مشغوظا باستحداث هذه الأوزان . كان عند قصاب

يوما فسمع صوت مدقه ، فحكى ذلك فى ألفاظ شعره :

للهون دائرا ت يدن صرفها

ثم ينقمننا واحدا فواحدا

ولما روجع فى هذا قال أنا أكبر من العروض .

وهو الذى يقول :

عقب ما للخيال خبرينى ومالى

لا أراه أتانى زائرا مذ لىالى

ومن العجيب أن يزعم أبو العلاء أنهم استحدثوا فى هذا العصر المقتضب

والمضارع ، وأن الخليل قد سجلهما وليس لهما أصل فى الشعر العربى (١)

مثال المقتضب قول أبي نواس :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب

ومثال المضارع قول أبي العتاهية :

أيا عقب ما يضر لأن تطاقي صفادي

أما ما استحدثوه من الأوزان العامة ، فبعضه استنبطوه من دوائر البحور المعروفة ، وبعضه جاء على أوزان جديدة .

— ١ —

فالنوع الأول :

١ — المسقطيل ، وهو مقارب الطويل (مفاعيلان فعولان مفاعيلان فعولان)

مرتين :

لقد هاج اشتياقي غريب الطرف أحور أدير الصدى منه على مسك وعنبر

٢ — الممتد ، مقارب المديد (فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن) مرتين :

صاد قلبي غزال أحور ذو دلال كلما زدت حبها زاد مني نفورا

٣ — المتوافر ، محرف الرمل (فاعلاتك فاعلاتك فاعلن) مرتين :

ما وقوفك بالركائب في الطلل ما سؤالك عن حبيبك قد رحل

٤ — الممتد ، مقلوب المجث (فاعلاتن فاعلاتن مستفعان) مرتين :

كن لأخلاقqvصابي مستمريا ولاحوال الشباب مستحليما

٥ — المنسرد ، مقلوب المضارع (مفاعيلان مفاعيلان فاعلاتن) مرتين :

على العقل فعول في كل شأن ودان كل من شئت أن تداني

٦ — المطرد ، صورة أخرى من المضارع (فاعلاتن مفاعيلان مفاعيلان)

مرتين :

ما على مستهام ريع بالصد فاشتكى ثم أبكاني من الوجد

أما النوع الثاني ، فهذه ألوانه :

١ — السلسلة (فعلان فعلاثن متفعلمان فعلاثنان) وهو من اختراعات

البغداديين :

السحر بعينيك ما تحرك أو جال إلا ورماني من الغرام بأوجال

٢ — الدوبيت ، وهو مأخوذ من الفارسية بدليل اسمه لأن (دو) بالفارسية

معناها اثنان . وسمى بذلك لأنه ينظم بيتين بيتين ، ووزنه (فعلان متفعلمان

فعولان فعلان)

قد أقسم من أحبه بالباري أن يبعث طيفه مع الأسحار

يانار أشواقى به فأتقدى ليلا فمساء يهتدى بالنار

٣ — القوما وقد اخترعه البغداديون الذين كانوا يوقظون الناس للسحور

في رمضان ، ولعله مأخوذ من قولهم (قوما نسحر قوما) ، ووزنه (مستفعلمان

فعلان) ، ولغته ملحونة ، ومنه قول بعضهم :

يا من جنابه شديد ولطف رأيه شديد

ما زال برك يزيد على أقل العبيد

ولا عدمننا نوالك في صوم وفطر وعيد

٤ — المواليا ، وهو فن لا تراعى فيه قوانين العربية دائماً وهو على وزن

البحر البسيط ، وأول من نظمه بعض صنائع البرامكة بعد أن نكبهم الرشيد

وأمر ألا يرثوا بالشعر ، فرثهم جارية بهذا الوزن ، وأخذ صنائعهم ينوحدون

عليهم به ، ويكثرون من قولهم (ياموالى) فعرف بهذا الاسم ، وهو مشهور

بين عامة مصر بالموال . وهو على أنواع ، فقد يجي مصر عاكه ، وقد يختلف

مصرع منه ، وقد يخالف بين مصاريعه ، على ما نراه في المواويل البلدية .
 يا عبد ابكى على فعل المعاصي ونوح هم فين جدودك أبوك آدم وبمده نوح
 دنيا غرورة تجي لك في صفة مركب ترمي حولها على شط البحور وتروح
 ٥ — كان وكان ، وهو من اختراع البغداديين لنظم الحكايات والخرافات ،
 ثم استعمل فيما بعد للنصيحة والوعظ بحكاية ما كان وكان :

قم يا مقصر تضرع قبل أن يقولوا كان وكان
 لابر تجرى الجوارى في البحر كالاعلام

٦ — أما الموشح فهو أندلسي النشأة ، أول من ابتدعه هناك مقدم بن معافر من
 شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني في أواخر القرن الثالث ، ثم انتقل إلى
 المشرق بعد ذلك ، فهو إذن ليس من مستحدثات عصرنا الذي ندرسه . وهم
 ينظمونه أسماطاً أسماطاً ، وأغصانا أغصانا ، يكثرون منها ومن أعاريضها
 المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتاً ، ويلتزمون قوافي تلك الأغصان وأوزانها
 متتالية فيما بعد إلى آخر القطعة ، وأكثر ما تنتهي إلى سبعة أبيات^(١) وأوزانه
 كثيرة ، منها (مستفعلن فاعلن فاعلن) :

يا جيرة الأبرق اليماني هل لي إلى وصلكم سبيل

ومنها (فاعلاتن فاعلن مستفعل فاعلن) :

كلى ياسحب تيجسان الربا بالخلي

واجعلى سوارك منعطف الجدول

٧ — وكذلك الزجل ليس من مخترعات هذا العصر ، فإنه نشأ بعد
 نضج الموشحات ؛ إذ أخذ أهل الأمصار ينسجون على منوالها بلغتهم الحضرية
 من غير التزام إعراب ، وسموا هذا النوع الزجل ، وأول من أبدع فيه ابن قزمان

الأنديسي ؛ ولا حصر لأوزانه ، حتى قيل : صاحب ألف وزن ليس بزجال :
 الفراق نار والوصال جنة والخلال يق بعضهم يعشق
 ولهبب الهجر يتوقد والوصال م الملاح يشق

— ٣ —

ولقد تبع بعض هذه الأوزان — كما رأينا — تغيير طراً على القافية فلم تعد
 تلتزم كما كان معروفاً من قبل ، بل دعاهم الافلات من قيود الوزن ، إلى
 الافلات كذلك من قيود القافية .

على أن من أظهر ما طرأ على القافية هو المسمط والمزدوج والخمس .

١ — فالمسمط أن يقدمى الشاعر بيت مصرع ثم يأتي بأربعة أقسمة على
 غير قافيته ، ثم يعيد قسماً على قافية البيت الأول ، وهكذا . وربما خلا من البيت
 المصراع وكان على أقل من أربعة أقسمة . ومنه :

غزال هاج لى شجنًا فبت مكابداً حزناً عميد القلب مرتيناً
 بذكر الله والطرب

سبقتنى ظبية عطل كأن رضاها عسل ينوء بخصرها كفل
 ثقيل روادف الحقب

٢ — والمزدوج يتألف من شطرين من قافية ، ثم من آخرين من أخرى ،
 وهكذا ، كقول أبي العتاهية :

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
 الفقر فيما جاوز الكفا من اتقى الله رجا وخافا
 ما انتفع المرء بمثل عقله وخير فخر المرء حسن فعله
 ما زالت الدنيا لنا دار أذى ممزوجة الصفو بأنواع القذى
 إن الشباب حجة التصابي روائح الجنة في الشباب

وهذه المزدوجة لأبي العتاهية تسمى ذات الأمثال، وله فيها أربعة آلاف مثل
 ٣ — والخمسة أن يؤتى بخمسة أقسام كلها من وزن واحد ، وخامسة
 قافية مخالفة للأربعة قبله ، ثم بخمسة أخرى من الوزن دون القافية للأربعة
 الأولى ، ويتحد القسم الخامس مع خامس الأولى في القافية :

ورقيب يردد اللاحظ ردا ليس برضى سوى ازىدى بعدا
 ساحر الطرف مذجنى الخد وردا إن يوما لناظري قد تبدى
 فتملا من حسنه تسكحيملا

وتصدى من فحشه فى استباق يمنع اللاحظ من جنى واعتناق
 أياس العين من لحاظ اعتناق قال جفنى لصنوه لا تلاقى
 إن بينى وبين لقمك ميلا

معاني الشعر وأخيلته

— ١ —

وجد الشعراء في مختلف مظاهر الحضارة المادية ، مادة لا تنقطع ، ومدداً لا ينفد ، وذخراً لا ينضب ، ومعيناً لا ينضب . فتنوعت معانيهم ، واتسعت أفكارهم ، وانفسح مجال أخيلتهم ، وجادت تشبيهاتهم واستعاراتهم . ولا بدع فهم يعيشون في مدن تحفل بمظاهر الآبهة والترف ، وتعمر بفنون البهجة والبذخ ، وتزخر بمختلف المشاهد والصور ، وتكتظ بمجالي الطرب والسمر ، وتشرق بمفاني اللهو والغزل والمجون .. ذلك إلى طبيعة جميلة مزدهرة الرياض ، مفرقة الجداول ، هاتفة الأطيوار ، عاطرة الأجواء .

هذه الحضارة المادية خليقة بأن تفق أحكام القريحة ، وتفجر ينبوع الشاعرية ؛ عسمة أن تفتح مغالق الفكر ، وتفسح مجال الخيال ؛ جديدة بأن تذكى الإحساس بالحياة ، وتنمى الشعور بالجمال .. وإنما تستمد التشبيهات من المشاهد ، وتجدد بتعدد المناظر ، وتعدد بتعدد الصور ، وإنما يخلق الخيال حين يتهيأ له الأفق الرحب ؛ وينطلق حيث يغريه الفضاء الفسيح الجميل .

اقرأ أثر الحضارة في التشبيه والخيال عند البحري وهو يصف الحسان :

لما مشين بذى الأراك تشابهت	أعطاف قضبان به وقد
في حلقى حير وروض فالتقى	وشيمان وشى ربا ووثنى برود
وسفرن فامقلأت عيون راقها	وردان ورد جنى وورد خدود

وضحك فاعترف الاقحى من ندى غرض وسلسال الرضاب برود (١)
واقراً وصف أبي نواس للعب بالصولجان والكرة :

جن على جن وإن كانوا بشر كأنما خيطوا عليها بالأبر
أو سحر الفارس فيها فانسمر بين رياض مثل موشى الحبر
مكالات بهار وزهر فانقدبوا في يوم قر وخصر (٢)
إذ ذر قرن الشمس في غب مطر صوالجا يصبو إليها من نظر
فلم يعب طول ولا شان قصر وقد تنادوا فتراموا بالأكر
أحكمها صانها لما فطر أطف بالاشفاء خرزاً إذ دسر (٣)
فليس للاشفاء بالجلد أثر يحسبن تفاحا تدلى من شجر
وأبو نواس هو الذى ألبس الدمن ثوب الحضارة فقال :

لمن دمن تزداد حسن رسوم على طول ما أقوت وطيب نسيم
تجافى البلى عنهن حتى كأنما لبسن على الأقواء ثوب نعيم
ولقد كان القدماء يشبهون الحلم بالجبال ويزنونه بها :
أحلامنا تزن الجبال رزاة وتخالنا جنا إذا ما نجهل

ولكن المتحضر غير البدوى ، والحلم فى بغداد وفى القرن الثالث الهجرى
غير الحلم فى البصرة وفى القرن الأول ، فالحلم الحضرى هو الذى يبتسم لكبار
الحوادث ، ويتمحدث عنها حديثاً يفيض رقة وظرفاً ، حتى كأنه برد رقيق
الحواشى ، كهذا البرد الذى استعماره أبو تمام المتحضر للحلم الحضرى ،
حيث يقول :

(١) أى لما ضحك ظهرت أسنانه كالأقحوان وقد امتلأ بالندى ، ندى الأسنان وريقها

(٢) القر : البرد . وكذا الحمر

(٣) فطر : شق . الاشفاء عطرز يشق به . ودسر : ثقب وطعن .

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفئك ما ماريت في أنه برد (١)
وهكذا تعمل الحضارة المادية عملها في تنوع التشبيه ، وتعدد الاستعارة ،
وتجديد المعنى واختراعه ، وسمو الخيال وإبداعه .

أما الحضارة العقلية التي أتيحت للشعراء العباسيين ، والتي كانت نتيجة
الاختلاط والامتزاج ، والتأثر بمختلف الثقافات . فقد أثرت أثرها البالغ في
معاني الشعر وأخيلته ، إذا كتبها ما امتازت به العقليات الأجنبية من عمق
التفكير ، وبراعة التحليل ، وكثرة الاستطراد ، واستيعاب المعاني ، وترتيب
الأفكار . وظهر أثر اللقاح واضحاً جلياً فيها ، من حيث الدقة والعمق ،
والتحليل والتفصيل ، والابتكار والتجديد ، والترتيب والتنسيق ، والتأثر
بالمناطق وأقيسته ، والفلسفة وآرائها .

وهكذا جددت الحضارة المادية والعقلية من الشعر ، فأمدته بالخيال الخصب ،
والفكر العميق ، والمعنى الدقيق ، ولونته بألوان زاهية كثيرة من التشبيه
والاستعارة ، وصبغته بأصباغ طريفة جديدة من الثقافة والفلسفة ، ومزجته
بحكمة الهند وأدب الفرس وتأمل اليونان .

ولهذا جاء الشعراء العباسيون بالمرقص المطرب ، الذي يهز المشاعر ، ويطير
بالقلوب . حتى قال أبو الفتح عثمان بن جني : المولدون يستشهدونهم في المعاني
كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ .

فإن كان المتقدمون قد استقلوا بصحة الأداء ومقانة التعبير وحجة القول ،
فإن المتحدثين فضل المعنى الجميد ، والخيال الخلق ، والفكر المتسق .

— ٢ —

ويجمل بنا أن ندرس بشيء من التفصيل أهم ما طرأ على معاني الشعر

(١) راجع ما كتبه الدكتور طه حسين في كتابه (من حديث الشعر والنثر)

وأخيلته ، من مظاهر التأثير بهذه الحضارة

التعجب يرمي في المعاني القمرية :

تناول الشعراء المباسميون معاني السابقين ، فتصرفوا فيها بما توحى به بيئتهم وحضارتهم ، وما يمليه تفكيرهم وثقافتهم ، وحوروا فيها بالزيادة والنقص ، والايجاز والأطناب والابهال والتفصيل والتوليد والتحليل والدقة والاستدراك ، حتى صبغوها بصبغتهم ، وألبسوها ثوب الجملة والطرافة ، فبدت جديدة كأنها من صنعهم ، طريفة كأنها من اختراعهم ، وبهذا سبقوا الأولين ، وبذوهم في مضمار التنافس والسباق :

يصف النابغة قدرة النعمان ، وبين أنه لا منجى منه ولا عاصم ، فيقول :
فأنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
فيجد الشاعر العباسي أن الليل والنهار يتساويان فيما يدركان ، وأنه كان ينبغي أن يأتي النابغة بما لا قسم له ، حتى يأتي بمعنى مفرد ، وهكذا يقول سلم الخراسي :

فأنت كالدهر مبهوثاً حبائله والذهر لا ملجأ منه ولا هرب
ولو ملكك عنان الريح أصرفها في كل ناحية ما فأنك الطالب
ويقول البحتري :

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن ينجيهم من خوف بأسك مهرب
وكان الفرزدق يقول في ناقته :

علام تلفتين وأنت تحقي وخير الناس كلهمو أمامي
متى تأتي الرصافة تستريحني من الانساع والدبر الدوامي^(١)

(١) الانساع : جمع نسع وهو سير يشد به الرجل . والدبر بفتحين : قرح الدابة

فيجعل جزاءها على باوغي الممدوح أن يريحها من الأنساع والدبر ، أما أبو نواس فإنه يسخو في الجزاء سروراً بلبقاء الممدوح ، فيطلق راحلته ، ويحرم ظهرها على الركاب ، ويخلع على المعنى بعد ذلك رداء رقيقاً شفافاً من اللفظ والأسلوب :

وإذا المولى بنا بلفن عمداً فظهورهن على الرجال حرام
وكان الشعراء من قديم يصفون مدوحهم بالبأس والظفر في القتال ، ويتخيّلون أن الطير قد ألفت ظفرهم حتى إنها لتتبعهم في كل غزاة ، وتحلق فوقهم في كل ميدان ، ثقة منها بأنها ستعدو معهم خصاصاً وتروح بطاناً من لحوم الأعداء ، قال الألفه الأودي :

وترى الطير على آثارنا رأى عين ثقة أن سمار
وقال النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيـه— إذا ما التقى الجمعان أول غالب
فقال أبو نواس :

تقأي الطير غزوته ثقة بالشبع من جزره (١)
فكان في إيجازه أبلغ مدحاً وأدق معنى . إذ صرح بأن شبعها سيكون من لحم أعدائه بقوله (من جزره) . ثم إنه لم يكتف بتخليقها وقت الغزوة ، بل جعلها تقايب الغزو وتتبعه .

أما مسلم بن الوليد فإنه جعل ممدوحه يعود الطير الشبع ، إنها لتتبعه في كل رحلة ولو لم تكن رحلة حرب :

(١) تقأي : تنتظر . الجزر بالتحريك اللحم أو قطعه .

قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه في كل مرجل

ويجىء أبو تمام فيفضل هذا التفصيل :

وقد ظلمات عقبان أعلامه ضحى بعقبان طير في الدماء نواهل

أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاتل

فيجعلها تنهل في الدماء ، وتقيم مع الرايات ، وإن لم تقاتل ، وهذه زيادات

لا بد أن تقع في ذهن شاعر كأبي تمام يحلل ويستوعب .

وكان جرير يقول :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

فقال أبو نواس :

ليس على الله يستنكر أن يجمع العالم في واحد

فجعل ممدوحه الفرد العالم كله ، على حين جعل جرير القبيلة هي الناس كلهم ؛

على أن العالم أشمل وأعم من الناس ، وهكذا يكون بيت أبي نواس أبلغ وأعم

وأبعد في المبالغة ، إلى أنه سيق مساق الحكم والكلمات الجامعة .

ولقد قال المفضل بن غيلان قديماً .

ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء في جانب الفقر

فخاء أبو تمام وقال :

يصد عن الدنيا إذا عن سؤدد ولو برزت في رى عذراء ناهد

فزاد في تصوير الدنيا وإغراء الغنى قوله : « ولو برزت . . . » فجدد

بذلك المعنى ، حتى كاد يستبد به .

وهكذا تحس بجدة القديم ، وطرافة التقليد ، وتشعر بحسن تصرف

العباسيين في المعاني القديمة ، حتى ليكادون يستقلون بها ، ويستبدون بنسبتها .

٢ — ابتكار المعاني ورفعتها :

أما المعاني الجديدة التي ابتكروها ابتكاراً ، واستنبطوها استنباطاً ، وخلقوها خلقاً ، فإنها تهي الحصر ، وتغزو العد . ولا بدع فقد كثرت بكثرة المشاهدات ، وتمددت بتمدد المناظر ، وتنوعت بتنوع الحضارة ، وتلونت بألوان الثقافة . فكل ما جد في حياة الشعراء من طبيعة متبرجة ، وحضارة زاهرة ، ومدنية وارفة ، وعادات طارئة ، ألهمهم جديد المعنى ، ومبتكر الخيال ، وكل ما وقع في أفكارهم من ثقافة وحكمة وفلسفة أكسبهم استقصاء المعاني في دقة وعمق تفكير . ولهذا زخر شعرهم وامتلاء أدبهم بكل جديد دقيق .

ألا ترى أبا تمام كيف يجعل عطايا الممدوح في حاجة إلى تعويذة ؟ وما تعويذتها ؟ إنها نعمة الطالب ، وسؤال السائل :

تكاد عطاياي يجن جنونها إذا لم يعوذها بنعمة طالب

وهل كنت تسمع بعشق الأذن قبل بشار ؟ :

يا قوم أذني لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا بمن لا ترى تهدي فقلت لهم الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وما رأيك في هذا التشبيه الجديد : أبو نواس يمدح الخمر ولا يشربها خوفاً

من الخليفة ، كتمدى الخوارج ، يحرض على الخروج ولا يحمل السلاح ؟

فكأنى بما أزين منها قعدى يزين المحكميا

كل عن حملة السلاح إلى الحر ب فأوصى المطيق ألا يقبأ

ويقول أبو تمام في فضل الحاسد على المحسود :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتغال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
ويصف أبو نواس كؤوس الصهباء ، فيبعث النشوة في نفوس سامعيه :
في كؤوس كأنهم نجوم دوائر بروجها أيدينا
طالعات مع السقاة علينا فإذا ما غربن يغربن فينا
وهذا مسلم بن الوليد يستحسن إساءة الواشي ، فيأتي بحديد ، ويغرب
في القف-كبير :

يا واشياً حسنت فينا إساءته نجى حذارك إنسانى من الفرق
ولا غرو فهو صاحب المعنى الدقيق والفكر الطريف ، أليس هو القائل
أما الهجاء فدق عرضك دونه والمدح عنك كما علمت جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك إنه عرض عززت به وأنت ذليل
وأخيراً يقول ابن الرومي :

نظرت فأقصدت الفؤاد بلحظها ثم انثنت عنه فنال بهم
فالموت إن نظرت وإن هي أعرضت وقع السهام ونزعهن ألبم

٣ — استقصاء المعانى وتحليلها:

ويقتضيه هذه الدقة في معانى الشعر العباسى ، تحليل المعنى وشرحه
وتفصيله ، واستقصاء كل ما يقتضيه به ، واستيفاء عناصره وألوانه وظلاله ، حتى
كان هذا الاستقصاء يضطر الشعراء إلى الاستطراد . ومن هنا طالت أنفاسهم
في القصائد طويلاً يلفت النظر ، ويدعو إلى العجب . وليس ذلك إلا من أثر
الثقافة والفلسفة واتساع الأفكار ، وتتابع المعانى بتتابع الصور والمشاهدات .
لقد مرت بنا — وسقانى — أمثلة ، استوفى الشاعر فيها المعنى بتحليله

واستيفاء عناصره . وهذا مثل لإسحاق بن إبراهيم الموصلي ، يتجلى فيه المعنى
الجديد الدقيق المفصل :

أخاف عليها المين من طول وصلها فأهجرها الشهرين خوفاً من الهجر
وما كان هجراني لها عن ملامة ولكنني أملت عاقبة الصبر
أفكر في قلبي بأي عقوبة أعاقبه فيها لترضى فما أدرى
سوى هجرها والهجر فيه دماره فعاقبته فيها من الهجر بالهجر
فكنت كن خاف الندى أن يبله فماد من الميزاب والقطر بالبحر
وكان يكفي أبا تمام أن يكذب المنجمين الذين قالوا إن المعتصم لا يفتح
عمورية ، فيقول : إن السيف أصدق من الكتب والمنجمين ، ولكنه أخذ
يشرح ويحلل على هذا النحو :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب
وهكذا كانوا يشبهون المعنى ، ويحللونه ويفصلونه ، ويحققون له بالبراهين
والأدلة ، ويعرضونه في صور مختلفة ، ومعارض متعددة ، ويقلبونه على كل وجه
ويسلكون به كل سبيل . وذلك كله بفضل ما أمدتهم به الفلسفة والعلوم العقلية
من قدرة على التفسير والتحليل ، وما أسعقتهم به الحضارة من وفرة المعاني والأفكار
وما زالت هذه الظاهرة تشيع وتوسع حتى بلغت نهايتها — وقد تم التأثر
بالثقافة والحضارة — في أواخر هذا العصر . فرأينا قصائد الشعراء تطول
طولا عجيبا ، بسبب هذا التحليل والتفصيل ، وإشباع المعاني بالأدلة ، وعرضها
في مختلف الصور . وحسبك أن تقرأ قصائد ابن الرومي ترى كيف استقرت
هذه الظاهرة في شعره .

إن المجال لا يتسع لاستظهار طول نفسه في القصيد ، ولكيف سنكتفي بمثال
 يتجلى فيه تحليل المعنى وشرحه والاحتجاج له .
 قال يحسن الحقد ويزكيه :

لئن كنت في حفظي لما أنا مودع	من الخير والشر انتحيت على عرضي
لما عبتني إلا بفضـل إبانة	ورب امرئ يزري على خلق محض
ولا عيب أن تجرى القروض بمثلها	بل العيب أن تدان ديناً ولا تقضى
وخير سمجات الرجال سـجـية	توفيك ما تسدى من القرض بالقرض
إذا الأرض أدت ربيع ما أنت زارع	من البذر فيها فهي ناهيك من أرض
ولولا الحقود المستكنات لم يكن	لينقض وتراً آخر الدهر ذو نقض
وما الحقد إلا توأم الشكر في القتي	وبعض السجايا ينتهين إلى بعض
فحيث ترى حقداً على ذى إساءة	فثم ترى شكراً على حسن القرض

٤ — قوة التصوير وبعد الخيال :

وقد وجد الشعراء في الحضارة المادية يندوعاً نجاحاً للصور ، وأفقاً فسيحاً
 للخيال ، وأعانهم الحضارة العقلية بأفكارها العميقة ، وخيالاتها المبدعة ،
 وتصاويرها الفنية ، على أن يأتوا بكل عجيب يهرير براءة الوصف ، ويسبحر
 بروعة التصوير ، ويطير بالألأباب في مطارح الخيال .

يقول بشار في وصف الجيش والقتال وهو أعشى :

وجيش كجنح الليل يزحف بالخصى	وبالشوك والخطى حمر ثعالبه (١)
غدونا له والشمس في خدر أمها	تطالعنا والطل لم يجر ذائبه

(١) الخصى : العدد الكثير : الشوك جمع شوكة ، السلاح ، الخطى : الرمح العباب
 طرف الرمح .

بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه وتذكر من نحي الفرار مثالبه
 كأن مثار النقم فوق رموسنا وأضيافنا ليل تهاوى كواكبه
 واقرأ هذه الصورة الرائعة للهيبة من جلال الممدوح، التي صورها البحترى
 فاستوفى كل عناصر الاجلال والجلال، وجمع كل ألوان العظمة والمجد، إذ صور
 الحجاب يقومون على سدة الممدوح، فلا يدخلون أحداً إلا بأذن، فلما أذن له
 ودخل، لم يدر كيف دخل، لما طالع من هيبة، وغمره من جلال، فاعتد
 لسانه، وبهر جنانه، ولم ينطقه إلا ما آنسه من بشاشة الممدوح، وتهال أساريره،
 وحينئذ دنا فقبل يده، بل قبل الندى في يده، بل في يد امرئ كريم محياه،
 سباط أنامله :

ولما حضرنا سدة الأذن أخرت رجال عن الباب الذي أناداه
 فأفضيت من قرب إلى ذى مهابة أقابل بدر التم حين أقابله
 وسلمت فاعتاقت جناني هيبة تنازعني القول الذي أنا قائله
 فلما تأملت الطلاقة وانثى إلى ببشر آنستني مخايله
 دنوت فقبلت الندى في يد امرئ كريم محياه سباط أنامله
 وسنقرأ كثيراً من وصف البحترى الذي تعجل فيه البراعة وروعة التصوير
 فلنرجع إلى بشار انرى تصويره لفؤاد المضطرب وعين الساهر :

كأن فؤاده كرة ترمى حذار البين لو نفع الحذار
 يروعه السرار بكل شيء مخافة أن يكون به السرار
 جفت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار
 ونترك هذه الصور الواضحة مع ما فيها من براعة الوصف، وسمو الخيال،
 ونترود منها بوصف البحترى لؤلؤ الثغر ولؤلؤ الحديث :

ولما التقينا واللاوى موعد لنا تعجب رائى الدر حسنا ولا قطعه

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

إلى أبى تمام حيث يمثل مذهب الفموض فى الصور ، والاغراق فى التصوير ، والشروذ فى الخيال ، وحيث تطالعنا فى شعره تلك الاشباح المتجهمة والصور القائمة ، على ما فيها من سحر تصوير ، وتهيويل خيال .

ولا بدع فأبو تمام يتنفس الدم فى معانيه ، لأنه غرق فى الفلسفة إلى أذنيه وكان أكثر الشعراء تأثراً بها . ولئن كان الباحثرى قد تعلمت عليه فإن طبيعته البدوية لم تسخ هذه الفلسفات العميقة ، ومن ثم وقف تأثره به عند الجوانب الظاهرة .

لقد برع الشعراء العباسيون فى التصوير وتجسيم الخيال ، وإلباس المعنويات ثوب الحسيات ، وإنطاق الطبيعة والجماد ، حتى لئرى الروض يتحدث ، والجماد يتحرك . ولكن أبانام أوغل فى ذلك التجسيم ، ولم يكثف بذلك ، بل ركب فى الصور ، ومزج بين الاستعارات . فالصورة تعتمد على صورة ، والاستعارة تقكى على استعارة ، وكل ذلك يلتف على ما كان يولع به من جناس وطباق ونحو ذلك من ألوان القصصيم ، حتى جلى الفموض معظم صورته .

قال يصف السحاب ويخلم عليه صفات الأحياء :

سحاب إذا ألت على خلفه الصبا يدا قالت الدنيا أنى قاتل المحل

إذا ما ارتدى بالبرق لم يزل الندى له تبعا أو يرتدى الروض بالبقل

إذا انتشرت أعلامه حوله انطوت بطون الثرى منه وشيكا على حمل

وقال يصف روضا :

ومعرس للغيث تخفق فوقه رايات كل دجنة وطفاء

نشرت حدائقه فصرن مآلفا لهارائف الأنواء والأنداء

فسقاء مساك الطال كافور الندى وأنحل فيه خيط كل ثناء

فقد عبر عن السحب التي يتلأل البرق في أطرافها بالرايات المطرزة التي تخفق بالريح . ولكن ما هذه الصورة المركبة في الشطر الأول من البيت الثالث؟ أما مساك الطال فهو رائحة الروض المطرية التي تكون بعد الطل ، وأما كافور الندى فهو الرشاش الذي يكون على أوراق الروض كالـكافور . إنها صورة معقدة على كل حال .

وانظر كيف يعطى لصوره ألوانا حسية مأموسة :

كأن سواد الليل ثم اخضراره طيالة سود لها كف خضر
لا تبعدن أبدا وإن تبعد فما أخلاقك الخضر الربى بأبعد
نفى ضوءها صبح الدجنة فانطوى لبهجتها ثوب الظلام المجزع
راحت غواني الحى عنك غوانيا يلبسن نأيا تارة وصدودا
واقرا هذا التشخيص :

حتى إذا اسود الزمان توضحوا فيه فنودر وهو فيهم أبلق
لدى ملك من أبكة الجود لم يزل على كبد المعروف من فعله برد
سألت إن كنت أدري ما تقول إذن جعلت أئمة الأحزان في أذن
تطل الطلول الدمع في كل موقف وتمثل بالصبر الديار الموائل
دوارس لم يحف الربيع ربوعها ولا مر في أغفها وهو غافل
وأخيرا يقول في وصف الربيع :

لما بكت مقل السحاب حيا ضحكت حواشى خده الترب
فكأنه صبح تبسم عن سحر ضئيل في ضحى شعب

فإذا انتهينا إلى آخر هذا العصر ، وجدنا فن التصوير الشعرى يستكمل كل أدواته وأصباغه ، ورأينا الشاعر يتخير لموضوعه ما يناسبه من المرائى المتعددة

والمشاهد المتعاقبة ، التي تمر أمام ناظره ، ورأينا الحضارة وقد صقلت حسه ، وفقت ذهنه ، والثقافة وقد أورثته الدقة وعمق التفكير . حتى نرى منه قد استوى واستكمل عناصره .

هذا ابن الرومي يسلط عدسة تصويره على أحديب ، فلا يترك عنصراً ولا يدع لوناً أو ظلاً ، وإنما يستوفي كل ذلك حتى تخرج الصورة ناطقة واضحة . فعنق الأحديب قصير لقصر أخدعه أي عرقه ، ومؤخر رأسه غائب وغائص بين كتفيه ، وهو متوقع أن يصفع ، وذلك مما يزيد في انكماشه خوفاً من الصفع بل كأنه صفع قبل ذلك فذاق ألم الصفع ، فهو لذلك أشد انكماشاً :

قصرت أخدعه وغاب قداله فكأنه مقربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة وأحسن ثانية لها فتجمعا
أرأيت إلى هذه الصورة الناطقة ؟ . . . إنه فن التصوير عند ابن الرومي .
اقرأ تصويره لمن قبيح الصوت :

وتحسب العين فكيف إذا اختلفا عند التنغم فكيف بغل طحان
وتصويره للبخيل :

يقتري عيسى على نفسه وليس بباقي ولا خالد
فأو يستطيع إلتقميره تنفس من منخر واحد

٥ - التأثير بالفلسفة والثقافات المختلفة :

ومن الظواهر التي نلاحظها في الشعر المباسي تأثيره في معانيه بالأفكار الفلسفية العميقة ، والثقافات المتنوعة التي اصططب بها هذا العصر ، ولو ذهبنا نقتبع هذه الظواهر لطال بنا البحث ، وتشعبت مسالكه ، فحسبنا أن نعرض بعضها الآن :

يقول أبو تمام :

فلو صح قول الجهمرية في الذي تنص من الألهام خلقتك ملهما
والجهمرية قوم من الشيعة ينسبون إلى جعفر بن محمد ويدعون له الألهام .
ويقول أبو نواس متأثراً بالثقافة الهندية التي عمادها النجوم والرياضة ، في
وصف الحر :

تخيرت والنجوم وقف لم يتمكن بها المدار
يريد أنها تخيرت حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب والنجوم
يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقعة في برج ثم سيرها
من هناك .
ويقول :

قل لزهير إذا حدا وشدا أقل وأكثر فأنت مهذار
سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندي كأنك النار
لا يعجب السامعون من صقي كذلك الثلج بارد حار
والهند يزعمون أن الشيء إذا أفرط في البرد عاد حاراً .
وكان تأثير الثقافة الفارسية واضحاً في الحكم الكثيرة التي كانت تنقل
عن الفرس ، حتى يقال إنه اجتمع في ديوان صالح بن عبد القدوس ألف مثل
للعرب وألف مثل للعجم . كما كان تأثيرها جلياً في الصور والأخيلة الدقيقة . إذ
كان الشعراء ينظمون ما يتسرب إليهم من الصور الفارسية ، على نحو ما ذكروا
من أن كسرى كان يقول في وصف النرجس : إنه يافوت أصفر بين در أبيض
على زمرد أخضر ، فنظم ذلك شاعر عباسي ، وقال :

وياقوتة صفراء في رأس درة مركبة في قائم من زبرجد
كانت بقايا الطل في جنباتها بقية دمع فوق خد مورد

ويقول أبو العتاهية في الزهد والحكم :

يا عجباً للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها فإنما الدنيا لهم معبر
لا فخر إلا فخر أهل التقى غداً إذا ضمهم المحشر
عجبت للإنسان في فخره وهو غداً في قبره يقبر
ما بال من أوله نطفة وجيفة آخره يفخر

سألهما الثقافة اليونانية فهي أعمق أثراً ، وأوسع مدى في معاني الشعر ، لما
امتازت به من الدقة والعمق والتحليل .

فهذا نوع من الغزل الواهم يتأثر فيه الحسين بن الضحاك بعناصر أفلاطونية ،
وتظهر فيه الصياغة الذهنية :

إن من لا أرى وليس برانى نصب عيني مثل بالأماني
بأبي من ضميره وضميري أبداً بالمغيب يفتجيان
نحن شخصان إن نظرنا وروحا ن إذا ما اختبرت يمتزجان
فإذا ما هممت بالامر أو هم بشيء بدأته وبداني
كان وفقاً ما كان منه ومنى فكأنني حكيمة وحكائي
ويقول أبو نواس في الخمر :

وقد خفيت من لطفها فكأنها بقايا يقين كاد يذهبه الشك
ويقول :

صفت وصفت زجاجتها عليها كمنى دق في ذهن لطيف
ولقد حكى الأمدى أن بعض نقدة الشعر سمع قول العباس بن الأحنف :
وصالكمو هجر وحبكمو قلى وعطفكمو صد وساءكمو حرب
وأنتم بحمد الله فيكم فظاظة وكل ذلول من مراكم صعب

فقال : هذا والله أحسن من تقسيمات إقليدس (١) .

ويقسم بشار المعنى على هذا النحو :

وعنى الفمالم كعنى المقال وفى الصمت عى كعنى الكلام

وتستمر فى هذا القديع ، فتجد الفلسفة بموضها وعمقها وتناقضها تسرى

إلى المعانى ، فتجمع بين المتنافر ، وتؤلف بين الأضداد ، وتأتى بالغريب العجيب .

كيف يهلك الشئ نفسه ؟ . يقول أبو تمام :

صيفت له شيمه غراء من ذهب لكنها أهلك الأشياء للذهب

وما ذا تلتظر من أبى تمام إلا أن يجعل النور مظلماً ، والظلام منيراً ،

والصحو مطراً ، والمطر صحواً :

بيضاء تسرى فى الظلام فيكتسى نوراً وتسرب فى الضياء فيظلم

مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يكاد من النضارة يطر

إنه أبو تمام الذى يجمع بين المتناقضات ، ويأتى بالمعنى الغريب غير المألوف ،

ثم يفرغ هذا الفن الفلسفى فى أوعية البديع .

ويقول بشار :

ليس يعطيك للرجاء ولا الخوف ولكن يلد طعم العطاء

فتجد فكرة طريفة وقعت فى ذهن الشاعر العباسى ، إذ يجعل العطاء

بدون غاية مألوفة .

٦-١- استخدام البراهين العقلية ومن التمايل :

وكانهم أحسوا بهذه الغرابة غير المألوفة ، وهم فى مجتمع يروج بالحوار

والنقاش ، فاحتاجوا إلى البراهين العقلية ، والأقيسة المنطقية ، يدعون بها
المعنى الغريب العميق ، ويقرّبونه إلى المألوف .

قال بشار يشرح الأغضاء عن هفوات الصديق ، ويبرهن على خطأ تدبّعها :
إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فمض واحداً أو صل أخاك فإنه مقارف ذنب تارة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه
وكان أبو تمام يمدح أحمد بن المعتصم ، حتى قال :

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس
فقال بعض الحاضرين : الأمير فوق من وصفت : فارتجل أبو تمام
هذا الدليل :

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس
وأبو تمام هو الذي يقول :

وطول مقام المرء في الخلق مخلوق لديباجتيه فاغترب فتجدد
فأني رأيت الشمس زبدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

ويقول :

ليس الحجاب بمقص عندك لي أملاً إن السماء ترجى حين تحجب
ويقول البحتري :

ذنوت تواضعاً وعلاوت مجداً فشأنك انحدار وارتفاع
كذلك الشمس تبعد أن تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

ويقول :

وقد زادها إفراط حسن جوارها خلأئق أصفار من الحسن خيب
وحسن درارى الكواكب أن ترى طوالع فى داج من الليل غيب
ولهذا شاع فى شعرهم حسن التعليل ، وكثر فى أدبهم كثرة ظاهرة .
قال أبو تمام :

إن رب الزمان يحسن أن يـ دى الرزايا إلى ذوى الأحساب
فلهذا يحف بعد اخضرار قبل روض الوهاد روض الروابي
ويقول :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسمل حرب للمكان المالى
وتطرد هذه الظاهرة ، حتى نرى الشعراء يكافون بها تبعاً لكافهم بتجليل
المعاني وشرحها . فنجد ابن الرومى يطالع علينا بمعنى جديد ، إذ يجعل الأسباب
فى الثناء والمدح هجاء للمدوح ، ويعمل ذلك أحسن تعليل ، ويفسره بأن المدح
يرى أنه لا ينتزع عطاء مدوحه بسهولة لبعده ، بل لابد من أن يطيل الأسباب
ليصل إليه ، كما يطيل الحبل إذا استقى من بئر بعيدة الماء :

وإذا امرؤ مدح امرء لنواله وأطال فيه فقد أطال هجاءه
لو لم يقدر فيه بعد المسقى عند الورود لما أطال رشاءه
ووجدناه يقول :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بسكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأوسع مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقى من أذاها يهدد

٧ — كثرة الحكم والامثال :

وقد شاعت الحكم والأمثال في شعرهم ، اقتباساً مما ترجم عن الفرس ، أو من الثقافات الأخرى ، أو ابتكاراً واختراعاً واستنباطاً وقد كان في شعر صالح بن عبد القدوس ألف مثل للمرب ومثلها للمعجم كما قلنا ، وكان لأبي المقاهية أرجوزة بها أربعة آلاف حكمة .

قال بشار :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستمع
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة
وما خير كف أمسك الغل أختها
وقال صالح بن عبد القدوس :

لا يبلغ الأعداء من جاهل
والشيخ لا يترك أخلاقه
إذا ارعوى عاد إلى جهله
وإن من أدبته في الصبا
حتى تراه مورقا ناضراً
ما يبلغ الجاهل من نفسه
حتى يوارى في ثرى رمسه
كذى الضنى عاد إلى نكسه
كالعود يسقى الماء في غرسه
بعد الذي أبصرت من يده

٨ — المبالغة والتحويل :

وهي ظاهرة تشيع في شعر المولدين ممن خالطوا الفرس أو نبتوا من أصول فارسية ، وللفرس غرام بالمبالغة ، وولع بالتحويل والاغراق ، وقد كان لشعرائهم ورجالهم في هذا العصر مقام كبير لدى الخلفاء ونفوذ عظيم ، دفعوا الشعراء الآخرين إلى محاكاةهم والقائمين بهم فانساق الجميع إلى المبالغة ، وأكثروا منها

في المسح بنوع خاص ، طمعاً في جزيل الهبات ، وسنى الجوائز .

وينبغي ألا نغفل سبباً آخر ساعد على المبالغة والفاو ، ذلك هو تراحم المعاني وتفتح آفاقها بتأثير الحضارة ، واتساع مناحى التفكير بتأثير الثقافة والفلسفة ، وتسابق الشعراء وتنافسهم في ميدان الخطوة والعطايا .

على أن هذه الظاهرة قد ظلت محتفظة بشئ من الثقل والانتزان ، حتى كان العصر التالي ، فجاءت كل إمكان ، وجافت كل ألوف ، واندفع في تيارها جميع الشعراء .

وكان خلفاء هذا العصر يشجعون على المبالغة ، ولا يطربهم إلا التحويل ، وقد مر بنا أن الشعراء لما اجتمعوا بباب المقتصم لم يقبل منهم إلا من يحسن أن يقول كما قال منصور النمرى في الرشيد .

خليفة الله إن الجود أودية أحلك الله منها حيث تجتمع . . إلخ
فقام محمد بن وهيب وأنشد قصيدته :

ثلاثة تشرق الدنيا بهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر
وفيها يقول :

فأنخلق جسم له رأس يدبره وأنت جارحتاه : السمع والبصر
واقراء وصف أبي تمام للمقتصم يوم عمورية ، وأعجب وأطرب لهذه المبالغة : جيش من الرعب يتقدمه إلى الأعداء فيفرزهم ، ونفسه وحدها جيش يفنيه عن قيادة الجيوش :

لم يفر قوما ولم ينهض إلى بلد إلا تقدمه جيش من الرعب
لو لم يقد جحفاً يوم الوغى لفدا من نفسه وحدها في جحفل لجب
ولكنها مبالغة معقولة ، فسكن من بطل نصر بالرعب ، وغزا بقوة الروح وبسالة العزيمة .

ويقول البحتري في المتوكل :

فلو آن مشتاقا تكلف فوق ما في وسعه لسمى إليك المنبر
فتجد مبالغة ولكنها في حدود الامكان .

ويقول أبو نواس في الهجاء :

رأيت قدور الناس سوداً من الصلى وقدر الرقاشيين زهراء كالبدر
يبيتها للمعتقى بفنائهم ثلاث كمنقط الثاء من نقط الخبر (١)
إذا ما تنادوا بالرحيل سعى بها أمامهم الحولى من ولد الذر
ولو جئتها ملائ عبيطاً مجزراً لأخرجت ما فيها على طرف الظفر
ويقول بشار الضخم :

إن في بردى جسماً ناحلاً لو توكت عليه لانهم
ومهما يكن من شيء فإن هذه المبالغات أهون وأيسر من المبالغات التي
ظهرت فيما بعد في شعر المتنبي وغيره .

٩ — تلخيص الافطار وترتيبها :

وأخيراً لقد تبين لشراء هذا العصر من أسباب الحضارة وألوان الثقافة
وعمق الفلسفة ودقة المنطق ، ما نرى أذواقهم ، ورقى إحساسهم ، وهذب أفكارهم ،
ونسق معانيهم ، فجاءت أفكارهم محصنة ، وعناصرهم منظمة ، ومعانيهم متسقة
مرتبة . نقرأ قصائدهم فلا نجد نبواً في الفكرة ، ولا خللاً في المعنى ، ولا اقتضاباً
في الغرض ، ولا اضطراباً في السياق ، وإنما نجد القصيدة بناء واحداً ، وهيكل
سليماً ، وموضوعاً مقلاحم النسيج ، مرتب العناصر .

وقد قرأت وستقرأ كثيراً من القصائد ، يتبين لك فيها حسن الربط بين

(١) زياد أن القدر صغيرة جداً حتى إن حواملها الثلاث كمنقط الثاء

المعاني لكثرتها عندهم ، وصدورها عن فكر مرتب وخيال مهذب ، كما يتجلى لك فيها التمهيد والتبذير من شغفهم بالعوض على المعاني واستيفاء عناصرها ، وترتيب نتائجها على مقدماتها .

وهنا تتجلى براعتهم في الانتقال من غرض إلى غرض ، بما يسمى « حسن التمهيد » وهو يعتمد خلق المناسبة بين المعنيين ، وإيجاد الصلة بين الغرضين ، حتى يوحد بينهما في رفق ولطف ودقة ، فلا يكون بينهما شروء أو تقطع أو اقتراب .

استهل أبو تمام قصيدته في مدح المعتصم بوصف الربيع ، ثم تخلص إلى المدح هكذا :

خلق أطل من الربيع كأنه خلق الأمام وهديه المنشور
وكان أبو نواس يقول :

تقول التي من بيتها خف مركبي يمز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى مقتطع بلى إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واسعة مجلتها بواذر جرت فجري من جريهن غدير
دعيني أكثر حاسديك برحلة إلى بلاد فيها الخصب أمير
فنى يشترى حسن الثناء بماله ويعلم أن النائبات تدور
وقال مسلم في يحيى وجعفر :

أجلك هل تدرين كم رب ليسة كأن دجاها من قرونك تنشر
لهوت بها حتى تجلت بغرة كفرة يحيى حين يمدح جعفر
وقال البحتري :

رياض تردت بالنبات مجودة بكل جديد الماء عذب الموارد
إذا راوحها مزنة بكرت لها شآبيب مجتاز عليها وقاصد

كأن يد الفتح بن خاقان أقبلت عليها بقلك البارقات الرواعد
وكان من مظاهر ذلك: العناية بمطالع القصيدة ، وجعله مناسباً للمقام ، مشيراً
مقصوداً ، كما في قصيدة « عمورية » لأبي تمام :
السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
والاهتمام كذلك بنحوها ، وجعله مؤذناً بالفراغ ، شافياً للنفس ، متمماً للمعنى
في نحو قول الشاعر :
بقيت بقاء الدهر يا كهف أهل وهذا دعاء للبرية شامل
وإن كان ذلك لم يظهر بوضوح إلا بعد هذا العصر .

أغراض الشعر

إنما يستمد الشاعر موضوعاته من المجتمع الذي يكلفه ، والافق الذي يظله ، والبيئة التي تنشئه ، والعصر الذي يعيش فيه . ولا شك في أن لكل بيئة مظاهر حياتها ، وظواهر طبيعتها ، ولكل مجتمع أسلوب عيشه ، وطابع حياته ، ونظام تقاليده وعاداته ، ولكل عصر تأثيره في حياة الناس وأذواقهم وعاداتهم وتقاليدهم .

ولهذا رأينا أغراض الشعر تختلف باختلاف البيئة ، وتقلب بقلب الأزمان ، وتطور بتطور المجتمع ، وتأثر بالحضارة أو البداوة ، وبالجهل أو العرفان .

وفي العصر العباسي تنوعت مشاهد الحضارة ، وتعددت ألوان الثقافة ، وتجددت أساليب العيش ، وتولدت بالاختلاط عادات ، وجدت في المجتمع تقاليد . ولهذا رأينا أغراض الشعر تتجه أنجاءً جديداً ، وتتخذ طابعاً يلائم ما يوحى به العصر من موضوعات :

١ — فهناك أغراض قديمة أصبحت لا تلائم أذواقهم ، ولا تنسق مع مدنياتهم ، وقد وحدوا في مشاهد الحضارة ومظاهر الحياة الجديدة ، ما يعينهم عليها ولذلك هجروها ، بل سحروا منها كل السخرية . ومن هذه الأغراض بكاء الديار ، ومناجاة الأطلال ، وتذمير الآثار ، ونعت الناقة ، ووصف الصحراء ، ونحو ذلك من مظاهر البادية . وإن كان بعض الشعراء قد ظل على وفائه للقديم ، ورأى أن القول في هذه الموضوعات إبقاء على التراث العربي ، وحفظ لسود القصيد .

واقدر رأينا حملة أبي نواس على هذه الموضوعات ، وسخر يقه منها ، وإحلاله وصف الخمر وإعلان محاسنها محلها . . وما زال سادراً في نشوته وتمهره ، حتى حبسه الرشيد ، فأفاق على ذكر الأطلال ، وصحبا على نعت القفار ، ولكتها صحوة مخور يهذي ويسخر ، حيث يقول :

أعر شمر ك الأطلال والمنزل القفرا فقد طالما أزرى به نعتك الخمر
دعاني إلى نعت الطلول مسلط تضيق ذراعي أن أردله أمرا
فسمماً أمير المؤمنين وطاعة وإن كنت قد جشمتني مركبا وعرا

٢ — وثمة أغراض جديدة لم تكن معروفة قبل هذا العصر ، وإنما خلقها الاختلاط بالأعاجم ، أو أوحى بها مشاهد الحياة والحضارة ، أو استحدثتها بعض المعارف والعلوم . . . وذلك كالغزل بالمذكر ، ووصف العذار ، والخوض في الدعابة والمجون ، والرمي بالآبنة ، والذم بالرشوة ، وهجاء المغنين ، والتمصّب لبعض أنواع الزهر . . . ثم نظم القصص والحكايات التهذيبية ، ونظم قواعد العلوم من فقه وغيره ، فيما بعد .

٣ — أما الأغراض القديمة الأخرى كالمدح والهجاء والرثاء ، والغزل بالمؤنث ، والوصف والفخر ، والسياسة والزهد ، والحكمة والمثل ومجوها . فقد أكثروا منها ، وتوسعوا فيها ، وطبعوها بطابع العصر والبيئة ، من التحليل والتفصيل ، والمبالغة والتهويل .

وها هي ذي أهم أغراض الشعر في هذا العصر :

الغزل :

أما الغزل بالمؤنث فيسكاد يكون كله إباحيا في هذا العصر ، وماذا نلتظار من مجتمع تشيع فيه مفاتن المدنية ، ومفاسد الحضارة ، وتنتشر بحالي اللهو

والمبث والمجون ، إلا أن تستمر فيه للشهوات ، وتثور الفرائز ، وتفتح مغالق
الميول والنزوات ؟ لهذا كاد الغزل الصحري يموت إلا على بعض الألسنة
كالعباس بن الأحنف . أما عامة الغزلين ، فقد تبذلوا في وصف المرأة ، وتمهروا
في الحديث عنها ، وأمعنوا في هتك حجاب العفة ، وأفشوا في تناول العورة ،
وأعلنوا كل سر ، وكشفوا كل مستور ، وأذاعوا كل سوء .

ألم يقل بشار :

أمتى بدد هذا نقبي ووشاحي حله حتى انتثر
فدعيني معه يا أمما علناً في خلوة نقضي الوطر
أقبلت مغضبة تضربها واعتراها كجنون مستعر
بأبي والله ما أحسنه دمع عين يغسل السكحل قطر
وأما الغزل بالمذكور فقد قلنا إنه غرض جديد طرأ على الشعر العباسي ؛
وهو رجعة من رجم الفرس ، ووباء من أوبئتهم ، سرى إلى العرب بعدوى
الاختلاط . وأول من قارف هذا الإثم ، وابتدع القول فيه : حماد عجرد ،
ووالبة بن الحباب ، ثم أبو نواس ، وحسين بن الضحاك ، ويحيى بن زياد ،
ومطيع بن إبليس ، وغيرهم من الشعراء الإباحيين ، الذين كانوا يلققون على موائد
الشراب ، وبين أيديهم الغلمان والقيان ، فلا يتورعون عن إثم ، ولا يكفون
عن هزل ، ولا يزعهم خلق أو دين . . وسرت هذه الموجة إلى الشعراء الغزلين
حتى طغى الغزل بالمذكور على كل قول ، وغلب على كل لسان ، وغرق في هذه اللجة
من كان يقفزل بالمؤنث ، فجعل ضمير الأنثى مذكراً .

وقد نعيم عن ذلك ما جدد في هذا العصر من وصف العذار والافتتان فيه ،
كما نشأ عنه تقاذف الناس باللوطية ، وتناييزهم بالأبنة ، وتراميمهم بالغلمان ، حتى
شاعت صفحة الأدب بهذا المهر ، وندى جبين الشعر نجماً من هذه الدعارة

ولا بدع فذلك عصر انطلمت فيه الشهوات، وأفلقت الفرائز، واتسع معنى الحرية
يقول أبو نواس:

يا بدعة في مثال يجوز حد الصفات
الوجه بدر تمام بعين ظبي فلاة
والقد قد غلام والفنج غنج فتاة
مذكر حين يبدو مؤنث الخاوات
ويقول الحسين بن الضحاك في غلام يستمعهم:

وابأبي أبيض في صفرة كأنه تبر على فضة
جرده الحمام عن درة تلوح فيها عكن بضة
غصن تبسدى يتشنى على مأكة مثقلة النفضة (١)
كأنما الرمش على خده طل على تفاحة غضة
صفاته فائضة كلها فبعضها يذكرني بعضه
واستعمل أبو نواس لفظ المذكر في المؤنث فقال:

يا قمرأ أبصرت في مأثم يندب شعجوا بين أثراب
يبكى فيندرى الدمع من نرجس ويلطم الورد بعذاب
أبرزه المأثم لى كارها يرغم دابات وحجاب (٢)
لاتبك ميقا حل في قبره وابك قتيلا لك بالباب

المدرج:

أبنا فيما سبق كيف كان الخلفاء في هذا العصر يتعمقون بالنفوذ الواسع

(١) المأكة: اللحمة على رأس الورك والانسان مأكةتان

(٢) المأثم: مجتمع الناس في الخير والشر

والجاء العريض ، ورأينا كيف كان كلفهم بإظهار نفوذهم ، وإعلان هيبتهم ،
 وإطراء مجدهم ، فقرّبوا الشعراء ، وأجزلوا لهم العطاء ، ليعلموا مفاخرهم على
 الناس ، ويزيدوا من هيبتهم في نفوس العامة . فأخذ الشعراء يتنافسون في
 التمجيد ، ويتسابقون في التفضيل ، ليحظوا بجزيل العطاء وعظيم الهبات . وقد
 انتهى بهم ذلك إلى المبالغة في المدح حتى قاربوا الكفر ، والتهويل في الثناء
 حتى خرجوا عن المعقول .

وإنما دعاهم إلى هذه المبالغة البالغة ، رغبتهم في إرضاء غرور الممدوحين
 وطمعهم في أن ينالوا أكبر الجوائز وأسنائها ، فقد كان العطاء على قدر المبالغة ،
 وكان الخلفاء كما رأينا من قبل يتخرقون في العطاء ، ويسرفون في المنح ، حتى
 أئرى الشعراء ، واقتنوا الثروات الطائلة ، والضياع العامة .
 ولقد رأينا أن المعتصم لم يقبل من الشعراء إلا من يمدحه بمثل مدح النمرى
 الرشيد ، حتى أشبع محمد بن وهيب رغبته ، وأرضى غروره .

ومحمد بن وهيب هذا هو الذي قال في مدح الحسن بن سهل :

نظمه الأوهام قبل عيانه ويصدر عنه الطرف وهو محاذر
 به تجتدي النما وتسعدرك المنى وتسكمل الحسنى وترعى الأواصر
 قسمت صروف الدهر بأسا ونائلا فمالك موقور وسيفك وائر
 ولو لم تكن إلا بنفسك فاخرا لما انتسبت إلا إليك المفاخر
 حتى طرب الحسن ونزل عن سريرته إلى الأرض ، وقال : أحسنت والله
 وأجملت ، ولو لم تقل في ولا قلت باقى دهرك غير هذا لما احتججت إلى القول ،
 وأمر له بخمسة آلاف دينار ، واقطعه لنفسه .

كما رأينا أن جلساء المعتصم لم يقنعوا بتشبيهه أبي تمام له بجاتم في الكرم ،
 وعمر بن ممد يكرّب في الشجاعة ، وإياس في الذكاء ، فانقدوه ، حتى اضطر للاعتذار

وهكذا كان المدح يهن أعطافهم ، ويشير أريحيتهم ، ويستدير عطاءهم .
وهكذا كان الشعراء يمعنون في المبالغة ، ويهولون في تصوير الممدوح ، لأنهم
يرون ذلك السحر الذي يخلب العقول ، والرقى التي تخطب الصلوات .
وكان من أثر ذلك أن وجدنا بعض الشعراء تغريهم كثرة العطاء ، ويهون
عليهم أمر الدين ، فيمدنون من الشرك أو يمعنون فيه . كما قال أبو نواس :
وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك الدطف التي لم تخلق
وكما يقول :

حتى الذي في الرحم (لم يك صورة) لفؤاده من خوفه خفة ان
وقد ظل الشعراء يبالغون في المدح ، ويفرقون في الثناء ، وينافس بعضهم
بعضا في ذلك ، حتى رأينا هذه الظاهرة تشيع وتوسع فيما بعد ، وتبلغ نهايتها في
الغلو والتحويل .

ولقد ذكروا أن المستعين بالله قال لشمرائه : لا أقبل الا من قال مثل
قول البحتري :

ولو ان مشتاقا تكلف فوق ما في وسعه لسمى اليك المنبر
فقال البلاذري : قد قلت فيك أحسن مما قال البحتري ، فقال هات ، فأنشده :
ولو أن برد المصطفى إذ لبسته يظن لظن البرد أنك صاحبه
وقال وقد أعطيقه والبيسة نعم هذه أعطافه ومناكبه
فقال المستعين : ارجع إلى بيتك وافعل ما أمرك به ، فرجع ، فبعث إليه
سبعة آلاف دينار ، وضمن له كفايته مدة حياته .

شعر العباسية والمصيرية :

١ — ورثت الدولة العباسية ما خلفه العصر الأموي من إحياء المصريات

بين اليمانية والمضرية ، فقد بقيت هذه الأحقاد مضطربة ، لا يخبو لها ضرام ، ولا تهدأ ثورة . ومن ثم أخذ شعراء الفريقين يتراشقون بالهجاء ويتساجلون بالفخر . وكان من شعراء اليمانية : مسلم بن الوليد ، وأبو نواس ، ومن المضرية الحكم بن قنبر .

قال مسلم بفخر قريشاً :

فاخرتنا بما بسطنا لها الفخـ	ر قريش وفخرها مستعار
ذكرت عزها ، وما كانت فيها	— قبل أن تستجيرنا — مستعجار
إنما كان عزها في جبال	ترقيها كما ترقى الوبار (١)
أيها الفاخرون بالعز والعز	لقوم سواهمو والفخار
أخبرونا عن الأعز : أألمنـ	صور حين اعتلى أم الأنصار
فلنا العز قبل عز قريش	وقريش تلك الدهور تجار

٢ — وكان الموالي في العصر الأموي يكتنون الحقد للعرب ، ويضمرون

لهم العداوة ، بسبب احتقار الأمويين لهم ، وترفعهم عنهم ، وقد هموا بالدفاع عن أنفسهم ، والاشادة بمفاخرهم ، وتمداد مثالب العرب ، ولكن حريتهم كانت مكبوتة ، بحيث لم يجترئ على إعلان ذلك منهم إلا القليل .

فلما تنسموا نسيم الحرية في العصر العباسي ، واعتقد الخلفاء بهم هذا الاعتقاد الذي عرفناه . بدأوا يجهرون بالعداوة ، ويعلنون المثالب ، ويذيعون مفاخرهم وأمجادهم . ومن هنا أخذت الشعوبية تظهر بوضوح بين العرب والعجم ، بحيث يصح اعتبارها غرضاً جديداً من أغراض الشعر .

وكان من شعراء الموالي الشعوبيين : بشار وديك الجن والخريبي والمتوكلي ،

وسنتحدث عن الشعوبية في كلمة خاصة .

(١) الوبار بكسر الواو جمع وبرة بفتحها وهي دويبة كالسنور

٣ — وكان الشمر السيامي يأخذ مكانه بين هذه المعصيات ، ويحتمل أرفع المنازل ، لأنه يتصل بسياسة الدولة ، ويتعلق بالخلافة .

كان لبني العباس شعراء يعتمدون عليهم في إذاعة محامدهم ، والاحتجاج لهم في استحقاق الخلافة ، وأولويتهم بها دون بني علي . ومنهم : مروان بن أبي حفصة وعلي بن الجهم ، وأبان بن عبد الحميد .

وكذلك كانت للعلويين شعراؤهم الذين يردون عنهم ، ويتعصبون لهم ، ويهجون الخلفاء العباسيين ، ويلاحون شعراءهم المتعصبين . ومنهم السيد الجبيري ودعبل الخزاعي ، ومسلم بن الوليد .

قال مروان بن أبي حفصة يخاطب بني علي :

خلوا الطريق لمعشر عاداتهم	حطم المناكب يوم كل زحام
وارضوا بما قسم الإله لكم به	ودعوا وراثة كل أحميد سامي
أنى يكون وليس ذاك بكائن	لبني البنات وراثة الأعمام
وقال الجبيري وكان علويًا :	

إذا أنا لم أحفظ وصاة محمد	ولا عهد يوم الغدير المؤكدا
فأنى كمن يشرى الضلالة بالهدى	تنصر من بعد التقى وتهودا
ومالى وقيم أو عدى وإنما	ألو نعمتى فى الله من آل أحدا
وإن امرأ يلجى على صدق ودهم	أحق وأولى فيهمو أن يفندا
ولقد أحسن الرشيد إلى دعبل ، وأعطاه عشرة آلاف درهم ، وخلع عليه	

وأركبه ، حين سمع بعض المغنيات تغنى من شعره :

أين الشباب وأية سلكا	لا أين يطالب ضل بل هلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل	ضحك المشيب برأسه فبكي
يأليت شعري كيف يومكما	يا صاحبي إذا دمي سفكا

لا تأخذوا بظلامتي أحداً قلمي وطرفي في دمي اشركا
فلم يخفف هذا من عصبية دعبل للملويين ، ولم تنسه المكافأة السخية حقه
على العباسيين . فلما مات الرشيد قال يمدح أهل البيت ويهجوهم :

وليس حي من الأحياء نعيمهم	من ذى يمان ولا بكر ولا مضر
إلا وهم شركاء في دماهمو	كما تشارك أيسار على جزر ^(١)
قتل وأسر وتحريق ومنهبة	فعل الغزاة بأرض الروم والخزر ^(٢)
أرى أمية معذورين إن قتلوا	ولا أرى ابنى العباس من عذر
أربع بطوس على القبر الزكى إذا	ما كنت تربع من دين على وطر
قبران في طوس : خير الناس كلهمو ^(٣)	وقبر شرهمو ؛ هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قرب الزكى ولا	على الزكى بقرب الرجس من ضرر
هيات كل امرئ درهن بما كسبت	له يداه فخذ ماشئت أو فذر

الحجريات :

لم يكن وصف الحر وتحسينها والدعوة إليها بالشئ الجديد الذى طرأ
على العصر العباسى ، فقد تغنى بها الشعراء منذ وجد الشعر ، وإنما الجديد فى
هذا العصر هو الإغراق فى وصفها ، والمبالغة فى نعمتها ، والاسراف فى الحديث
عنها والدعوة إليها ، ثم استغلال القصيدة بها ، أو استعمالها باطرائفها ، بدلا من
ابتدائها بالدمن والاحلال .

وقد كانت فيما سبق تذكر بجانب غيرها من أغراض القصيد ؛ فلم تكن

(١) الأيسار : لاعبو اليسر ، والجزر : النوق يقامرون عليها

(٢) الخزر بفتح الخاء والزاي جيل من الناس ضيقو العميون .

(٣) يريد قبر موسى الكاظم .

فناً مستقلاً من فنون الشر . وكان الشرراء يأمون بها إلماً ، ويتحدثون عنها في
غير إغراق ولا سرف . حتى جاء أبو الهندي عبد المؤمن بن عبد القدوس
الرياحي من مخضرمي الدواوين ، وكان رقيق الدين ، فاسد الخلق ، مدمناً للخمر ،
فأخذ يشيد بها ويحض عليها ويزينها للناس ، كما في قوله :

قل للسرى أبي قيس أتجسنا ودارنا أصبحت من داركم صددا
أبا الوليد أما والله لو علمت فيك الشمول لما فارقتها أبدا
ولا نسيت حياها ولذتها ولا عدلت بها مالا ولا ولدا
ثم جاء أبو نواس وندمانه ، فقدموها في المطالع ، وأفردوا لها القصائد ،
وأمنوا في نعتها ما وسعهم الامعان ، وأغرقوا في مدحها ما وجدوا السبيل إلى
الاغراق ، وأكثروا من القول فيها حتى غلبت على شعرهم ، وحتى بلغ ما قاله
أبو نواس فيها بضعة آلاف من الأبيات .

الإفال يصف مجلس الشراب وآتيه :

ودار ندامي عطلوها وأدلجوا بها أثمر منهم جديد ودراس^(١)
مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان : جني ويابس
حبست بها صبحي فجددت عهدهم وإني على أمثال تلك الحابس
ولم أدر من هم غير ما شهدت به بشرقي سباط الديار البساس
أقننا بها يوماً ويومين بمدته ويوما له يوم الترحيل بخامس
تدار علينا الراح في عسجدية حبثها بأنواع القصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها مها تدر بها بالقسي الفوارس
فلاخمر ما زرت عليه جيوبها ولها ما دارت عليه القلائس

(١) كان قد خرج مع بعض صحبه إلى المدائن فرأى بسباط آثاراً تدل على أن هذا
المكان كان يجمع بين ندمان أقاموا به وترحلوا ، فهو يصف ذلك .

ومن فرائده الحزبية :

يا شقيق النفس من حكم	نمت عن ليلى ولم أنم (١)
فاسقنى البكر التى اختمرت	بخمار الشيب فى الرحم (٢)
نمت انصات الشباب لها	بعد ما جازت مدى الهرم (٣)
فهى اليوم الذى بزات	وهى ترب الدهر فى القدم (٤)
عققت حتى لو اتصلت	بلسان ناطق وفم
لاحتبت فى الفوم مائلة	ثم قصت قصة الأمم
قرعتها بالمزاج يد	خلقت لاسيف والقلم
فى ندامى سادة زهر	أخذوا اللذات من أمم
فعمشت فى مفاصلمهم	كتمشى البرء فى السقم
فعلت فى البيت اذ مزجت	مثل فعل الصبح فى الظلم
فاهتدى سارى الظلام بها	كاهتداء السفر بالعلم

الرجاء والمجورة :

أما الرجاء الذى تدعو اليه العصبية ، وتميزه الخصومات السياسية ، فقد كان شيئاً مألوفاً معروفاً من قديم الزمان . وقد انساق الشهراء العباسيون فى ميدانه كغيرهم ، فظهر فى شعرهم السياسى ، وتجلى فى تعصبهم القبلى ، واستعملوا فى أحقادهم الشعبوية كما أسلفنا .

(١) حكم : بخلاف من الذين ينسب اليه أبو نواس .

(٢) خمار الخمر ما يعلوها من الزبد .

(٣) انصات : أجاب .

(٤) بزات بالمجهول : صبت رسالت .

وإنما نعتى ذلك اللون الجديد من الهجاء الذى لم تدع اليه عصبية ، ولم تثره
خصومة سياسية ، وإنما كان مرجعه الى السخرية والتنادر والتهمك ، إزجاء للفراغ
وإظهاراً للبراعة فى التقبيح وتوليد الممانى فيه .

فلقد كان من أثر المدنية انتشار المفسد ، وذبوع المثالب ، وكثرة الفجور
كما كان من آثارها ارتقاء الأذواق ، حتى لم تعد تسمع كثيراً من المناظر المألوفة
من قبل ، أو ترضى عن كثير من العادات الشائعة حينذاك .

فلما ضعف الوازع الدينى ، وتوفرت أسباب الراحة ، واتسعت أوقات
الفراغ ، ولان جانب العيش . وجد الشعراء فى هذه السوءات والمثالب
والمفسد ، وفى تلك المناظر الشاذة ، والعادات القديمة ، مادة واسعة للهجاء ،
ومنبعها فياضاً يستمدون منه ما يتفردون به فى مجالسهم ، ويتفككون فى أسماهم
وما يتسابقون فيه من إظهار البراعة فى الوصف والابداع فى السخرية والأضحاك .
ولقد راحوا يتتبعون العورات ، ويطعنون العثرات ، ويقرصون العيوب ،
ويرمون بما شاع من لواط وأبنة ورشوة ونحو ذلك ، كما راحوا يذمون اللحن ،
ويهزأون بالخلق المشوهة والأنوف الكبيرة ، ويستتهجنون أصوات المغنين ،
ويسخرون من عادات المترمقين . وصاغوا ذلك كله فى شعر مقنع مضحك ،
يفريك بالضحك من التصوير قبل أن يفريك بالاشفاق على من قيل فيه .

وهكذا شاع المحجون وانتشرت سمومه ، بسبب المدنية والاباحية وضعف
وازع الدين . قالوا إن مطيع بن إلياس مر ببيحيى بن زياد وحماة بن اسحق ، فقال
لها : فيم تمجادتان ؟ قالا : فى قذف الحصينات ، فقال : أفى الأرض محصنة تقذفانها ؟
قال بشار بهجو بخيلا :

كأن عبيد الله لم يلق ما جدا ولم يدر أن المكرمات تكون
إذا جئته فى حاجة سد بابها ولم تلقه إلا وأنت كمين

وقال يهجو المهدي مشيراً إلى تغرد وزيره يعقوب بقادير الأمور :

بنى أمية هبوا طال نومكو
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا
ويقول أبو نواس يهجو بخيلاً :

رغيف سعيد عنده عدل نفسه
ويخرجه من كفه فيشبهه
وإن جاءه المسكين يطلب فضله
يكر عليه السوط من كل جانب
ويقول كذلك في قدر بخيل :

ينص بحلقوم الجراة صدرها
وتغلي بذكر النار من غير حرها
ويهنو البحتري الخشمى بكبر الأنف فيقول :

رأيت الخشمى يقل أنفأ
سما صعدا فقصر كل سام
هو الجبل الذي لولا ذراه
ومن أمثلة المجون ما ذكروا من أن جماعة اجتمعوا يوماً بدار رجل يقال
له صالح ، فسقط على سطح الدار ديك طار من بيت دعبل الخزاعي الشاعر ،
فدبحوه وشووه وطمعوه ، ثم خرج دعبل يسأل عن الديك ، حتى عرف مصيره
فعدا إلى المسجد وصلى ، ثم جلس على بابه ينشد :

أسر المؤذن صالح وضيوفه
بعثوا عليه بناتهم وبنينهم
أسر السكي هنا خلال الماقط (١)
ما بين نائمة وآخر سامط

يتنازعون كأنهم قد أوثقوا خافان أو هزموا كقائب ناعط (١)
 نهشوه فانزعرت لهم أسنانهم وتهشمت أفتاؤهم بالحنائط
 ولقد قرأنا لابن الرومي بعض صورته (الكاريكاتورية) الباردة . رأينا
 تصويره للأحباب ، فلمشهد هذه الصورة لحظة المفنى :

رأيت لحظة يخشى الناس كلهمو إذا همو عاينوه الفالج الذكرا
 تخاله أبداً من قببح منظره مجاذباً وترّاً أو بالعمّ حجراً
 كأنه ضفدع في لجة هرم إذا شدا نفا أو كرر النظرا
 لو كان لله في تخليدنا قدر مع قربه ما أردنا ذلك القدر
 ويقول في صلصة أبي حفص :
 يا صلصة لأبي حفص ممردة كأن ساحتها مرآة فولاذ
 ترن تحت الأكف الواقعات بها حتى ترن بها أكناف بغداد
 ويهجو عمرّاً فيقول :

وجهك يا عمرو فيه طول وفي وجوه الكلاب طول
 والكلاب واف وفيك غدر ففبك عن قدره سفول
 وقد يحامى عن المواشى وما تحامى ولا تصول
 وأنت من أهل بيت سوء قصتهم قصة تطول
 وجوهمهم للورى عظمات لكن أفتاءهم طبول
 مستقملان فاعلمن فعولن مستقملان فاعلمن فعولن
 بيت كعذاك ليس فيه معنى سوى أنه فضول
 ويقول :

لو أن قصرك يا ابن يوسف كله إبر يضيق بها فضاء المنزل

(١) خافان لقب ملك الترك . ناعط : قبيلة من همدان وأصله اسم جبل .

وأذاك يوسف يستعيرك إبرة ليخيط قد قميصه لم تفعل

أغراضه أخرى:

أما الأغراض الأخرى فلا سبيل إلى حصرها ، ولا يتسع المجال لتفصيلها والافاضة فيها . فحسبنا أن نشير إلى بعضها مكتفين بما عرضناه وسنعرضه من النماذج ، علي أن معظمها قد سبقت الإشارة إليه ، وتعرضنا له في كثير من المناسبات .

فهناك الزهد وهو ظاهرة مضادة للمجون والزندقة والاباحية ، ومن القواعد المقررة أن الغلو في ناحية يقتضي ظهور ناحية أخرى مضادة لها ، وهذا ما حدث في العصر العباسي . فقد ظهرت طائفة من الشعراء تحمل على الفساد ، وتشتهر بالمدينة ، وتدعو إلى الاعتدال والزهد ، وتحذر من الدنيا وغرورها ، وتأمر بكريم الأخلاق وحميد السسير ، وتضرب الأمثال والحكم عظة للسامعين ، وتذكروا للغافلين . وقدم بنا ذكر أبي العتاهية وصالح بن عبد القدوس وأمثلة لها في الزهد والحكمة . كما ذكرنا من قبل أن أبان بن عبد الحميد نظم كتاب كائلة ودمنة للسمر والموعظة ... وأخذ الزهد يشق طريقه إلى قلوب الشعراء ، حتى رأيناهم يقتحم قلب شاعر خليم كأبي نواس فينطقه بقوله :

أخى ما بال قلبك ليس ينقى	كأنك لا تظن الموت حقا
ألا يا ابن الذين فنوا وبادوا	أما والله ما بادوا لتبقى
ومالك فاعلم فيها مقام	إذا استكملت آجلا ورزقا
ومالك غير ما قدمت زاد	إذا جعلت إلى اللهوات ترقى
وما أحد بزادك منك أحظى	وما أحد بزادك منك أشقى

وهناك الوصف وهو فن ظهرت فيه براعة العباسيين وقدرتهم على التصوير

وقد ساعدتهم على الاجادة فيه والسمو بخياله ومعمانيه ، ما رددناه من مظاهر الحضارة وألوان الثقافة وكثرة المشاهدات ، مما يفتح أحكام الشعاعية ، وينمي الاحساس بالجمال ، ويقوى ملكة التصوير . ولقد نضجت خواطرهم بكثير من الأوصاف التي تناولت كل ما وقعت عليه عيونهم ، وسنضيف إلى ما ذكرناه من أمثلة تجلت فيها قدرتهم على التصوير ، أمثلة أخرى لهذا الغرض في النماذج . وهناك غرض آخر لم نشأ أن نخوض فيه لأنه لم يظهر بصورة جلية واضحة إلا بعد عصر نفوذ الخلفاء ، ذلك هو نظم العلوم والفنون . وهناك الرثاء والفخر وغيرها من الأغراض العامة التي تناولها الشعراء في جميع المصور ، وقد طبعها العباسيون بطابعهم الخاص .

الشعوبية في الشعر العربي

الشعوبية نزعة تغلغلت في صدور جماعة من الموالى الذين دخلوا في الاسلام ، وخضعوا لسلطان العرب . وهي اعتقادهم أنهم أركى من العرب نسباً ، وأطيب منهم عنصراً ، وأغرق منهم حضارة ومدنية . وقد أطلق لفظ (الشعوبيين) أولاً على من يقولون بتساوى الشعوب ، يقول ابن عبد ربه : الشعوبية هم أهل التسوية ، وفي صحاح الجوهري : الشعوبية فرقة لا تفضل العرب على المعجم . ثم أطلق هذا اللفظ بعد ذلك على من يفضلون المعجم على العرب ، يقول صاحب القاموس : الشعوبية محقرة أمر العرب . والشعوبية مأخوذة من الشعوب جمع شعب وهو جهل من الناس أوسع من القبيلة . قال ابن الكلبي : الشعب أكبر من القبيلة . وعلى هذا فالعرب شعب والفرس شعب وهكذا . . وقال بعضهم في تفسير قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » : إن المراد

بالشعوب المعجم وبالتبائل العرب . وهذا من غير شك تفسير شعوبى أريد به إثبات أفضلية المعجم لتقدمهم في الذكر .

— ١ —

جاء الاسلام فسطع بنوره على الأفئدة ، وأشرق بهدايته على النفوس ، وعهد إلى قلوب العرب فطهرها من ضغائنها ، واسقل أحقادها ونسخائها من مكائدها ، وجمالهم إخوة تشكافاً دماؤهم ، لافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، وأذهب عنهم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ، فكلهم لآدم وآدم من تراب ..

وقد أصاح العرب لهذه الدعوة الكريمة ، واستجابوا لهذه الآداب الرفيعة ، وهجعت في نفوسهم عصبية الدم ، واستنامت في صدورهم حمية الجاهلية ، وشروا القبالية ، وانطلقوا جميعاً في مواكب الغزو إخوة متساندين ، يتواثبون على ملك كسرى ، وبلاد فارس ، بما فيها من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين .

— ٢ —

على أن هذه السنة الحائلة لم تنم عليها عين الدهر إلا قليلاً ، ثم عاد الخلاف أعنف وأقسى مما كان ، على الملك والسلطان ، وافترق العرب في الأمرة والولاية إلى شيع وأحزاب ، وخصوم وأعداء ، كل له هوى ، وكل له مأرب .. وكان هذا مبدأ التنفيس عن المغلوبين ، فقد كان لكل حزب عصبية وأنصار من الموالى وأبناء الأعاجم ، وكانوا يناصرون الأحزاب السياسية ، وينافحون عنها بشعرهم . وقد وجدوا أن في ذلك فرصة ينفذون منها إلى أغراضهم ، ويظهرون من فضائل شعوبهم ، وقد يملنون ماكن من حبهم لبلادهم ، وحقدهم على غالبهم .. كان أبو العباس الأعشى ينافح عن بني مروان ، ويستبجح في سبيل

ذلك هجوا أشراف قريش خاصة والعرب عامة ، وأصله مولى من أذربيجان ،
وكانت صلات بني أمية ترسل إليه في مكة . وحين حج عبد الملك بن مروان مرة
فدخل عليه هذا الشاعر فأنشده شعراً هجاً به ابن الزبير ، فحلف عبد الملك
على من في المجلس من قرابته ومن قريش ليكسونه كل واحد منهم ، فألقيت عليه
الحلل والثياب ، حتى كادت تخفيه . . . وكان اسماعيل بن يسار وإخوته —
إبراهيم ومحمد — ذوى نزعة فارسية يتصبون للعجم ، وينتمون على العرب ،
وكلهم شعراء ، قال أبو الفرج : وكان اسماعيل شغوياً شديداً للتصيب للعجم ،
وله شعر كثير يفخر فيه بالأعاجم . . .

كان اسماعيل نصيراً لآل الزبير ، غالباً في حبهم ، فلما دالت دولتهم انضم
إلى بني مروان فقباه ، وكان منافق الهوى ، خبيث الرأي ، لا يعرف صدقاً في
حب ، ولا وفاء في صحبة ، ولا نبلاً في عاطفة . حدث أبو الفرج أن اسماعيل
استأذن على الغمر بن يزيد بن عبد الملك يوماً فحجبه ساعة ، ثم أذن له فدخل
يبكى ، فقال الغمر : أتبكي يا أبا فائد ؟ قال : وكيف لا أبكي وأنا على مروانيتي
ومروانية أبي أحجب عنك ؟ فجعل الغمر يعتذر إليه وهو يبكي ، فما سكت
حتى وصله ، وخرج من عنده فلحقه رجل ، وقال له : أخبرني ويلك يا اسماعيل
أي مروانية كانت لك ولأبيك ، قال : بغضنا إياهم ، امرأته طالق إن لم تكن
أمه تلعن مروان وآله كل يوم مكان التسميح ، وإن لم يكن أبوه حضره الموت
ف قيل له . قل لا إله إلا الله ، فقال لعن الله مروان ، تقرباً بذلك إلى الله ،
وإبدالاً له من التوحيد ، وإقامة له مقامه . وهذا المرواني الذي كان يبكي بين
يدي الغمر ، ويدعى المروانية عن أمه وأبيه ، هو الذي يفاخر العرب ويكاثروهم
ويذكر معانيهم ، ويكشف مثالبهم ، ويقول من قصيدة له :

إنما سمي الفوارس بالفرس مضاهاة رفعة الأنساب

كما يقول في قصيدة أخرى :

إيمان مثل كسرى وسابور الجلود بما والمهرمزان لفخر أو لتعظيم
سبح على أن هذا الشهور الذي كان يعقلج في نفوس الموالى فلا يجد لاشاعته
إلا آفاقاً ضيقة ، كان مجاوبة ومدافعة لشهور أقوى منه شدة ، وأعنف حدة ،
فقد كان العرب ، بحكم ما فيهم من طبيعة الغلبة وروح السيادة ، يأنفون من
الموالى ، ويحقرون ما لم يكن عربياً ، ويرون أن الإشارة إلى الموالى لا تعد
عيباً . يروى أن جريراً نزل بقوم من بني العنبر فلم يضيفوه حتى اشترى منهم
القرى ، فانصرف وهو يقول :

يا مالك بن طريف إن بيعتكم رقد القرى مفسد للدين والحسب
قالوا نبيعكم بيعاً فقلت لهم بيعوا الموالى واستحيوا من العرب
قال المبرد : إن جلة الموالى أنفت من هذا البيت لأنه حطهم ووضعهم
ورأى أن الإساءة إليهم غير محسوبة عيباً .. وكان الحجاج — ولعل ذلك
لدوافع سياسية — يسم بالمشرط أيدي النبط ، وهم قوم من الأعاجم كانوا
ينزلون بين العراقيين ، وقد قال شاعر عربي في هجاء مولى :

لو كان حياً له الحجاج ما سلمت صحيفة يده من وسم حجاج
ولما نزل الحجاج واسطاً نفي النبط منه ، وكتب إلى عامله بالبصرة يقول :
إذا أتاك كتابي فانف من قبلك من النبط فإنهم مفسدة للدين والدنيا ، فكتب
إليه : قد نفيت النبط إلا من قرأ منهم القرآن وتفقه في الدين ، فكتب إليه
الحجاج ثانية : إذا قرأت كتابي فادع من قبلك من الأطباء ونم بين يديهم
ليقفوا عروقتك ، فإن وجدوا فيك عرقاً نبطياً فاقطعه

ويصف محمد بن بشير أخلاق الموالى بقوله :

ويسمي لك المولى ذليلاً مدفعاً ويخذ لك المولى إذا اشتد كاهله

فأمسك عليك العبد أول وهلة ولا تنفك من راحتيك حبائله
ويقول :

إذا افتقر المولى سعى لك جاهدا لغرضي وإن نال الغنى عنك أدبرا
ويقول نصر بن سيار في التحذير من خطر الموالى :

أبلغ ربيعة في مرو وإخوتهم فأيغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا حرباً يحرق في حافاتها الخطب
ما بالكم تلتحقون الحرب بينكم كأن أهل الحجا عن رأيكم عزب
وتتركون عدواً قد أظلمكم مما تأشب لا دين ولا حسب
قدما يدينون ديناً ما سمعت به عن الرسول ولم تنزل به الكعب
فمن يكن سائلاً عن أصل دينهم فإن دينهم أن تقبل العرب
على أنا نستطيع أن نقول إن كراهة العرب لم تأخذ شكلاً مستعلماً تمام
العلم في أيام الأمويين ، ولم تستطع أن تبرز من مخابثها كثيراً لعروبة الدولة ،
وبالغ اعتزازها بأصلها ، وفرط تنبه الخلفاء والأمراء والرعية والشعراء .
إنما كانت الشعوبية نفثات ومخالسات ، تنبث في ألوان براءة من الدفاع عن
الأحزاب السياسية ، والمحاماة دونها ، فكانت كالسم في العسل : جميل المظهر
قاتل الخبر

— ٣ —

لحم قامت الدولة العباسية على اكتاف الموالى كما قدمنا ، قتر بهم واعتزوا
بهم . ومن هنا ظهرت بوضوح نزعتهم ، وتجلت شعوبيتهم . حتى كان الشاعر
الشعوبى في هذا العهد يقول فلا يبالي قوة ، ولا ينخشى في الغالب سطوة ، ولا
يتخوف إيقاع حاكم أو انتقام أمير ، فالخلفاء مدينون في دوائهم للموالى ،
ويعتقون بأرحام إلى الأعاجم ، والقواد والوزراء وأرباب السياسة موال يعصبون

للجنس ، ويتخمسون لأخوتهم في الوطنية ، ويحاولون جميعاً أن يصبنوا الدولة
بصبغة فارسية

ولقد رأينا بشاراً يفتخر أمام المهدي بأعجميته ، فيقول كما حدث عن
نفسه : « دخلت علي الخليفة المهدي ، فقال لي : فيمن تعتد يا بشار ؟ فقلت :
يا أمير المؤمنين أما اللسان فعربي وأما الأصل فأعجمي كما قلت في شعري :
ونبتت قوماً بهم جنّة يقولون من ذا وكنت العلم
ألا أيها السائل جاهد ليمرقي أنا أنف الكرام
نمت في الكرام بنى عامر فروعى وأصلى قريش العجم
ويقبراً جهاراً من ولاء العرب فيقول :

أصبحت مولى ذى الجلال ويضمهم مولى العريب فخذ بفضلك والفخر
مولاك أكرم من تميم كلها أهل الفعّال ومن قريش المشعر
فارجع إلى مولاك غير مدافع سبّحان مولاك الأجل الأكبر
ويقول في رجل ادعى النسبة إلى العرب :

ارفق بعمرى إذا حركت نسبته فإنه عربي من قوارير
ويقول فيه :

إن عمرا فاعرفوه عربي من زجاج
مظلم النسبة لا يعرف إلا بالسراج

وذكر أبو الفرج أن إعرابياً دخل على مجزأة السدوسي وعنده بشار ،
فقال الإعرابي : من هذا الرجل ؟ فقال مجزأة : رجل شاعر ، فقال : أمولى أم
عربي ؟ فقال : بل مولى : فقال : ما للموالى والشعراء ؟ فغضب بشار وسكت
هنيئاً ثم قال : أتأذن لي يا أبا ثور ؟ فقال : قل ما شئت يا أبا معاذ ، فقال :
خليلي لا أنام على اقتسار ولا آبي على مولى وجار

سأخبر فاخر الأعراب عنى وعنه حين تأذن بالفخار
 أحين كسيت بعد العرى خزا وفادمت على الكرام على العقار
 تفاخر يا ابن راعية وراع بنى الأحرار حسبك من خسار
 مقامك بيننا دنس علينا فليمتك غائب في حر نار
 وفخرك بين خنزير وكاب على مثلى من الحدث الكبار
 وكان أبو اسحاق المقوكل من ندماء المقوكل حتى نسب إليه ، لشدة لصوقه
 به ، ولم يكن في العراق في زمانه من هو أبلغ منه ، وله قصيدة يتشفي فيها من
 بنى هاشم ويميرهم ويتوعدهم ويفخر بالمعجم واثمائه إليهم ، ويقول :

أنا ابن الأكارم من نسل جم (١) وحائز إرث ملوك المعجم
 ومحبي الذي باد من عزم وعنى عليه طوال القدم
 وطالب أوتارهم جهرة فمن نام عن حقهم لم أتم
 قتل لبنى هاشم أجمعين هلموا إلى الخلع قبل الندم
 ملكناكم عنوة بالرم ح طعنا وضرباً بسيف خدم (٢)
 وأولاكم الملك آباؤنا فما إن وفيتم بشكر النعم
 فعودوا إلى أرضكم بالحجاز لا كل الضباب ورعى الغنم
 فإني سأعلو سرير الملوك بحد الحسام وحرف القلم
 ولعل هذه القصيدة هي التي أغضبت عليه المعتمد فقتله... وهذا أبو نواس يقول :
 عاج الشقى على رسم يسائله وعجت أسأل عن خسارة البالد
 يبكي على ظلال الماضين من أسد لا در درك قل لي : من بنو أسد ؟
 ومن تميم ومن قيس ولهما ؟ ليس الأعراب عند الله من أحد

(١) يريد به جمشيد ملك الفرس

(٢) أي قاطع

ويقول :

فامتنع فيها وغرن صو نأ - لك الخير - أعجما

ليس في نعت دمنسة لا ولا زجر أشأما

ويقول في وصف الحمر ويقصد بذلك أن العرب لم تعرف إلا خشونة الحياة

وشظف العيش ، وقسوة المسكابدة لأسبابه :

تراث أنوشروان كسرى ولم تكن مواريث ما أبقت نعيم ولا بكر

قصرت بها ليلي وليل ابن حرة له حسب زاك وليس له وفر

*

* *

هذه صورة من آثار الشعوبية في الشعر ، وهذه نفثة من نفثات شياطينهم ،

وقصائد شعرائهم . . فأين شعراء العربية من هذه الحملة الشعرية المهاجمة المناضلة ؟

هل اعتصموا بالصمت ، وتجملوا بالسكوت ، ووقفوا معقولي الألسنة ، أم قارضوهم

هجاء بهجاء وإقذاعا بإقذاع ؟

الواقع أن الصورة الشعرية ، والمقاومة الأدبية لهذه الدعوة ، وتلك الصيحة

في هذا العصر ، تبدو من الضالة والقالة ، بحيث لا تكفي لمقاومة الشعوبيين .

وإنما هي صورة خافضة ، لرغبة شعراء العرب في تعلق الموالى وهم ذوو سلطان حتى

كان لهم من يبالغ في مدحهم والتقرب إليهم . . وقد يصح أن نقارن موقف الشعر

العربي في العصر الأموي بموقفه في العباسي ، بأنه كان في الأول مهاجماً في كثير

من الأحيان ، تبدو فيه الأنفة ، ويسرى في أعطافه التكبر والاستعلاء ، أما في

الثاني فقد كان مدافعاً ، وإن شئت قلت : قد كان أضعف قوة من المدافع .

وهذه صيحة من تلك الصيحات الخافتة ، يرسلها أبو خالد المهلب

في رثاء المتوكل :

لما عتقدتم أنفساً لا حفاظ لهم
ولو جعلتم على الأحرار نعمتكم
قوم هم الأصل والأنساب فجمعكم
إن العبيد إذا أذلتهم صلحوا
إذا قرئش أرادوا شد ملكهم
بغير قحطان لم يبرح به أود
ضمتم وضيعتم من كان يمتقد
حقكم الذادة المنسوبة الحشد
والدين والمجد والأرحام والبلد
على الهوان وإن أكرمتهم فسدوا
هذه صورته للشعر العربي في مدافعة الشعوبيين ، وهي أقرب إلى أن تكون
صرخة ألم واستنجد ، من أن تكون زأرة لرد الظلم ودفع العدوان (١)

(١) هذا البحث مقتبس من محاضرة في الشيوعية الامتاز عبد الحميد السلوت

محاسن المولدين ومساوئهم

— ١ —

كان لفظ (المولد) يطلق أول الأمر على كل من لم يسلم نسبه العربي من شائبة العجمة ، فينشأ غير خالص العربية ، لاتصال نسبه بالأعاجم من جهة أمه أو أبيه . ثم أصبح هذا اللفظ يطلق على الشعراء الذين يعيشون في العصر الذي كثر فيه مختلطو الأنساب ، ولو كانوا عرباً خالصاً . فالشعراء العباسيون إذن مولدون ، وهم كذلك محدثون .

ولقد كان نقاد الأدب ورواته ينظرون إلى شعر المحدثين أو المولدين نظرة ريبة وتحفظ ، بسبب ما يحدثه اختلاط الأنساب ، واتصال العرب بالعجم ، من أثر في سلامة العروبة وأصالة الملكة . حتى إن بعضهم كان يتردد ويتشدد في اعتبار المولد شاعراً ، فنرى أبا عمرو بن العلاء يقول عن جرير أو الفرزدق :
لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا برواية شعره . وربما كان الأصمعي أقرب إلى الإحسان وأدنى إلى الإنصاف ، فقد كان يعلن استحسانه لروائع هؤلاء الشعراء ، كالذي ذكرنا من استحسانه لقصيدة أبي نواس « ودار ندائي عطلوها ... »

إلا أن كثيراً منهم كان يفضل التعصب ويميله عن الحق ، وقد يسمع شعراً فيطرب له وينشط لتسجيله ويسأل عن قائله ، فإذا عرف أنه محدث مولد ، أشاح عنه ونقض ما قال ، وكذب شعوره . كالذي يحدث في زماننا

قالوا : إن ابن الأعرابي سمع أرجوزة أبي تمام التي مطلعها :

وعاذل عدلتـه في عدله فظن أني جاهل من جهله

لبست ريماني فذرني أبله مانعين المغبون مثل عقـله

على أنها لأحد الشعراء القدماء ، فطرب لها أيما طرب ، وقال : هذا هو الديباج
الفسرواني ، ثم أمر بكتابتها ، فلما كتبت قيل له : إنها لأبي تمام ، فقال :
من أجل هذا أرى عليها أثر الكافة ، ثم ألقى الورقة ، وقال : خرق
يا غلام خرق .

على أن هناك فريقاً من المعتدلين كانوا يعرفون لكل ذي حق حقه ،
فيقدمون الشعر القديم من ناحية الجزالة وسلامة العبارة والاستشهاد به ،
ويرجحون شعر المحدثين من جهة عذوبة الألفاظ وجمال المعاني وارتباطها ، وقد
مر بنا ما قاله بعضهم من أن المولدين يستشهد بهم في المعاني ، كما يستشهد بالقدماء
في الألفاظ . ويمثل ابن رشيق القديم والمحدث برجلين ابتداءً أحدهما ببناء فأحكه
وأقننه ، ثم جاء الآخر فنقشه وزينه ، فالقدرة ظاهرة على عمل الأول وإن
خشن ، والكافة ظاهرة على عمل الثاني وإن حسن .

والحق أن للمولدين محاسن أشرقت بها صفحة الأدب والشعر ، ومساوىء
جاءت كالكلف في هذه الصفحة المشرقة .

— ٢ —

أما محاسنهم فما نطن أننا في حاجة إلى أن نعيد شرحها وتفصيلها بعد
ما استعجلناه من روائعها ، وجلوناه من آياتها ، فيما قدمناه من دراسة تحليلية
واسعة ، واستعراض شامل طويل . رأيناها فيه عبيراً يتضوع شذاه ، فينمش
الأرواح ، ويوقظ المشاعر ، ويستهي الأفتدة والنفوس .

فهذه ألفاظهم الرشيقة الأنيقة التي تسيل رقة وعذوبة ، وأساليبيهم المشرقة
الديباجة ، الواضحة التراكيب الجميلة الترتيب .

وهذا هو البديع الذي يحلون به جيد الألفاظ ونحور الأساليب ، فيزيدها
جمالاً ، ويكسوها فتنة وبهاء ، اللطف اجتلابه ، واختيار موضعه ، وحسن موقعه

وقد رأينا في دراسة الألفاظ والأساليب كيف هذبوا الألفاظ ، ونسقوا
الأساليب ، ورتبوا التراكيب ، وجودوا المطالع ، وتأنقوا في استعمال
أصباغ البديع .

ودرسنا ما نبيهم وأخيلتهم فوجدنا التشبيه الرائع ، والخيال البارع ، والاستعارة
الجميلة ، والتصوير البديع .

جددوا معاني القدماء ، وتصرفوا فيها ، وطبعوها بطابع عصرهم حتى كادوا
يستبدون بها .

وابتدعوا الكثير من المعاني الجديدة ، حتى رأيناهم يشقون أصداف الكلام
عن فرائد درها ، ويفتخون أحكام البيان عن مهاجج زهرها .

وتناولوها بالدقة والعمق ، والتحليل والشرح ؛ واحتجوا لها وامتلأوا
عليها ؛ وخلصوا عليها ما أثروا به من حضارة وثقافة وفلسفة .

ومن محاسنهم فيها ما تجلى بها من روعة الأداء وقوة التصوير ؛ وما ردده
بين ثناياها من حكم وأمثال ؛ وما أشاعوه فيها من حسن التعليل .

كما أن من محاسنهم تلك المبالغات المقبولة التي تستثير النفوس ، وتهز المشاعر ،
هذا إلى ما امتازوا به من ترتيب الأفكار ، وتنسيق العناصر ؛ وحسن التخلص
وقوة الربط بين المعاني ؛ حتى لا تجد تفككا أو اضطرابا ؛ أو شروداً أو اقتضابا
وحتى كان من أثر ذلك عنايتهم بمطالع القصائد وخواتيمها ، وملائمتها
للبدء والختام .

أما مساوئهم فإننا نذكر بعضها فيما يلي :

١ — جرم الغرام بالغوص على المعاني ؛ والامعان في دقتها إلى الغموض

المظلم ، الذى يكبد الفكر فى فهمه ، ويمىي الدهن فى استجلائه ، وذلك كما يقول
إسحق الموصلى :

أخاف عليها المئين من طول هجرها فأهجرها الشهرين خوفاً من الهجر
فكيف بهجر خوفاً من الهجر ؟
ويقول أبو تمام :

ولمت فأظلم كل شيء دونها وأنار منها كل شيء مظلم
فنهجد القدماء يفتنون أمام هذا الغموض ، والحيرة تبلبل أفكارهم ، وتشتت
عقولهم فى كل واد ، وتدفعهم هذه الحيرة إلى أن يحاولوا الانقصار على هذا
الغموض بتبديد غيومه ، وإجلاء ظلامه . وقد ألف المرزوقى بحثاً سماه (المشكل)
عرض فيه للمشكل من أبيات أبي تمام .

ويشرح المرزوقى هذا البيت على هذا النحو : لما جزعت لفراقها اشتد
جزعها على ، فأظلم كل شيء فى عيني سواها ، ومن دونها ، وبأن لى من مكثوم
أمرها ما كان مظماً على . . . أو ارتاعت للفراق فالتت قناعها فأظلم كل شيء
دونها لسواد شعرها ، وأنار كل شيء مظلم من بياض وجهها .

ويقول التبريزى (١) . إن الأشياء أظلمت دونها أى غيرها ، وهى من
حسنها تضىء الأشياء المظلمة .
ويقول أبو تمام أيضاً :

طال إنكارى البياض ولو عم رت شيئاً أنكرت لون السواد
فميجار النقاد فى فهم ما يريد ، هل يريد أن يقول : كنت أنكر الشعر البياض
فصرت أنكر السواد ؟ أو يريد : إن عمرت شيئاً أسود من لوني وجادى

ما كان مبيضاً فذكرته ؟ أو : إن عمرت شيئاً أنست بالبياض وسكنت إليه حتى
أكون مذكراً للسواد كما أنكر البياض الآن ؟ الله أعلم بمراحده .

ومعها يكن في هذه الممانى وأمثالها من دقة وروعة ، فإن هذا الاستغراق
يبعد بالشعر عن مجال العاطفة التي هو لغتها ، إلى مجال التشریح العلمی الذي
هو مجال الفكر والعقل .

٢ - وإلى جانب استعاراتهم الجميلة وتشبيهاتهم الرائعة ، كانت لهم هنوات
أتوا فيها بما يمجج الذوق ، وتجتويه المشاعر ، ويرجع ذلك إلى الأمان في الاستمارة
والتشبيه ، واللاحاح عليهما في كل حال .

يقول أبو نواس :

مال رجل المال أضحت تشمكي منك الكلالا

ويأبى إلا أن يستعير المال من أرجل الأدميين ، حتى يصور كلالها ،
ولكنها رجل تستحق القطع . إلا أن أبا نواس لا يوافق على أن هذا سخف ،
وعلى أنها تستحق البتر ، ويروح فيستعير المال إنساناً كاملاً يصيح حتى يبع صوته :
بح صوت المال مما منك يشكو ويصيح

ويقول بشار :

وجنت رقاب الوصل أسياف هجرها وقدت لرجل البين فعلين من خدي
فتجند سيوف الهجر رقاب الوصل ، وتقد لرجل البين فعلين من خده ،
أى خد بشار ، قبجه الله .

ويقول أبو تمام :

حتى إذا سود الزمان توضحوا فيه فغودر وهو فيهم أبلق
الزمان أبلق . إغراب في التصوير دعا إلى هذه السماجة ، ولكن لا بأس
فهو أهون من قوله :

كأننى حين جردت الرجاء له غصاً صديبت به ماء على الزمن
 فالأمدى يستقبح جملة الزمان كأنه صب عليه ماء ، كما يستقبح جملة أبلق (١)
 وأبو تمام مولع بهذا الماء يملأ به أوعية الاستمارة ، وما يزال يقول :
 لا تسقى ماء الملام فأنى صب قد استعذبت ماء بكأنى
 حتى يرسل إليه ظريف خبيث قارورة ، ويقول له : ابعث لنا شيئاً من
 ماء الملام . ومهما يكن من شئ ، فهي صورة غريبة بالرغم من قبحها .
 ٣ - وقد كان للمبالغة في شعرهم أثرها في تفخيم المعنى وسمو الخيال وإبداع
 التصوير ، وكانت مقبولة سائغة لوقوعها في حدود الامكان أو قريباً منه .
 ولكن إفراطهم فيها ، وإلحاحهم عليها ، واغترارهم بمحاسنها ، أوقعهم في المحال
 وأدناهم من الشرك أو أركسهم فيه . فهذا أبو نواس يقول :
 وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق
 حتى إن العقابي يقول له : أما استحييت من الله بقولك هذا البيت ،
 فيقول أبو نواس : وأنت أما استحييت منه بقولك :
 ما زلت في غمرات الموت مطرحة يضيق عنى وسيع الرأى من حملى
 فلم تزل دائماً تسمى بلطفك لى حتى اختلست حياتى من يدى أجلى
 قال العقابي : قد علم الله وعلمت أن هذا ليس مثل ذاك ، ولكنك أعددت
 لكل ناصح جواباً . والواقع أن هذا من ذاك ، وكلاهما حق وسفاه .
 وكذلك يفتن المال ، ويفرى العطاء ، وإلا فما بال أبي نواس يعود فيقول :
 ملك تصور فى القلوب مثاله فكأنه لم يخل منه مكان
 حتى الذى فى الرحم (لم يك صورة) لفؤاده من خوفه خفقان

ولقد رأينا المبالغة عند البحري وغيره ، ولكنها مبالغة مقبولة ،
اصطاحبت معها أدواتها المقربة من الامكان مثل كاد ولو ونحوهما :

وما يزال شيطان المبالغة يفر الشعراء ويضلهم ، ويركض مع الزمن في خيالهم
حتى يقع فيما بعد على ابن دريد فينطقه بهذا الأثم :

ولو حمى المقدار منه مهجة لرامها أو يستبيح ما حى
تغدو المنايا طائعات أمره ترضى الذى يرضى وتأبى ما أبى
ويظل يوسوس للمقذبي بمثل قوله :

إن كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذ من الاسلام
وقوله :

يتشفن من فمى رشفسات هن فيه أحلى من التوحيد
وقوله :

يامن نلوذ من الزمان بظله أبدا ونطرد باسمه إبليسا
٤ — وإذا لم نفصل الفن عن الخلق والدين ، ونظرنا إلى أن المثل العليا
من رسالة الفن الرفيع ، فإننا نجد من معايبهم ماشاع في شعرهم من الغزل بالغلمان
والاسترسال في المجون ، والإغراق في نعت الحُر ، وتحسين ذلك كله والأغراء
به والدعوة إليه ، ونحو ذلك مما يأباه الخلق ، ويبغضه الدين ، وتجبوه المروءة والعفة .
٥ — وتعد هذه المساوىء إلى ما بعد عصرنا فتتسع وتشعب ويظهر قبورها
بوضوح وجلال . فهذا الإيمعان في دقة المعنى والغوص عليه ينتهى آخر الأمر
إلى هذه المعميات والألغاز الشعرية ، التى يراها الشعر أخيرا فنا من الفن وبابا
من الشعر ، كما يلغز بعضهم فى القلم فيقول :

وما غلام راكم ساجد أخو نحول دمع به جارى

ملازم للخمس فى وقتها معتكف فى خدمة البارى

وهذه المحسنات البديعة ينتهى جمالها الواضح إلى الغموض، وبريقها اللامع إلى الصدا. بسبب التكلف فيها، والإلحاح في تعميدها، واستكراه أبيها، واستعجال بعيمدها.

ثم تنتهى هذه السهولة العذبة إلى ابقنال، ويحبس الخيال المحلق بأجنحة العواطف فى قفص من نظم الماوم العقلية وغيرها من الفنون.

نماذج من الشعر

الممدح :

قال أبو نواس يمدح الخليفة محمداً الأمين :

وإذا المطى بنا بافن محمداً	فظهورهن على الرجال حرام
قر بننا من خير من وطى الحصى	فأها علينا حرمة وذمام
رفع الحجاب لنا فلاح لناظر	قمر تقطع دونه الأوهام
ملك إذا علقت يداك بحبله	لا يستريك البؤس والإعدام
فالبهو مشتمل ببدر خلافة	لبس الشباب بنور الإسلام
إن الذى يرضى الإله بهديه	ملك تردى الملك وهو غلام
ملك إذا اعتسر الأمور مضى به	رأى يقل السيف وهو حسام
داوى به الله القلوب من الهمى	حتى أفقر وما بين سقام
أصبحت يا بن زبيدة بنه جعفر	أملأ لمقد حباله استحكام
فسامت للأمر الذى ترجى له	وتقاعست عن يومك الأيام

وقال أبو تمام يمدح أبا العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب :

- وركب كأطراف الأسنة عرسوا
لأمر عليهم أن تتم صدوره
على كل موار الملاط تهـدمت
رعته الفيا في بعد ما كان حقبـة
إليك جزعنا مغرب الملك كلما
إلى سالب الجبار بيضة ملكه
وقد قرب المرمى البعيد رجائوه
سما للملا من جانبيها كليهما
فبول حتى لم يجد من يذيله
وأين بوجهه الحزم عنه وإنما
أرى الناس منهاج الندى بعد ما عفت
ففي كل نجد في البلاد وغائر
- (١) على مثلها والليل تسطو غياهبه
(٢) وليس عليهم أن تتم عواقبه
(٣) عريكته العلياء وانضم حاله
رعاها وماء الروض ينهل ساكه
(٤) هبطنا ملاصلت عليك سباسبه
(٥) وآمله غاد عليه فسالبه
(٦) وسهلت الأرض العزاز كتائبه
(٧) سمو عباب الماء جاشت غواربه
(٨) وحارب حتى لم يجد من يحاربه
(٩) مرأى الأمور المشكلات تجاربه
(١٠) مهايجه المثل ومحت لواحيه
(١١) مواهب ليست منه وهي مواهبه

(١) أطراف الأسنة ! أسنة الرماح ، عرسوا ؛ نزلوا ليلاً . يقول إن هؤلاء الركب ركبوا على مثل أسنة الرماح وهي كور الجمال التي تشبه الأسنة في الصلابة والمضاء
(٢) أي هؤلاء الركب ركبوا لأمر وهو نيل العطاء من المدوح
(٣) الملاط ! عضد البعير ، والموار ! المتحرك ، والحالب ! عرق يتصل بأسفل البطن وهو كنية عن الضمور .

(٤) جزعنا الأرض ! قطعناها عرضاً ، ومغرب الملك ، الشام ، وكان أبوتام بها وكان ممدوحه بنخراسان ، والملا الصجراء ، وصات عليه أثنت عليه ، والسباسب جمع سباسب - الأرض المستوية

(٥) بيضة الملك حوزته وأصله - وآمله طالب العطاء منه - يقول إنا سرنا إلى من يسلب الجبار ملكه وطالب العطاء منه يسلبه ماله - فهو سالب ملك الجبار ويسلب المالك من الصالين
(٦) يريد بجاني الملا الشجاعة في الحرب والكرم - والعباب معظم الماء وجاشت زخرت وغواربه أعمى أمواجه - (٧) أين بوجه الحزم - أي كيف يشكل عليه الحزم وتجاربه مرآة للمشكلات ومرأى جمع مرآة - (٨) المهايـج والواحب الطرق الواضحة

(٩) لما علم الناس الكرم كانت هباتهم ليست منه وهي في الحقيقة منه لأنه هو الذي علمهم

إذا ما امرؤ ألقى بربعك رحله فقد طالبتة بالنجاح مطالبه (١)

الغزل :

وقال العباس بن الأحنف :

أزبن نساء العالمين أجمي
ككتبت كتابي ما أقيم حروفه
أخط وأمحو ما خططت به
وأنت من الدنيا نصيبي فإن أمت
وإني لأستهدي الرياح سلامكم
وأسألها حمل السلام إليكم
أرى البين يشكوه المحبون كلهم
أزوار بيت الله مروا يثرب
وقولوا لهم يا أهل يثرب أسعدوا
فإننا تركنا بالعراق أخا هوى
به سقم أعيا المداوين علمه
إذا ما عصرنا الماء في فيه مجه
وقال بشار :

قد لآمني في خلياتي عمر
قال أفق قلت لا فقال بلى
قلت وإذا شاع ما اعتذارك مما
واللوم في غير كنهه ضرر
قد شاع في الناس منكما انظر
ليس لي فيه عندهم عذر

(١) أي من نزل عندك وألقى رحله بربعك شاعرت بنجاح مطالبه

ماذا عليهم وما لهم خر سوا
 أحشى وحدي ويؤخذون به
 يا عجباً للخلاف يا عجباً
 حسبي وحسب الذي كلفت به
 أو قبلة في خلال ذاك وما
 أو عضة في ذراعها ولها
 أو لسة دون مرطها بيدي
 والساق براءة مخلصها
 واسترخت الكف للعراك وقا
 انفض فما أنت كالذي زعموا
 قد غابت اليوم عنك حاضني
 يا رب خذ لي فقد ترى ضرعي
 أهوى إلى معضدي فرضضه
 ألصق بي حية له خشدت
 حتى علاني وأسرتي غيب
 أقسم بالله لا نجوت بها
 كيف بأمي إذا رأيت شفقي
 فد كنت أخشى الذي ابتليت به
 قلت لها عند ذاك يا سكني
 قولي لها بقّة لها ظفر

لو أنهم في عيوبهم نظروا
 كالترك تغزو فتؤخذ الخرز
 بني الذي لام في الهوى الحجر
 مني ومنه الحديث والنظر
 بأس إذا لم تحل لي الأزر
 فوق ذراعي من عضها أثر
 والباب قد حال دونه الستر
 أو مص ريق وقد علا البهر
 ات إليه عني والدمع ينحدر
 أنت وربّي مغازل أشر
 والله لي منك فيك ينتصر
 من فاسق جاء ما به سكر
 ذو قوة ما يطاق مقتدر
 ذات سواد كأنها الأبر
 وبلي عليهم لو أنهم حضروا
 فاذهب فأنت المساور الظفر
 أم كيف إن شاع منك ذا الخبر
 منك فماذا تقول يا عبر
 لا بأس إني مجرب خبر
 إن كانت في البق ماله ظفر

الوصف :

وقال البحتري يصف إيوان كسرى بالمدائن ويرثي دولة الفرس :

- | | |
|---------------------------|-----------------------------|
| صنت نفسي عما يدنس نفسي | وترفت عن جدا كل جبس (١) |
| وتماسكت حين زعزعني الدهر | سر التماساً منه لقمسي ونكسي |
| بلغ من صباغة العيش عندي | طفقتها الأيام تطفيف بنخي |
| حضرت رحلي الهموم فوجهـ | ت إلى أبيض المدائن عندي (٢) |
| أتسلى عن الحظوظ وآسى | لحل من آل ساسان درس (٣) |
| ذكرتنيهم الخطوب القوالى | ولقد تذكر الخطوب وتنسى |
| وهم خائفون في ظل عال | مشرف يحسر العميون ويخسى (٤) |
| حلال لم تكن كأطلال سـعدى | في قفار من البساس ملس (٥) |
| نقل الدهر عهدهن عن الجد | ة حتى غدون أنضاء لبس (٦) |
| فكان الجرماز من عدم الأند | س وإخلاله بنمية رمس (٧) |
| لو تراه علمت أن الليلي | جعلت فيه مأتما بعد عرس |
| وهو ينبيك عن عجائب قوم | لا يشاب البيمان فيهم بلبس |
| فاذا ما رأيت صورة أنطا | كية ارتعت بين روم وفرس (٨) |

- (١) الجدا : المطاء الجبس : الجبان اللثيم
 (٢) حضرت رحلي الهموم : طرأت على الأحزان والعنس : الناقة القوية
 (٣) آسى : أحزن وآل ساسان : أكاسرة الروم درس : دارس
 (٤) يحسر العميون : يضمفها إذا نظرت تبين ارتفاعه - يخسى : يؤلم
 (٥) الحلال : جمع حلة طائفة من البيوت والبساس : القفار ملس خالية
 (٦) أنضاء جمع نضو : المهزول من الحيوان أو الثوب البالي وليس - استعمال أى
 (٧) الجرماز - بناء كان عند أبيض المدائن ثم عفا أثره وكان عظيمًا بجوار
 القصر . والرمس القصر .
 (٨) أنطاكية بلد باناشام حيث وقعت معركة بين الفرس والروم وقد بدورت في الإيوان

والمنايا موائل وأنو شر^(١) وان يزجي الصفوف تحت الدرفس^(١)
 في اخضرار من اللباس على أص^(٢) فمر يخال في صبيغة ورس^(٢)
 وعراك الرجال بين يديه في خفوت منهم وإغماض جرس
 من مشيح يهوى بحامل رمح^(٣) وملوح من السنان بقرس^(٣)
 تصف المين أنهم جد أحيا^(٤) لهم بينهم إشارة خرس^(٤)
 يغتلى فيهم ارتيماني حتى تقهرهم يدي بالرس

وكان الايوان من عجب الصند^(٥) مة جوب في جنب أرعن جلس^(٥)
 بمظني من الكآبة أن يب^(٦) دو لعيني مصبح أو ممسي^(٦)
 مزعجا بالفراق عن أنس إلف عز ، أو مرهقا بتطليق عرس
 عكست حظه الليالي وبات المش ترى فيه وهو كوكب نحس
 فهو يبدى تجلدا وعليه كل كل من كلال الدهر مرسى
 لم يعبه أن يز من بسط الدي^(٧) باج واسقل من سقور المقدس^(٧)

(١) موائل : قاعات تنتظر العمل وقت الحرب . وأنو شر : أن أحد الأكاسرة . يزجي يسوق .
 والدرفس العلم الكبير

(٢) الورس نبات ذو صبغة حمراء

(٣) المشيح الحذر . والملوح الذي يخاف ويحذر أيضا . والقرس الحجن

(٤) تصف المين : تخيل إليها

(٥) الجوب الحرق . والأرعن الجبل ذو الرعن وهو أنف يتقدم الجبل . الجلس الجبل
 العالي ، فكان الايوان بالنسبة إلى القصر الأبيض العظيم الذي يشمل الايوان وغيره من الغرف
 والقباصير معسوخ في جانب جبل أرعن ، وجعل الجبل أرعن لما فيه من الأجندحة والطنف
 والأبيات الآتية توضح هذا التشبيه .

(٦) يتظني : يظن . أن يبدو : وقت أن يبدو . مزعجا مفعول ثان ليتظني ، أى أنه يظن
 وقت ظهوره للمين مزعجا بفرافه أليف أو عروسا

(٧) يز سلب . والديباج الثوب سداه ولحمته حرير . والمقدس الحرير الأبيض

مشمخر تملو له شرفات رفعت في رؤوس رضوى و قدس (١)
 لا بسات من البياض فما تب صر منها إلا غلائل برس (٢)
 ليس يدري أ صنع إنس الجن سكونه أم صنع جن لا إنس
 غير أنى أراه يشهد أن لم يك بانيه في الملوك بنكس (٣)

عمرت للسرور دهرًا فصارت للتعزى رباعهم والقأمى
 فلها أن أعينها بدموع موقوفات على الصبابة حبس
 ذاك عندي وليست الدار دارى باقتراب منها ، ولا الجنس جنسى
 غير نعى لأهلها عند أهلى غرسوا من زكاتها خير غرس
 أيدوا ملكنا وشهدوا قواه بحجة تحت السنور حمس (٤)

وقال يصف بركة المتوكل وما فيها من السمك :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والآفات إذا لاحت مغانيها
 بحسبها أنها من فضل رتبته تعد واحدة والبحر ثانيها
 ما بال دجلة كالغبرى تنافسها فى الحسن طوراً وأطوار تباها
 أمارأت كالىء الاسلام يكاؤها من أن تعاب وبأنى المجد يبنها
 كأن جن سليمان الذين ولوا إبداعها فأدقوا فى معانيها
 فلو نمر بها بلقيس عن عرض قالت هى الصرح تمثيلاً وتشبها
 تنصب فيها وفود المساء معجلة كالخليل خارجة من جبل مجربها

(١) مشمخر : حال . ورضوى و قدس جبلان

(٢) الغلائل جمع غلالة : وهى شعار يلبس تحت الثوب . والجرس : بكسر الهمزة . فاعلها

القطان أو ما يشبهه . (٣) النكس : الضعيف الدنى . (٤) السنور : كل سلاح من

حديد وحمس : شجعان . يشير إلى بلاء الفرس فى إقامة الدولة العباسية

كأنما الفضة البيضاء سائلة
إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا
فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها
إذا النجوم تراءت في جوانبها
لا يبلغ السمك المحصور غايتها
يمن فيها بأوساط مجنحة
لهن صحن رحيب في أسافلها
مخوفة برياض لا تزال ترى
ودكتين كثل الشعريين غدت
من السبائك تجرى في بحارها
مثل الجواشن مصقولا حواشيها^(١)
وريق الغيث أحيانا يباكيها
ليلا حسبت صماء ركبت فيها
لبعد ما بين قاصيها ودانيها
كالطير تنقض في جو خوافيها
إذا انحططن وبهو في أعاليها
ريش الطواويس تحكيه ويحكيها
إحداها بإزا الأخرى تساميها

وقال مسلم بن الوليد في وصف البحر والسفين :

أديرى على الراح ساقية الخمر
كأنك بي قد أظهرت مضر الحشا
وقد كنت أقلى الراح أن يستفزني
والكنني أعطيت مقودي الصبا
إذا شئت غاداني صبور من الهوى
ذهبت ولم أحدد بعيني نظرة
جعلنا علامات المودة بيننا
فأعرف منها الوصل في لين طرفها
وفي كل يوم خشية من صدودها
وملتطم الأمواج يرمى عبابه
ولا تسأليني واسأل الكأس عن أمري
لك الكأس حتى اطعمتك على سري
فتنطق كأس عن لساني ولا أدرى
فقد بنات اللهو مخلوعة المذر
وإن شئت ماساني غبور من الخمر
وأيقنت أن العين هاتكة ستري
مصايد الحظ ، هن أخفى من السحر
وأعرف منها الهجر بالنظر الشرر
أبيت على ذنب ، وأغدو على عذر
بجرجرة الآذی للمبر فالمبر

إذا اعتمت فيه الجنوب تكهأت
جواربه أوقامت مع الريح لا تجرى
كشفت أهويل الدجى عن مهوله
بجسارية محمولة حامل بكر (١)
إذا أقبلت راعت بقنفة قرهب
وإن أدبرت راعت بقادمتى نسر (٢)
تجافى بها النوتى حتى كأنها
يسير من الإشفاق فى جبل وعر (٣)
تخرج عن وجه الحباب كما انثنت
مخبات قليلا ثم مرت كأنها
أناف بهاديهها ومد زمامها
عقاب تدلت من هواء على وكر (٤)
إذا ما عصت أرخى الجرير لرأسها
شديد علاج الكف معتمل الظاهر (٥)
كأن الصبا تحكى بها حين واجهت
فما سكها عصيانها وهى لا تدرى (٦)
يممنا بها ليل التمام لأربع
نسيم الصبا مشى العروس إلى الخدر (٧)
فما بلغت حتى الطلاح خفيها
فجاءت لست قد بقين من الشهر (٨)
وحتى أنت لون اللحاء من القشر (٩)

(١) أهويل : أهوال . ومهولة : هول النهر ، محمولة : يحملها الماء . حامل تحمل الناس بكر ! لم تركب قبل هذه المرة . يقول ! قطعت النهر المهول والليل المخوف بتلك السفينة
(٢) راعت ! أفرغت . قنفة قرهب : رأس تور وحشى مسن ، شبه به مقعد النوتى فى صدر المركب . راعت ! أعجبت . بقادمتى نسر : بمجذافين كأنهما جناحا نسر
(٣) تجافى ! تنحى عن الحشف وهو حجارة تحت الماء تقرب من أعلاه . والإشفاق ! الخوف يقول ! إن النوتى تحاشى موطن الخطر فكانت يسير على جبل وعر
(٤) تخرج ! تنحى . الحباب ! الموج ، والراد الأماكن التى تضطرب فيها الأمواج . يشبه تنقل السفينة بين اللواضع خشية الأخطار بالجارية تنقل فى نواحي البيت وأستاراه مستقرة
(٥) أناف بهاديهها ! أشرف بعنق السفينة : المعتمل : العامل . يقول يعالج السفينة نوتى قوى
(٦) الجرير ! الحبل عصيانها ! تماديها فى الجسرى أى تركها العنان لتسير كما تموى فكانت حليها على العصيان وأسكنها لا تعقل ذلك .
٧ - يقول حين تواجه الصبا السفينة تترفق فى مشيها فتشبه فى ذلك مشى العروس إلى خدرها وهو ما تستستر به من بيت أو نحوه ٨ - أى قصدت بها الممدوح لتمام الليلة الرابعة عشر من الشهر فوصلت وقد بقى من الشهر ست ليال
٩ - الطلاح الكلال والاعياء وفساد الحال . أى لما بلغت الغاية حتى صار الطلاح كأنه هو الحافظ له من الهلاك ، وذلك عجيب

وحتى علاها الموج في جنباتها
رمت بالكري أهوالها عن عيونهم
وقال علي بن الجهم يصف الورد :
لم يضحك الورد إلا حين أعجبه
بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها
وقابلته يد المشتاق تسنده
كأن فيه شفاء من صبا بقة
بين النديمين والخامين مصرعه
ما قابلت طلعة الريحان طلعه
قامت بحجته ريح معطرة
لا عذب الله إلا من يعذبه
وقال ابن الرومي يصف القيان العازفات على الأعواد :

وقيان كأنها أمهات
مطفلات وما حملن جنينا
ماقمات أطفالهن نديا
منعمات كأنهن حافلات
كل طفل يدعى بأسماء شتى
أمه دهرها تترجم عنه
عاطفات على بنيتها حواني
مرضعات واسن ذات لبان
ناهدات كما أحسن الرمان
وهي صفر من درة الالبان
بين عود ومزهر وكران
وهو بادي الغنى عن الترجمان

(١) الطحالب : طبقة نباتية خضراء تهاو الماء ، يذكر تماق الطحالب بجوانب السفينة من تأثير الموج . وخضر : صفة أردية .

(٢) الكري : النوم ، يقول إن أهوال السفينة منعت ركبها النوم ، فباتوا يسرون في أهوال ، والأهال : جمع أهوال ، وهذا جمع هول

المجرب :

قال أبو نواس في الخمر والمجون :

ألا فاستقنى خمرًا وقل لي هي الخمر
وبح بائس من أهوى ودعنى من الكنى
ولا خير في فتك بنفسير مجانة
بكل أخى قصف كأن جبينه
وقال :

ولا تسقنى سرًّا إذا أمكن الجهر
فلا خير في اللذات من دونها ستر
ولا في مجون ليس يتبعه كفر
هلال وقد حفت به الأنجم الزهر

وداؤنى بالتي كانت هي الداء
لو مسها حجر مسته سراء
لما محبـان لوطنى وزناء
فلاح من وجهها في البيت للاء
كأنما أخذها بالعين إغفاء
لطافة وجفا عن شكاها الماء
حتى تولد أنوار وأضواء
فما يصيبهمو إلا بما شاءوا
كانت نحل بها هند وأسماء
حفظت شيئًا وغابت عنك أشياء

دع عنك لومى فان اللوم إغراء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها
من كف ذات حر في ذى ذى ذكر
قامت بأبريقها والليل معـكر
فأرسلت من فم الأبريق صافية
رقت عن الماء حتى ما يلاءها
فلو مزجت بها نوراً لمازجها
دارت على فتيمة ذل الزمان لهم
لعلك أبكى ولا أبكى المنزلة
فقل لمن يدعى في العلم فلسفة
وهذه ليلة من لياليه الماجنة :

بفتيان صدق ما ترى منهمو ذكرا
وبادر نحو الباب متملاً ذعرا
فقلت له افتح ، فتيمة طابوا خرا

وأحور ذمى طرقت فناءه
فلما قرعنا بابه هب خائفاً
وقال من الطراق ليلاً فناءنا

فأطلق عن أبوابه غير هائب
ومر أمام القوم يسحب ذيله
فقلت له : ما الاسم حميت قال لي
فكنا جميعاً من حلاوة لفظه
فقلت له جئناك نبتاع قهوة
فقال اربوا عندي الذي تطلبونه
فقلت فماذا مهرها قال مهرها
فقلت له خذها وهات نعلها
فشاك بأشفاء له بطن مسند
وجاء بها والليل ملق سدوله
ريبة خدر راضها الخدر أعصرا
إذا أخذتها الكأس كادت بريحتها
وما زال يسقينا ويشرب دائماً
ومن مجونه قوله في تفضيل الغلمان :

وعاذلة تاوم على اصطفاي
فقلت لها جهات فليس مثلي
بذا أوصى كقاب الله فينا
غلاماً واضحاً مثل المهابة
يخادع نفسه بالترهات
بتفضيل البنين على البنات

الرسالة :

روى أبو تمام يرنى نهد بن حميد الطوسي :

كنا فليجل الخطيب ، وليمدح الأمر
فليس لهين لم يفض ماؤها عذر

توفيت الآمال بعد محمد
وما كان إلا مال من قل ماله
وما كان يدري بمحمدى جود كفه
ألا فى سبيل الله من عطلت له
فتى كلما غاضت عيون قبيلة
فتى دهره شطران فيما ينوبه :
فتى مات بين الطعن والضرب ميمته
وما مات حتى مات مضرب سيفه
وقد كان فوت الموت سهلاً فرده
ونفس تعاف العار حتى كأنما
فأثبت فى مستنقع الموت رجله
غدا غدوة ، والحمد نسج ردائه
تردى ثياب الموت حمراً ، فما دجا
كان بنى نبهان يوم وفاته
يعزون عن ثاو تعزى به العلا
وأنى لهم صبر عليه وقد مضى
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة
فتى سلبته الخيل وهو حى لها

وأصبح فى شغل عن السفر السفر (١)
وذخراً لمن أمسى ، وليس له ذخـر
إذا ما استهلكت أنه خلق العسر
فجأج سبيل الله ، وانثغر الثغر
دما ضحكت عنه الأحاديث والذكر (٢)
فتى بأسه شطر ، وفى جوده شطر
تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
وقال لها : من تحت إخصك الحشر (٣)
فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
لها الليل إلا وهى من سندس خضر
نجوم سماء خر من بينها البدر
ويبكى عليه البأس والجود والشعر
إلى الموت حتى استشهدا هو والصبر
واكن كبراً أن يقال : به كبر
وبزته نار الحرب وهو لها جمر (٤)

- (١) السفر . المسافرون . يقول . إنه يموت . انقطع الآمال لأن الناس لم يكونوا يأملون إلا فيه . وشغفت الناس الرزية فيه عن أسفارهم وقضاء حاجاتهم .
(٢) يقول . إنه ما من قبيلة دحرت فى الحرب حتى فانس الدم من عيونها إلا ذكره الناس بالذخـر لأنه هازمها .
(٣) يريد أنه قد ثبت للموت فلا تحاول رجـله إلى أن يموت حتى كأن الحشر من تحتها .
(٤) بزته . يقال بزته ثوبه وابتزته وسلبته .

بواتر ، فهي الآن من بعده بقر (١)
يكون لأثواب الندى أبداً نشر
ففي أي فرع يوجد الورق النضر
لعهدى به ممن يحب له الدهر
فما زالت الأيام شيمتها القدر
فما عريت منها تميم ولا بكر
يشاركنا في فقدته البدو والحضر
وإن لم يكن فيه سحاب ولا قطر
بإسقامها قبراً ، وفي لحد البحر
غداة نوى إلا اشتهت أنها قبر
ويغمر صرف الدهر نائله الغمر
رأيت الكرم الحر ليس له عمر

وقد كانت البيض المآثر في الوغى
أمن بعد طي الحادثات مجداً
إذا شجرات العرف جذت أصولها
لئن أبغض الدهر الخشون لفقده
لئن غدرت في الروع أيامه به
لئن ألبت فيه المصيبة طيء
كذلك ما تنفك نفقد هالكاً
بقى الغيث غيثاً وارت الأرض شخصه
وكيف احتمالى للغيوث صنيمه
مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة
نوى في الثرى من كان يحى به الثرى
عليك سلام الله وقفاً فأنى
وقال ابن الرومي يرثى ابنه مجداً :

فجوداً فقد أودى نظير كما عندى (٢)
من القوم حبات القلوب على عمس
فله كيف اختار واسطة العقد
وآنت من أفعاله آية الرشيد
بعيداً على قرب قريباً على بعد
وأخلفت الآمال ما كان من وعد
فلم ينس عهد المهد إذ ضم في اللحد

بكاء كما يشفى وإن كان لا يجدى
ألا قاتل الله المنايا ورميها
توخى حمام الموت أوسط صديقي
على حين شمت الخبير من لحاته
طواه الردى عني فأضحى مزاره
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها
لقد قل بين المهد واللحد لبثه

(١) المآثر : جمع مأثور ، والسيوف المأثور القديم المتوارث . وبواتر : جمع باتر وهو القاطع
وبتر : جمع أبتر ، أى مقطوعة

(٢) بكاء كما : الخطاب لعمليه ، ولا يجدى ، لا ينفع ، وأودى : هلك

ألم عليه النرف حتى أحاله
وظل على الأيدي تساقط نفسه
عجبت لقابى كيف لم ينفطر له
وما سرنى أن بعته بثوابه
ولا بعته طوعا ولكن غصبته
وإنى وإن ممت بآبى بعده
وأولادنا مثل الجوارح أيها
لكل مكان لا يسد اختلاله
هل العين بعد السمع تكفى مكانه
لعمري لقد حلت بى الحال بعده
تلكت سرورى كله إذ تكلفه
أريحانة العينين والأنف والحشا
سأسقيك ماء العين ما أسعدت به
أعبنى جودا لى فقد جدت للثرى
كأنى ما استمتعت منك بضمة
ألام لما أبدى عليك من الأسى
محمد ماشى توهم سلوة
أرى أخويك الباقيين كليهما
إذا لعبا فى ملعب لك لذنا

إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد^(١)
ويذوى كاذوى القضيبي من الرند^(٢)
ولو أنه أقسى من الحجر الصلد
ولو أنه التخليد فى جنة الخلد
وليس على ظلم الحوادث من معد^(٣)
لذا كره ما حنت النيب فى نجد^(٤)
فقدناه كان الفاجع البين الفقد
مكان أخيه من جزوع ولا جلد
أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى
فما لمت شعري كيف حلت به بعدى
وأصبحت فى لذات عيشى أخا زهد
ألا لمت شعري هل تغيرت عن عهدى
وإن كانت السقيا من الدمع لا تجدى
بأنفس مما تسألان من الرغد
ولا شمة فى ملعب لك أو مهد
وإنى لأخفى منك أضعاف ما أبدى
لقبى إلا زاد قلبى من الوجد
يكونان للاحزان أورى من الرند
فؤادى بمثل النار عن غير ما قصد

(١) الجادى ، الزعفران ، وهو أصفر

(٢) الرند : الغار . وقد يسمى به الأس وهو نوع من الرمان .

(٣) معد من أعدى : بمعنى نهر وأطان

(٤) النيب : جمع ناب وهو الناقة المسنة .

النقد الأدبي

مقدم

لقد ركب في الفطرة الإنسانية والطبيعة البشرية ، غريزة الرضى والسخط ، والاستمسان والاستهجان . فكل إنسان مهما كان حظه من العلم ، ونصيبه من المعرفة ، خاضع لهذه الغريزة ، مستسلم لتلك الطبيعة ، يحب ويكره ، يقبل ويدبر ، ويرضى ويغضب ، ويتأثر حتما بما يمر به من صور الحياة ومظاهر الوجود ارتياحا أو انقباضاً ، ومعرفة أو إنكاراً ، وبهذه الغريزة استطاع الإنسان أن يتدرج في مدارج الكمال ، وأن يصعد في معارج الرقى ، لأنه حاول دائماً أن يحتفظ بما يحب ، وأن يثور على ما يكره ، ويمقت فيغير وضعه ، ويزيل أثره ، وأصبحت تلازمه فطنته إلى موطن الكمال ، وإحساسه بموضع النقص وهذه هي التي تسمى في عرف الناس بالنقد . فهو ليس إلا الإدراك والتمييز وقوة التمييز ، حتى يتسنى اختيار الأكل ، وانتقاء الأحسن . وعلى هذا قامت الحياة ، وتنقلت في أطوارها المختلفة . تسقيم أو تعوج ، وتسير على الجادة أو تنحرف .

ولا يعنيها من جوانب النقد إلا ناحية واحدة ، هي التي تقتل بالكلام ، وتبدل على مكان بلاغته ، وموضع قوته . وتعلم عن سموه وإبداعه ، أو تجلى عيوبه ، وتبرز مثالبه ، وتوضح مظاهر ضعفه وتهافته .

تعريف النقد

كان العرب يطلقون النقد والتنقاد والانتقاد على تمييز الدراهم وإخراج

الزيف منها ، وأنشد سيديويه في وصف ناقة :

تنتفى يداها الحصى في كل هاجرة نفى الدراهم تنقاد الصياريف ^(١)

(١) تنتفى ، تدفع ، الهاجرة شدة الحر ، الصياريف مفرد صيرفي : يباع النود بغيرها من النود ، يشبه نثرها الحصى بنثر الصيرفي الدراهم

ويقال عندهم : نقدت الدراهم وانتقدتها : أخرجت الزيف منها .
وهذا المعنى هو أنسب المعاني ، وأوثقها صلة بما تريده ، من كلمة النقد
الأدبي ، فهي تميز جيد الكلام من رديئه وصحيحه من زائفه وساميه من سوقيه
ولا يتأق للراء أن يصل إلى حكم صحيح وميزان صائب في هذا إلا إذا كان
ذا فهم ناضج ودراسة شاملة ، حتى يستطيع أن يقيس الأشياء بالأشياء ويقرن
النظير بالنظير ، ويوازن بين الأساليب المتحددة في المنزع والفكرة

النقد في الجاهلية :

وإن الناظر في تاريخ النقد الأدبي عند العرب يرى أن مولد هذا الفن
يقترب أشد الاقتران بمولد الشعر ، فهو استعجاب لما أبدعوا من هذه الصور
الفنية الخلابه ، أو استهجان لما يبدو فيها أحياناً من عدم استواء الخلق أو من
القصور في العبارة أو الفساد في المعنى أو الاضطراب في أداء المراد .
ونحن لا نستطيع أن نعرف مولد النقد الأدبي ، كما لم نستطع أن نحدد
بالضبط مولد الشعر العربي ، ولكن الشعر إذ وصل إلينا قبل الاسلام بنحو قرن
من الزمان في هذه الصورة المستوية صحبه النقد كذلك ، في صورة لا تخلو من
دقة وألمعية ، وإن سيطر عليها إجمال في الإشارة إلى مواضع الحسن أو القبح .
وكان أكثر النقد يرجع كذلك إلى أحكام عامة ، مدبها إشراق النفس وشدة
إحساسها وسرعة إدراكها للقوة أو الضعف والجيد أو الرديء ، وبقينها بأنه
لا يخفى شيء على ذوي الفطن وأهل البلاغة ومن يحسنون ذوق الكلام ويفرقون
بين مختلف الأساليب ، فلم يكن يعنيهم أن يعمقوا في بيان العلل وذكر الأسباب
ولا أن يقيضوا ويطنبوا في شرح المأخذ وتحليل العيوب ، إنما هي لمحات
يستشعرها الناقد ويتطامن إليها السامع لأول وهلة . ولعل الذي دفعهم إلى

ذلك أولا ما فطروا عليه — وهم أهل فصاحة وأمرء بلاغة — من قوة الحس
وشدة الإدراك وبقظة الوعي البلاغي وسمو الفطنة لما يمر بهم من رائع القول
وجزل الكلام .

ثم أغراهم بهذا اللون ما يكون بين الشعراء من تنافس على السبق وتزاحم على
أبواب الأمرء وذوى الجاه واليسار . فحاولوا الصقل والتجويد ، ورغبوا في
التنقيح والتعذيب ، حتى نشأ بينهم عبيد الشعر ومن عرفوا بأنهم أصحاب
الحوايات . وليس ذلك إلا التماساً للكمال ومجنباً للنقص .

وكانوا يجتمعون في الأسواق العامة والمحافل الجامعة ، ويتناشدون أشعارهم
ويقطارحون قصائدهم ، ويتبع ذلك استعراض لأنواع النقص ودلالته على
مكان السمو والقوة . حتى ليروى أن النابغة الذبياني كانت تضرب له في عكاظ
قبة من آدم فيجلس فيها ويتحاجم إليه الشعراء . وقد وفد عليه حسان بن ثابت
والخنساء ، فأنشده حسان قصيدته :

لنا حاضر فعم وباد كأنه شمرايح رضوى عزة وتسكرما
وأنشئت الخنساء في رثاء أخيها صخر :

قذى بعينك أم بالعين عوار أم ذرفت مذ خلت من أهلها الدار
فقال للخنساء : لولا أن أبا بصير — يقصد الأعشى — سبقك لقلت إنك
أشعر من بالسوق . وكان الأعشى قد سبق وأنشد قصيدته :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وما ترد سؤالي ؟
وقال لحسان إنك لشاعر ، فغضب حسان من ذلك أشد الغضب وقال والله
إني لأشعر منك ومنها فقال له النابغة إنك يا بني لا تحسن أن تقول
فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع
ويروى أنه تقدمه في بيتيه :

لنا الجنة الغر يامن بالضحى وأسيفنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى مجترق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنا
فقال له : أضمنت فخرك ، وأقلت جفانك وفخرت بمن وادت ولم تفخر
بمن ولدك

فنحن نرى أن الرغبة في السبق والظلم إلى علو المكانة وسمو المنزلة ، قد
دفع إلى اصطلياد المعاييب ، وتلقف المغامز ، كما أغرى بالدلالة على مكان الحسن ،
وسبب التفوق في بيت النابغة .

وهناك عامل آخر مكن للنقد وأرسى أساسه وأقام دعائمه ، ذلك هو
عصبية كل قبيلة لشاعرها وفخرها بما صدر عنه من قول وما أثر له من شعر والتماسها
لمعاييب غيره من الشعراء حتى يخلص لهم مجال العظمة ويتوفروا لديهم السبق والغلبة :
هذه بعض العوامل التي هيأت للنقد أن يوجد ومنحته البقاء ومكنت له في الحياة .
وإن من يستعرض أمثلته ويستحضر وقائعه من لدن الجاهلية يدرك أنه
كان يقوم دائما على البصيرة النيرة والذكاء النافذ والألمعية السريعة الطيعة

سمع طرفه وهو صبي منشدا ينشد قول المقامس :

وقد أتتني الهمة عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم (١)

فقال على الفور: استنوق الجمل. لأن الشاعر وصف البعير بالصيعرية وهي
من سمات الناقة لا البعير

ويروى أن امرأ القيس (٢) وعلقمة بن عبدة تحاكما إلى أم جندب الطائية
زوج امرئ القيس في أيهما أشعر فقالت لامرئ القيس : علقمة أشعر منك
لأنك قلت في وصف فرسك :

(١) الصيعرية : سمكة تكون في عنق البعير لا الناقة . وناج جمل سريرع ويقاب هذا في وصف
الناقة فيقال نأجية . ومكدم : صلب
(٢) الموشح ص ٣٠

فلاسوط أهلوب وللساق درة والازجر منه وقع أخرج مهنذب (١)
فضربت فرسك بسوطك وحر كته بساقك وزجرته بصوتك ، وقال
عاقسة في وصف فرسه :

فأدركن ثانيا من عنانه يمر كمر الراح المتحلب (٢)
فأدرك فرسه الصيد ثانيا من عنانه يمر كمر الراح المتحلب لم يضربه بسوط
ولم يقيمه . . ويروى أن النابغة الذبياني كان (٣) يقوي في شعره فقدم المدينة
وأنشد أهلها قصيدته :

أمن آل مية راح أو مفقدي عجلان ذا زاد وغير مزود
زعم البوارح ان رحلتنا غداً وبذاك خبرنا الغراب الأسود
وفيها :

سقط النصف ولم ترد إسقاطه فقتلناه واتقنا باليد
بمخضب رخص كأن بنانه غم يكاد من اللطافة يعقد
فميب عليه هذا الاقواء وقيل له : إنك تكفي الشعر فلم يأبه له فدرسوا
إليه قيمة تغنيه وتبين الياء في « مفقدي ومزودي » والضمة في « الأسود ،
ويعقد » ففطن لذلك فغيره وقال : « وبذلك تنعاب الغراب الأسود ، غم على
أغصانه لم يعقد » ، ولم يعد بعد ذلك يقوى في شعره وقال : « دخلت يثرب وفي
شعري شيء وخرجت وأنا أشعر الناس »

وأنشد الأعشى قيس بن معد يكرب (٤) أحد أشرف اليمين مديحاً له فلما
وصل إلى قوله :

(١) الأخرج : ذكر النعام والخرج بياض في سواد. ومهنذب أى مسرع في عدوه، ومعنى
للسوط الهوب، أى ياهب جريه حين يضرب به . وللساق درة أى إذا غمز در بالجري
(٢) ثنى عنان فرسه : جذبه نحوه . والراح : السحاب ، المتحلب التساقط المتتابع
(٢) س ٢٩ الموشح (٤) هـ ٥٦ الموشح

ونبتت قيساً ولم آتة وقد زعموا ساد أهل اليمن
فما به عليه ورده ولم ينفعه لديه إصلاحه له بقوله :

ونبتت قيساً ولم آتة على نأيه ساد أهل اليمن

ومن هذا نفهم أن النقد إبان العصر الجاهلي كان قائماً على الذوق والحس
والادراك العام وانفعال النفس وتأثرها لأول وهلة ، وأنه لم يكن يقوم على طول
التفكير وعمق البحث وطول تردد النظر . فذلك خلال الباحث الدارس الذي
يستجمع الشوارد ويستحضر النظائر ويطيل الموازنة بين هذا وذاك ويبحث
للتحليل والاستقصاء .

وليس نقدم في مظهره ونخبه إلا تمشياً مع الفطرة ، وانقياداً للسليقة التي
تعرف وتفكر وتستجيد وتستبجن ، وفقاً لما تقذوقه من أساليب وتألف من صور .
على أن النقد بعد أن وضعت له القواعد ونصبت الموازين لم يستطع أن ينقض
شيئاً مما ساقته الفطر ونبه عليه انفعال النفس وتأثرها ، لأنه عمل الطبيعة المستنيرة
التي لم يفسدها تصنع ولم يداخلها كذب في الحس والشعور .

النقد في صدر الاسلام :

جاء الاسلام بدعوة الحق والعدل والاخاء والمساواة والوحدانية ، وقام
الرسول يهدي إلى الله قوماً أولى بأس شديد وعصبية ، فكان الشعر
من أسلحته التي تحميه وتنصره ، كما كان كذلك من عدة خصومه ووسائل أعدائه .
فهو إذ ذاك ذو رسالة إيجابية في تلك الحياة الجديدة التي أظلمت بظلالها وأقبلت
عليهم بجلالها وجمالها .

استمع إليه وقد قال : إن من الشعر لحكمة .. وأنشده كعب بن زهير في

قصيدته : بانت سعاد :

وقال كل خليل كنت آمله لا ألهينك إني عنك مشغول (١)
 فقلت خلوا سبيلي لا أبالكم فكل ما قدر الرحمن مفعول
 أنبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
 فعفا عنه بعد أن كان أهدر دمه وأثابه وأفضل عليه
 وأنشده النابغة الجعدي :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وانا لنبغى فوق ذلك مظهرا
 فقال : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال إلى الجنة بك يا رسول الله ، فقال : نعم
 إن شاء الله ، فلما أنشده :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بواذر تحمى صفوه أن يكدرها
 ولا خير في جهل إذا لم يكن له حلیم إذا ما أورد الأمر أصدرها
 قال له : لا فض الله فاك

وأنشده قرة بن هبيرة قصيدته التي يقول فيها :
 فما حملت من ناقة فوق رحلها أبر وأوفى ذمة من مجد
 فخباه وكساه بردين وحمله على فرس .

ويعتقد العرب إذ ذاك للشعر وعرفانهم لقدره وفهمهم لرسالته كانوا
 ينفقونه ويدلون على موضع عيبه أو مظهر قوته . وكان نقدهم يتصل بالموضوع
 أو المعنى أو المبنى . ولقد روى عن رسول الله حين ذكر امرؤ القيس
 أنه قال : « كأنني أنظر إلى صفرته وبياض إبطيه وحموشة ساقيه في يده لواء
 الشعر يتدهدى به في النار » (٢) وقال عمر ذات مرة لابن عباس : ألا تلتشدني
 لشاعر الشعراء فقال يا أمير المؤمنين ومن شاعر الشعراء ؟ قال زهير لأنه

(١) لا ألهينك لا أشغلك عما أنت فيه

(٢) الحموشة : الدقة . يتدهدى : يتدحرج

لا يعاظم (١) بين الكلامين ولا يقتبِع وحشي الكلام ولا يمدح أحداً بغير ما فيه . فهذا نقد يرجع إلى بناء الشعر وموضوعه

ويروى أن ابن عباس كان يقول أشعر الناس زهير لقوله يمدح هرم بن سنان :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

قوم أبوهم سنان حين تنسبهم طابوا وطاب من الأولاد من ولدوا

جن إذا فزعوا إنس إذا أمنوا مرزؤون بها ليل إذا جهدوا (٢)

محسدون على ما كان من نعم لا ينزع الله عنهم ما به حسدوا

على أن النقد كان قائماً عندهم على الانفعال النفسي والتأثر الوقفي بما يقال .

فقد يقع القول من نفوسهم موقع الرضى والقبول فيهمشون له ويقدمونه على كل

ما سمعوا ، حتى إذا طرق سمعهم كلام آخر نسوا ما قدموا من حكم أو أسلفوا من

تقدير . يروى أن عمر خرج وعند بابيه وفد غطفان فقال أى شعرائكم الذى يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

لئن كنت قد بلغت عنى وشاية لمبلغك الواشى أغش وأكذب

ولست بمستبق أخا لآله على شعث أى الرجال المهذب (٣)

قالوا : النابغة ، قال : من القائل

خطاطيف حجن فى حبال متينة تمد بها أيدا إليك نوازع

فانك كالليل الذى هو مدرى وإن خلت أن المتناى عنك واسع (٤)

(١) المعاظة التعميد أى لا يعقده ولا يوالى بعضه فوق بعض

(٢) مرزؤون أى كرام ، والبهاليل جمع بهلول وهو السيد الجامع لسكل خير . وإذا جهدوا

أى أصابهم الجهد

(٣) الشعث التفرق والفساد . ويقال لم الله شعثك أى جمع ما تفرق من أمرك

(٤) الخطاطيف جمع خطاف . وحجن جمع أحجن وحجنا أى معوجة . ونوازع جواذب .

والمتناى ! المكان البعيد

قالوا : النابغة قال : فمن القائل :

إلى ابن محرق أعملت نفسي وراحلي وقد هدأت عيون
فألفيت الأمانة لم يحنها كذلك كان نوح لا يخون
أتيتك عارياً خلعاً ثيابي على خوف تظن بي الظنون
قالوا : النابغة ، قال : فمن القائل :

إلا سليمان إذ قال للمليك له قم في البرية واحدها عن الفند (١)
قالوا : النابغة . قال : هو أشعر شعراً لكم

فعمر جعل زهيراً أشعر الشعراء وجعل النابغة أشعر غطفان لما تملكه من
إعجاب بالمدنى وروعة في الأداء ودقة في التصوير ، وصدق في الوصف
والدارس لأطوار النقد ، يرى أنه قد استعجبت له في هذا العصر ناحية لم يكن يلتفت
إليها الجاهليون تلك هي ناحية الموضوع ، فلقد أصبح الناس يقدمون أو يؤخرون
على مقدار جلال الموضوع أو ضيقه وجده أو هزله وصدقته أو كذبه ، كما يشير
إلى ذلك قول الرسول في امرئ القيس وقول عمر في زهير ، وتصرف عمر مع
الخطيئة حين هجا الزبرقان بن بدر بقوله :

دع المسكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك أنت الطاعم الكاسي
ومع النجاشي حين هجا بني العجلان بقوله :

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة فعادى بني العجلان رهط ابن مقبل
قبيلته لا يخفرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل
ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الورد عن كل منبل
وما معي العجلان إلا لقولهم خذ المقب واحلب أيها العبد واعجل

(١) احدها أزجرها وامنعها . الفند بالتحريك : الظلم . . يشبه النعمان بسيدنا سليمان
المعظم إذ لم يكن لأحد من المخلوقين مثل ملكه

ولقد كان الرسول ينشد قول طرفة :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً وبأتيك بالأخبار من لم تزود
وكان لا يقيم بقاءه ويقول هذا من كلام النبوة . وكان يقول : أصدق
كلمة قالها لبديد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

على أن النقد مع ذلك لم يخرج عن الإجمال الذي كان يلزمه إلا خروجاً
قليلاً ، وسواء تناول اللفظ أو المعنى أو الموضوع ، فلا يتناول ذلك إلا
بنظرة لا تحب العمق ولا تعتمد إلى الاستقصاء والتحليل .

النقد في عصر بني أمية :

هذا في العصر الإسلامي الأول ، فإذا كان عصر معاوية قامت للشعر
دوائقه واجتمعت له حريقه ، ونصبت له موازين احتشد لها الذهن وأرهف فيها
الذوق واستيقظت العصبية وتنبهت السليقة وكثرت الملاحظات والمراجعات ،
فأصبح النقد أكثر دقة وأوفر عمقاً وأدنى إلى التحليل والتقويم . ولعل
لما كان بين الشعراء من سباق وتنافس وبين القبائل من عصبية عارمة تتحرى
مواطن الزلل ومكان العيوب ، دخل في استعمار ناره واتفاد شراره . فقد كانت
الخصومات مشوبة الأوار دائبة الاشتعال بين الشعراء لا يفتر لهم عداء ولا
يفغو لهم نأر . هذا جرير يقف للفرزدق والأخطل بهجوها وينهش أعراضهما
وكان يقف لجرير بضعة وأربعون شاعراً يترصدون عيوبه وينسقلون مزائقه .
ومن هنا اتجه النقد إلى الدقة والتحليل والاستقصاء ، فتناول أوزان
الشعر ومعانيه وألفاظه : فقد امتدح ذو الرمة قصيدة لاسكيت بأنه أحسن في
ترقيص قوافيها . . . وانتقد عبد الملك ابن قيس الرقيات لضعف قافيته حين أنشده .

إن الحوادث بالمدينة قد أوجعننى وقرعن مروتية

وجببئننى جب السنام ولم يتركن ريشا فى مناكبيه (١)

فقال له : أحسنت لولا أنك خنثت فى قوافيك

ودخل كثير عزة يوما على سكينه بنت الحسين ، فقالت له : أنت

القائل :

فأروضة بالحزن طيبة الثرى عجم الندى جشعائها وعرارها (٢)

بأطيب من أردان عزة موهنا وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها (٣)

أى زنجية منمنة تتبخر بالمندل الرطب إلا طاب ربحها . ألا قلت كما

قال سيدك امرؤ القيس :

ألم تريانى كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

واجتمع الكيت ببعض الشعراء فأنشدهم من شعره حتى إذا بلغ قوله :

أم هل ظمائن بالعلماء نافعة وإن تكامل فيها الأنس والشذب (٤)

عقد نصيب واحدة فقال له الكيت ماذا تحصى قال خطأك : باعدت فى

القول ، ما الأنس من الشذب ؟ — يريد أنه جمع بين أمرين لا سبيل إلى جمعهما —

واجتمع بعض الشعراء عند كثير عزة وفيهم عمر بن أبى ربيعة فأقبل كثير

على عمر ينقد قوله :

قالت تصدى له ليعرفنا ثم اغمز به يا أخت فى خفر

قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تشمد فى أثرى (٥)

(١) جب ! قطع

(٢) الحزن ! ما غاظ من الأرض . الجشع : نبات . العرار : بهار البر

(٣) الأردن جمع ردن كنفل وهو الكم . الموهن : من أوز الليل إلى نحو نصفه . المندل : العود

(٤) الشذب : ماء ورقة وبرد وعدوبة فى الأسنان

(٥) اسبطرت : أسرعت

وقال : إن الحرة إنما توصف بالحياء والامتناع وأنها مطلوبة لا طالبة وإن من يستعرض كثيراً من الأمثلة التي حفلت بها بطون الكتب وانجملت عنها مجالس الأدب في بيوت الخلفاء أو محافل الشعراء ، لا يرى بجلاء أن النقد في هذا العصر قد اتجه نحو الدقة والعمق والتفصيل كما أسلفنا وأنه أخذ يلتمس الملل ويعتمد على الأسباب الصريحة . ومن أمثلة ذلك التفصيل البارع ما يروى من أن الكميت عارض بأبيية ذى الرمة التي مطلعها : ما بال عينيك منها الماء ينسكب فقال :

هل أنت في طلب الأيقاع منقلب أم كيف بحسن من ذى الشيبة اللعب
وأنشدها ذا الرمة فقال له : ويحك إنك لتقول قولاً ما يقدّر إنسان أن يقول لك أصبت ولا أخطأت ، وذلك أنك تصف الشيء فلا تنجيء به ولا تقع بمبدأ عنه .

ومن أمثلة تقديم ما وصف به ابن أبي ربيعة من أن شعره موقعا من القلب وعلوفا بالنفس وما قدموا به عمران بن حطان على الشعراء لأنه يقول وهو صادق فيفوقهم وهم يكذبون ، وقالوا إن جريراً يعرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر . وكان جميل يقول في عمر بن أبي ربيعة إنه يجيد مخاطبة النساء وإن أحداً لم يخاطبهن بمثل ما خاطبهن به عمر ، وجرير يعترف للأخطا بأنه أشعرهم في وصف الحر ومدح الملوك وهكذا .

على أن النقد إلى أوائل العصر العباسي لم يجاوز الشعر ، لأن الأدب عندهم لم يكن له إلا مظهر واحد هو فن الشعر يسكنون فيه خواج نفوسهم ومكنون صدورهم ونبضات قلوبهم ، ويعبرون به عن نوازع الأفئدة وخطرات المشاعر . ولا بأس من أن نعرض هنا بعض الأمثلة التي تستبين منها مذاهبهم ، وتوضح فيها وجهتهم .

— ١ —

قدمت ليلى الأخيالية على الحجاج فأنشدته :
 إذا ورد الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دأبها فشفاهها
 شفاها من الداء العضال الذى بها غلام إذا هز القنـاة سقاها
 فقال لها : لا تقولى غلام ولكن قولى هام

— ٢ —

أنشد كثير عزة قوله :
 ألا ليتنا يا عز من غير ريبة بغيران نرعى فى خلاء ونعزب
 كلاذا به عرفنا يربنا يقل على حسنهما جرباء تعدى وأجرب^(١)
 إذا ما وردنا منهلاً هاج أهله إلينا فلا ننفك نرمى ونضرب
 فقالت له عزة : لقد أردت لى الشقاء الطويل :

— ٣ —

أنشد عبد الملك قول نصيب :
 أهيم بدعد ما حميت فإن أمت فوا حزناً من ذا يهيم بها بعدى
 فقال بعض الحاضرين : أساء القول أيجزن لمن يهيم بها بعده؟ قال عبد الملك :
 لو كنت قائلاً فماذا تقول قال :
 أهيم بدعد ما حميت فإن أمت أو كل بدعد من يهيم بها بعدى
 فقال عبد الملك : أنت أسوأ قولاً ، ثم قال الوجه أن يقال :
 أهيم بدعد ما حميت فإن أمت فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

— ٤ —

أُنشد ذو الرمة بلال بن أبي بردة يصيح :

رأيت الناس ينتجعون غيثاً فقالت لصديح : انتجعي بلالاً (١)

فلما سمع بلال : فقلت لصديح ، قال : يا غلام مر لها بقت ونوى .

ووقف أمام عبد الملك ينشده :

ما بال عيئك منها الماء ينسكب كأنه من كل مفرية سرب (٢)

فقال عبد الملك : وما سؤالك عن هذا يا ابن الفاعلة ؟ وكان بمحمد الملك

رمش (٣) فلا تزال عينه تدمع فتوهم أنه يعرض به .

— ٥ —

واسمأذن جرير على سكمينة بذت الحسين فلم تأذن له ، وخرجت جاريتهما

فقات : تقول لك سيدتى : أنت القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

قال : نعم ، قالت : أفلا أخذت بيدها فرحبت بها وأدנית مجلسها وقلت

لها ما يقال لمثلها ، أنت عفيف . نخذ هذين الألفين من الدراهم والحق بأهلك .

— ٦ —

وعابوا على النابغة اقضاءه في قوله :

تقاعس حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يرعى النجوم بآئب (٤)

(١) أى سمعت هذه العبارة ؛ « الناس ينتجعون غيثاً » . . وصديح اسم النابغة

(٢) كل جمع كناية أو كناية بالضم وهي من الزادة رقة مستديرة بحوزة عليها تحت الرمة

مفرية مشقوقة سرب الماء كفرح ! سال فهو سرب أى سائل

(٣) الرمش : تفتل في شعر الأهداب وحجرة في الجفون مع ماء العين

(٤) تقاعس : طال

على لعمر و نعمة بعد نعمة لو الله ليست بذات عقارب (١)
لأنه انتقل فجأة من وصف الليل إلى ذكر الممدوح من غير تخلص .

— ٧ —

عيب على طرفة قوله :

أسد غيل فاذا ما شربوا وهبوا كل أمون وطمر
فقيل : إنما يهبون عند الآفة التي تدخل على عقولهم ، وفضاوا قول عنقرة :
وإذا شربت فأنني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شائلي وتسكروني
إذ يخبر أن جوده باق لأنه لا يبلغ من الشراب ما يثلم عرضه . وقالوا إن
حساناً تبع طرفة وهو أعيب منه في قوله :

نوليها الملامة أن ألما إذا ما كان مفت أو لحاء

ونشربها فتتركنا ملوكا وأسدأ ما ينهينا اللقاء

فقول طرفة خير من هذا لأنه قال :

أسد غيل فاذا ما شربوا

فجعل لهم الشجاعة قبل الشرب ، وحسان قال : نشرب فنشجع ونهب كأنا
ملوك إذا شربنا ، فلهذا كان قول طرفة أجود وقول عنقرة أحسن لأنه احتس
من عيب الإعطاء على السكر وذكر أن السكر زائد في سخائه فقال : وإذا شربت
فأنني مستهلك .

وقال زهير :

أخي ثقة لا تهلك الحر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله

(١) أي ليس فيها ما يكدرها من من ونحوه

فهذا من أحسن الكلام ، يريد أنه لا يشرب بماله الخمر ، ولكنه
يبدله للحمد .

— ٨ —

وعابوا على الشماخ بن ضرار قوله :

إذا بلغتنى وحملت رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين
وقالوا : كان ينبغي أن ينظر لها مع استغنائها عنها ، فقد قال رسول الله
للأنصارية المأسورة بمكة ، وقد نجت على ناقة لها حين قالت يا رسول الله
إني نذرت إن نجوت عليهما أن أنحرهما فقال لبئس ماجزيتها .

ولقد عيب على ذي الرمة مقابلة الشماخ في هذا إذ يقول :

إذا ابن أبي موسى بلالا بلغته فقام بفأس بين عينيك جازر
وفضلوا عليهما في هذا المعنى قول عبد الله رواحة الأنصاري :

إذا بلغتنى وحملت رحلى مسيرة أربع بعد الحساء (١)
فشأنك فأنعمي وخلاك ذم ولا أرجع إلى أهلي ورأى (٢)
وقال الفرزدق في هذا المعنى :

علام تلفتين وأنت تحنى وخير الناس كلهم أمامي
متى تأتي الرصافة تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى (٣)

وجاء أبو نواس بعد ذلك فقال في هذا المعنى وأبدع فيه .

وإذا المطى بنا بلغن مجدأ فظهورهن على الرجال حرام

(١) الحساء جمع حسى وهو موضع رمل تحت صلابه . فإذا أمطرت السماء على ذلك
الرمل نزل الماء فمنعته الصلابه أن يفيض ومنعت الأرض السماء أن تنشفه . فإذا بحث ذلك
الرمل أصيب الماء

(٢) لا أرجع مجزوم لأنه دعاء فلاهى الجازمة له ومعناه اللهم لا أرجع (ص ٩٨ المشرح)

(٣) الأنساع جمع نسع بالسكسرة ، وهو سير ينسج عريضاً على هيئة أعنة النعال تشد به الرجال
والقطعة نسعة . والدبرة بكسر الدال وفتح الباء قرحة الدابة والجمع دبر بفتح الدال والباء وأديار

— ٩ —

أخذوا على الفرزدق قوله :

إذا التقت الأبطال أبصرت وجهه مضيقاً وأعناق الكهاة خضوع
فقالوا أساء القسمة وأخطأ الترتيب ، وإنما كان الأجدر أن يقول . أبصرته
سامياً وأعناق الكهاة خضوع ... وعابوا على الأخطل قوله في عبد الملك :
وقد جعل الله الخلافة فيهم لا يبيض لأعاري الخوان ولا جند^(١)
فقالوا : لو مدح به حرسياً لعبد الملك لقصر به :

— ١٠ —

وعابوا على الأحوص قوله لعبد الملك بن مروان :
وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مدق الحديث يقول ما لا يفعل^(٢)
فقالوا : إن الملوك لا تمدح بما يلزمها فعله كما تمدح العامة وإنما تمدح بالأغراق
والفضل بما لا يتسع غيرهم لبدله .

— ١١ —

ووفد عمر بن أبي ربيعة على عبد الملك فقال له أنت القائل :
أترك ليلى ليس بيني وبينها سوى ليلة إني إذا لصـبور
قال : نعم قال فبئس المحب أنت تركتها وبينك وبينها غدوة .
ولما أنشد عبد الملك قول كثير في أخذه الخلافة :
فما تركوها عنـوة عن مودة ولكن بحمد المشرفي استعـظامها
أعجب به أشد العجب ، وكان الأخطل حاضراً فقال ما قلت والله
يا أمير المؤمنين أحسن منه ، قال : وما قلت ؟ فأنشد :

(١) الخوان ، ما يؤكل عليه الطعام

(٢) مدق الحديث : مخلوط الحديث من مدق كنهه إذا خلطه

أهلوا من الشهر الحرام فأصبحوا موالى ملك لا طريف ولا غضب
ثم قال جعلتها لك حقاً وجعلك قد أخذتها غصباً قال صدقت إقراراً منه
بصواب ما ذهب إليه .

— ١٢ —

ويروى أن الأخطل حين أنشده قوله :
فاذا تعاورت الأكف زجاجها نفحت فشم رياحهما المزموم
أعجب به وقال للشعبي وكان حاضراً سمعت بمثل هذا ياشعبي؟ فقال الشعبي :
أشعر منه والله أعشى قيس حيث يقول :
من اللأنى حملن على المطايا كريح المسك تسقل الزكاما
فقال صدقت :

ويروى المرزبانى (١) أنه اجتمع بالمدينة راوية جرير وراوية نصيب وراوية
كثير وراوية جميل وراوية الأحوص ، فادعى كل منهم أن صاحبه أشعر . ثم
تراضوا بسكينة بنت الحسين فأتوها فأخبروها . فقالت لصاحب جرير أليس
صاحبك الذى يقول ؟ !

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمى بسلام
وأى ساعة أحلى للزيارة من الطروق ، قبح الله صاحبك وقبح شعره .
ثم قالت لصاحب كثير : أليس صاحبك الذى يقول ؟ !

يقر بعيمنى ما يقر بعينها وأحسن شئ ما به العين قرت
كأنى أنادى صخرة حين أعرضت من الصم لو تمشى بها العصم ذات
صفوحا فما تلقاك إلا بخيلة فمن مل منها ذلك الوصل ملت
خليلي هذا ربع عزة فاعقلا قلو صيكما ثم ابكيا حيث حلت

فليس شيء أحب اليهن ولا أقر لأعينهن من النكاح أفيحب صاحبك
أن ينكح قبحه الله وقبح شعره .

ثم قالت لصاحب جميل : أليس صاحبك الذي يقول :
فلو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلى
فإن وجدت نعل بأرض مضلة من الأرض يوما فاعلمى أنها نعلى
خلىلى فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبيلى
ما أرى لصاحبك هوى .. إنما يطلب عقله ، قبح الله صاحبك وقبح شعره .
ثم قالت لصاحب نصيب : أليس صاحبك الذي يقول :

أهيم بدعه ماحييت فإن أمت فواحرزنى من ذا يهيم بها بعدى
كأنه يتمنى لها من يعشيقها بعده ، قبح الله صاحبك وقبح شعره ، ألا قال :
أهيم بدعد ماحييت فإن أمت فلا صليحت دعد لذى خلعة بعدى
ثم قالت لصاحب الأحوص : أليس صاحبك الذي يقول ؟
من عاشقين نواصلا وتواعدا ليلا إذا نجم الثريا حلقا
باتا بأنعم عيشة وألذها حتى إذا وضع الصبح تفرقا
قبح الله صاحبك وقبح شعره . ألا قال : تعانقا .

وبروى المرزبانى ^(١) كذلك أن ذا الرمة أنشد بلال بن أبى بردة:
رأيت الناس يتجمعون غيثاً فقلت لصيدح انتجمى بلالا ^(٢)
فقال يا غلام اعلمها قتما ونوى . يريد بذلك قلة فطنة ذى الرمة للمدح .

(١) الموشح ص ١٧٨ . (٢) صيدح : اسم ناقته . قال المبرد قوله ، سمعت الناس
يتجمعون غيثاً . مكايمة ، والمعنى سمعت هذا اللفظ أى قائلاً ينطق بها .

النقد في العصر العباسي :

جاء العصر العباسي وقد تطورت العقول ، وتهدبت المدارك ، وانتظمت المعارف ، وتنوعت الثقافة وتبهرت للعرب عقلية ناضجة مميزة تنافس على خلقها وتكوينها معارف الفرس والروم . فكان لذلك أبلغ الأثر فيما نظم الشعراء من شعر وما قال الناثرون من نثر وما أنتج الجميع من ألوان الأدب وصوره ، كما كان له أثر واضح في روح النقد وتطوره واتجاهه إلى العمق والدقة والإحاطة . أخذوا ينقدون نقداً مفصلاً متصلاً بكل ناحية ، نقدوا ضبط الشعر وبنية الكلمات وإعرابها ، ونقدوا القوافي والأعاريض ، ونقدوا معاني الشعر وأخيلة الشعراء .

وظهر نوع من النقد هو أدق مأخذاً وأعمق منزعاً وأدعى إلى الوعي واليقظة والإحاطة . ذلك نقد الشعر من حيث اتصاله بقائله وارتباطه بالشاعر الذي نسب إليه ، ومعرفة صحيحه من منحوله . فذلك لا يستطيعه إلا من أوتي قوة الإدراك وشدة اليقظة والمعرفة الصادقة بطرائق الشعراء ومناحيهم . وألم بكثير من أحوال بيتائهم . فقد سلط على الشعر من حماد الراوية ومحمد بن إسحاق وأمثالهما ما أفسده وشكك في صحته . قال محمد بن سلام : « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به ، كان ينحل شعر الرجل غيره ، ويزيد في الأشعار ، كما أخبرني أبو عبيدة عن يونس قال : قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة فقال : ما أطرفتنى شيئاً ، فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر الخطيئة مدحاً لأبي موسى الأشعري ، فقال : ويحك يمدح الخطيئة أبا موسى ولا أعلم به ، وأنا أروى للخطيئة ، ولكن دعها تذهب في الناس »

ومن هنا تجرد أناس للتمييز والتفرقة بين الصحيح والمنحول ، وإن كان بعضهم ممن زادوا ووضموا ، وكانت من أشهرهم خلف الأحرر . حتى كانوا يقولون إنه أفرس الناس ببيت شعر ، ولقد سأله خلاد بن يزيد الباهلي : بأي شيء ترد هذه الأشعار التي تروى ؟ فقال له . هل تعلم أنت منها ما هو مصنوع لا خير فيه ؟ قال نعم . قال : أفتعلم في الناس من هو أعلم منك بالشعر ؟ قال نعم ، قال : فلا تنكر أن يعرفوا من ذلك ما لا تعرفه أنت .

وقال قائل خلف : إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما أبالي ما تقول فيه أنت وأصحابك : فقال له : إذا أخذت أنت درهما فاستحسنته فقال لك الصراف إنه رديء ، هل ينفعك استحسنائك له ؟

ولا ريب أن معرفة الصحيح من الموضوع والصادق من الكاذب تحتاج إلى دقة فهم ، وبعد نظر ، وإحاطة تامة بخصائص الشاعر ولون شعره وطريقة نظمه . وهذا لون جديد من ألوان النقد والدرس لم يكن موجوداً من قبل .

وظهر في هذا العصر لون جديد من ألوان النقد للشعر واستهجان طرائق الأقدمين والزراية بأساليبهم في الكلام وتصويرهم غير ما يحسون وما يجدون ، وكان شيخ هذا المذهب وإمام ذلك النقد ، الشاعر الموهوب أبو نواس . فقد غاب على الشعراء ابتداء قصائدهم بذكر الديار ومساءلة الأطلال والوقوف على الربوع الدوارس ، والدمن الطوامس . وظل يجر بهذا النقد في قوة وإصرار

ويقول : قل لمن يبكي على رسم درس

واقفاً ما ضر لو كان جلس

نصف الربع ومن كان به

مثل سلمى ولبنى وخنس

أترك الربع وسلمى جانباً

واصطبج كرخية مثل القبس

ويقول :

صفة الطالول بلاغة القدم

فاجعل صفاتك لابتة الكرم

لا تخرج بدارس الأطلال واسفنيها رقيقة السربال

لا تبك ليلي ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد ✓

كما وجد في هذا العصر رواة علماء يلزمون المحدثين ويعيبون أشعارهم لا يعيب
سوى حدائثهم ويفضلون عليهم المتقدمين لا لمزية سوى قدمهم . وهؤلاء الذين
يقول فيهم الجرجاني صاحب الوساطة ^(١) : إنهم يعملون بالنقص كل محدث ولا
يرون الشعر إلا القديم الجاهلي وما سلك به ذلك المنهج وأجرى على تلك الطريقة .
ويزعم أن ساقية الشعراء رؤبة وابن هرمة وابن ميادة ، فإذا انتهى إلى من
بعدهم كبشار وأبي نواس وطبقتهم سمي شعرهم ملحاً وظرفاً ، واستحسن منه البيت
بعد البيت استحسن الفادرة وأجراه مجرى الفكاهة — ثم يقول : وما أكثر
من ترى وتسمع من حفاظ اللغة ومن جلة الرواة من يلهج بعبق المتأخرين ؛
إن أحدهم ينشد البيت فيستحسنه ويستجيبه ويعجب منه ويختاره ، فإذا نسب
إلى بعض أهل عصره وشعره زمانه كذب نفسه ونقض قوله ورأى تلك
الغضاضة أهون محلاً وأقل مرزأة من تسليم فضيلته والقرار بالإحسان لمولد . حكى
عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنه قال : أنشدت الأصمعي

هل إلى نظرة إليك سبيل فيبيل الصدى ويشفي الغليل

إن ما قل منك يكثر عندي وكثير ممن تحب القليل

فقال هذا والله الديباج الخسرواني . لمن تنشدني ؟ فقلت : إنهما ليلتهما .

فقال : لا جرم والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر .

وظهر من ذلك لون آخر من ألوان النقد ونحو جديد من أنحاء الدرس .

ذلك نقد الشعراء لا في بيت أو أبيات بل في مجموع أشعارهم وجملة أوصافهم
واستعراض مذاهبهم وتلقف تاريخهم وأثره في خصائص أدبهم والامام عز القوم

روائعهم ووضعهم في طبقات على حسب قيمهم ومنازلهم . وأهم ما ألف في ذلك
كتاب الشعر والشعراء لأبي عبيدة المقوفى سنة ٢٠٩ وكتاب طبقات الشعر
لمحمد بن سلام الجعفى المقوفى سنة ٢٣٢ هـ ، وهو من أهم ما كتب فى النقد
لعرب تكلم فيه على القواعد التى اتخذها النقاد إمامهم فى البحث والنقد
وحوى كثيراً من آراء النقاد والمفكرين والأدباء واللغويين . وكانت هذه
الآراء مثابة لمن كتب بعده فى نقد الأدب أو سير الشعراء كالآمدى والجرجاني
وأبى الفرج ، وكذلك كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ
وظهرت الكتب التى استجاد أصحابها قصائد ذات طابع خاص وأشعار
تجمل روحاً عاماً كالفضائيات والحماسة . وهكذا .

وفى القرن الرابع الهجرى ظهرت الكتب التى توازن وتنقد وتحلل وتستعرض
تبرز خصائص الشاعر وقيمه الفنية أو تعلن مثالبه وتدل على ضعفه وتختلفه
من ذلك كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحرئى للآمدى ، وكتاب
لوساطة بين المتنبئ وخصومه للجرجاني ، وكتاب العمدة لابن رشيق ، وهكذا
من الكتب التى لا زالتنا نعيش على حسابها ، ونحيا على مداها حتى اليوم .

الرواية والرواية

- ١ -

العرب أمة بدوية تعتمد معيشتهم على الترحل والأسفار ، وتقوم حياتهم على الانتقال من مكان إلى مكان إنتجاعاً للرزق ، وسعيًا وراء العيش ، لا تسكنهم دور ، ولا تأويهم قصور ، إنما يقبهم لفح الهاجرة ، أو يمنهم من شدة البرد ، خيام يتخذونها من أصوافهم وأوبارهم . يحملونها على زواجلهم إذا طعنوا ، ويرسون أو تادها و يقيمون عمادها إذا أقاموا . ومن ثم لم يعرفوا الاستقرار الذي يدفعهم إلى العلم ، ويؤهلهم للحضارة ؛ ولم يجلسوا إلى معلم ، ولم تمكنهم ظواهر حياتهم وعوامل بيئتهم من أن يسكوا بالقلم أو يخطوا باليمين .

ولذلك اعتمدوا على الذاكرة يختزنون فيها ما عرفوا ، ويحققون بين ثمايلها ما يتردد بينهم من ألوان المعارف .

في ذاكرة العربي ما يعتز به ويحافظ عليه من أنساب القبائل وأشعارها ومفاخر أيامها ومآثور وقائعها ، كأنه مسطور في كتاب ومدون في صحائف ، لا يند عنه شيء ، لأن الحافظة الواعية تصونه ، والذاكرة القوية المطبوعة تحميه .

ولقد وصل إلينا الغريب العجيب عن رواية العرب وحفظهم ما يعده بعض الناس وهماً من الأوهام أو خيالا من الأخيلة . ولكنها القدرة البارة التي لم تعتمد على الكتب ولم تعول على الكتابة والتدوين . ويحدثون أن العربي كان يعرف سلسلة نسبه حتى ينتهي إلى نزار أو قحطان ، ويعرف كذلك أنساب القبائل فلا يغيب عنه شيء ولا يتسرب الخطأ إلى شيء مما روى . ووجد من العرب أناس تبجروا في علم الأنساب كدغفل وأبي بكر الصديق . ولقد كان

حسان بن ثابت إذا أراد هجاء قريش ذهب إلى أبي بكر ليعلمه الأنساب ، حتى يسأل رسول الله صلوات الله عليه منهم كما تسأل الشعرة من المعجين .
وكان للعرب عناية خاصة برواية الشعر ، إذ هو سجل مفاخرهم ، وديوان مآثرهم ، ومجمع أحداثهم ووقائعهم ، وعلمهم الذي لم يكن لهم علم أجل منه ، وكان لكل شاعر رواية خاص يتقلمد عليه ويروى عنه ، ويحتج لقوله ، ويظهر محاسنه . ويذيع أشعاره ، فامرؤ القيس كما يقولون رواية أبي داود الأيادي ، وزهير رواية أوس بن حجر ، والحطيئة رواية زهير وابنه كعب ، والأعشى رواية المسيب ابن علس .

— ٢ —

ولما جاء الاسلام انتقل العرب من حياة إلى حياة ومن نظام إلى نظام . فوجد بعد الاضطراب استقرار ، وبعد التثقل والارتحال سكن وإقامة ، وبعد الأمية علم وكتابة ، بيد أن الفتوح وما صاحبها من جهاد وكفاح ، والغزوات وما تتبعه من جد وأدب ، قد شغلتهم عن الشعر وصرفتهم عن روايته . فأصاب الرواية شيء من الفتور والاهمال .

— ٣ —

وفي عهد الدولة الأموية نشطت الرواية ، وانتمش رجالها ، ووجدوا تشجيعاً من الولاة والخلفاء لأغراض سياسية تحدثنا عنها فيما سلف ، وليستعينوا . بما يروون على فهم القرآن ومعرفة بلاغته ، وإدراك سمو وعظمتها ، ورأى العرب أن إحياء الشعر العربي والحرص على روايته إحياء لتاريخ حافل يعتزون بأحداثه ، ويفخرون بوقائعه ، ويقعجدون بما يحدث عنه من مكرمات ومآثر . ومن هنا حرصوا أشد الحرص على الرواية ، وتلقف أشعار القدماء ،

ومعرفة آدابهم ، وأخذوا يشدون إليها الرحال ويكابدون مشاق السفر والانتقال ، وأصبحت البراعة في رواية غرائب الشر تعدل القدرة في إنشائه ، والحفاوة بالرواية في قصور الخلفاء ومجائس الولاة لا تقل عن العناية بالشعراء المجودين ، والفحول المبرزين — وبذلك راجت سوق الرواية ، ونفقت بضاعتها ، وانقطع لها جماعة من أصحاب الملكات القوية وذوى الفطر الموهوبة ، أخذوا يرحلون إلى البادية ، يشافهون الأعراب ويجمعون الغريب ، وينقلون ما ورثوه من هذا التراث المجيد . وكانوا متخرجين في روايتهم ، متثبتين في كل ما يصل إليهم ، فلا يأخذون إلا ممن صححت عربيتهم ، وبعدها عن كل تأثير أجنبي ، كتيم وقيس ، وأسد وهذيل وبعض من كنانة وبعض من طى . أما القبائل التي جاورت قطراً أعجمياً أو اتصلت بأمة غير عربية يظن أنها تأثرت بها أو نقلت عنها شيئاً من لهجتها فلم يأخذ الرواة عنها شيئاً .

قيل إن الرواة الذين كانوا يقصدون قبائل البادية لم يأخذوا عن لحم وجمام لأنهما جاورا أهل مصر ، ولا عن بكر لمجاورتهم للفرس ، ولا عن ثقيف لمخالطتهم تجار اليمن ، ولا عن قضاة وغسان لحلوهم بالشام وهكذا . ولقد وجد كذلك من أعراب البدو قوم أوتوا قوة الذاكرة ووفرة الحفظ ، فأخذوا يرتحلون إلى الحواضر حاملين ما معهم من بضاعة مزجاة ، وتجارة رابحة . وبذل لهم الخلفاء والأمراء من جزيل المعطيات وسنى الهبات ما شجعهم على الرواية والانتطاع لها .

وإلى جانب رواية الشعر وحفظته وجد رواية الحديث إذ كان محفوظاً في صدور الرجال ، مصوناً في قلوب المساكين ، غير مدون في كتب . ووجد كذلك رواية ينقلون قراءات القرآن وما أثر عن الرسول صلوات الله عليه وعن صحابته في تفسير بعض آياته . وكان لكل ناحية من هذه النواحي رواية ، وقد يختص

الرواية بناحية أو يجمع كل الدواحي .. وظل رواة الشعراء كذلك يؤدون مهمتهم ويقومون بما كان يقوم به نظراؤهم من قبل . فكثير كان رواية جميل ، ومربع كان رواية جرير ، ومحمد بن سهل رواية الكميث ، وذو الرمة رواية الراعي .

أما الرواية العامة التي لقيت تقديراً، ووجدت تشجيعاً من الخلفاء والولاة ، فهي رواية أشعار العرب سواء في الجاهلية أو الإسلام . حتى كان الخليفة يستقدم الراوية إلى حضرته ، على بعد الديار وشط المزار ، ليسأله عن قائل بيت . ولقد سبقت من ذلك أمثلة في ثنايا بحوث الكتاب .

— ٤ —

ولقد جرى على الرواية في عصر بني العباس ما يجري عليها في زمن بني أمية إذ ظل الرواة يرحلون إلى البادية ، وبقي الأعراب الحافظون يفتقون من البادية إلى الحاضرة لبيع ما عندهم من أشعار ، وعرض ما يختزنون من آثار ، حتى فسدت لغتهم ، ولانت ألسنتهم ، وضعفت فصاحتهم ، ففقدت الثقة بهم ، وبارت بضاعتهم ، ولم يعد يرغب فيها أحد .

الرواية والاحتفال :

كانت الرواية أول الأمر هوية نفوس ألفتها ورغبتها قلوب أحببها وسجيتها عند بعض الناس ، حملتهم على أن يحفظوا ويختزنوا ما راعهم من أشعار ، وملك قلوبهم واستولى على مشاعرهم من القصائد .. ومن طبيعة المنبعث بشعوره ، المتعجب بإحساسه ، الذي لا يسيره غرض ، ولا تطفئ عليه منفعة ، أن يتحرى الصدق فيما ينقل ، ويتوخى الصحة فيما يجمع . ومن هنا حرص الرواة أول أمرهم على أن يبذلوا ما عندهم من غير أجر يبتغونه أو عطاء ينظرونه .

فلما رأوا شدة الرغبة فيما عندهم، وقوة الحرص على بضاعتهم، وكثرة ما أغدق عليهم من العطايا والمنح، بدأوا يطمعون، وأخذوا يجمعون عليهم تجارة تدر عليهم المكسب وتجلب لهم الربح. وبعد أن كانت الرواية هواية نفس أصبحت رغبة كسب، فقل فيها الاعتصام بالأمانة، والحرص على الصدق، والمبالغة في تحرى الصواب. وبذلك وجد الرواة الذين أضافوا إلى الحق باطلا، وإلى الواقع خيالا وإلى الحادثة أحداثا. كل ذلك لأن همهم الكسب، ووكدهم أن يروج ما اخترعوه ويسير في الناس ما وضعوه، فينالهم من وراء ذلك الأجر، ويصيبهم ما ملوا من كسب.

ولو بحثنا عن الدوافع والأسباب التي أدت إلى الوضع، ودعت إلى الاختلاق في الرواية لرجعناها إلى ما يأتي:

١ — كان الأعراب يتخذون الرواية وسيلة للكسب، وسببا لاجتلاب الرزق، فينفذون إلى الحواضر بما عندهم للحصول على المال، فإذا نفذ، ما يحفظون عمدوا إلى الوضع والاختراع.

ومحمد بن سلام الجعفي يحدثنا أن ابن داود بن مقمم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي من الميرة. فأتاه أبو عبيدة وابن نوح فسألاه عن شعر أبيه، وقامأله بحاجته وكفياه مؤونته، فلما نفذ شعر أبيه مقمم جعل يزيد في الأشعار ويضعها، فإذا كلام دون كلام مقمم، وإذا هو يحقن على كلامه، فيذكر الموضع التي ذكرها مقمم والوقائع التي شهد بها. فلما توالى ذلك علما أنه يفتعله.

والأصمعي يقول عن أعرابي اسمه أبو ضمضم إنه أنشد لمائة شاعر كلهم يسمى عمرو. ويقول الأصمعي: فعددت أنا وخلف الأحمر فلم نقدر على ثلاثين.

٢ — حرص الرواة على إرضاء الأمراء وذوى الجاه وأصحاب النفوذ

برواية ما تطرب له نفوسهم ، وتفتتح له أسماعهم ، من مدائح يزعمون أن آباءهم مدحوا بها في القدم ليرضوا غرورهم ، كما قال ابن سلام : أخبرني أبو عبيدة عن يونس قال قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري فقال : ما أطرفتني شيئاً . فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئة مدحاً لأبي موسى الأشعري . فقال : ويحك ، يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أهل به وأنا أروى للحطيئة ولكن دعها تذهب في الناس

وصاحب الأغاني يروي أن حمادا تقرب إلى خالد بن عبد الله القسري باختراع أبيات نسبها إلى قيس ابن الحداية يمدح بها أسد بن كرز حين نزل به قوم فأكرمهم وأحسن إليهم وتحمل عنهم ما أصابوا من دماء . قال على لسان قيس :
وقد حللنا بقسري أخى ثقة كالبدري يجلو دجى الظلماء والأفقاء
لا يجبر الناس شيئاً هاضه أبداً يوما ولا يرتقون الدهر ما فتقوا
كم من ثناء عظيم قد تداركه وقد تفاقم فيه الأمر وانخرقا
يقول أبو عمرو الشيباني : إن حمادا أنشد خالداً هذه الأبيات فوصله .
والقوليد فيها بين جداً .

٣ — فسق بعض الرواة وفساد مروءتهم ورغبتهم في الكذب والوضع والاختلاق ، لشهوة تحسبها أنفسهم ، وشفاء لداء يتغلغل في صدورهم ، ورغبة في إظهار السبق والتفوق ، وقد كان على رأس هؤلاء الكذابين الوضاعين حماد وخلف الآخر — أما حماد فيقول عنه المفضل الضبي : « لقد سلط على الشعر من حماد ما أفسده فلا يصلح أبداً ، فقييل له : وكيف ذلك ؟ أيخطيء في روايته أم يلحن ؟ قال ليعته كان ذلك . فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب . ولكنهم رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم . فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ، ويدخله في شعره

وبحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟ »

ولقد أقر حماد بحضرة الخليفة المهدي وهو ولي للعهد بما زاده من عنده في شعر زهير بن أبي سلمى ، حتى أمر حاجبه فأعلن في الناس أن يبطل رواية حماد وأما خلف فإنه كان كما يقول ابن سلام : أفرس الناس ببیت شعر . ويقال إنه وضع لأهل الكوفة أشعاراً كثيرة ثم نسك في آخر حياته فأنبأهم بما وضع فلم يصدقوه أحد . واعترف هو الأصمعي بأنه وضع أشعاراً . وقيل إنه وضع لامية العرب على الشنفرى ولامية أخرى على تأبط شرّاً رويت في الحماسة .

٤ — وهناك سبب آخر للوضع والاختلاق ، لم تدفع إليه رغبة ، ولم تهينه إرادة أو اكتساب . فإن بعض الحفاظ من الرواة حين يتزاحم لديهم ما حفظوا قد يخلط عليهم بعض التشابه ، ويلتبس لديهم المتقارب في المعنى أو في الوزن أو المتفق في الروى . فتد يخلطون أبيات قصيدة بأبيات قصيدة أخرى ، أو ينسبون أبيات شاعر إلى شاعر آخر وهكذا ، حتى لقد نسبوا الأبيات الآتية إلى ابن الدمينه وإلى نحو أربعين شاعراً وهي :

أقضى نهاري بالحديث وبالمنى	ويجمنى والهم بالليل — جامع
نهاري نهار الناس حتى إذا بدا	لى الليل شاقفتنى إليك المضاجع
لقد ثبتت فى القلب منك محبة	كما ثبتت فى الراحقين الأصابع

أشهر الرواة :

هذا ولقد كثر الرواة كثرة عظيمة ، ومن بينهم حماد الراوية المتوفى عام ١٥١ هـ ، وخلف الأحمر المتوفى عام ١٧٥ هـ وأبو عمرو الشيباني ، وأبو عمر بن الملاء م ١٥٤ هـ ، والأصمعي م ٢١٧ هـ ، وأبو عبيدة معمر بن النخعي م ٢٠٩ هـ

الغناء العربي

وأشهر الممخنيين

— ١ —

يحس الإنسان في أعماقه طرباً ونشوة ، ويشعر في أطوائه بسرور ولذة ،
وتتملكه أريجية وهزة حين يطرق سمعه نغم جميل ، أو يكاد يستأذن على قلبه
صوت ندى ، أو يثير مشاعره توقيع مهذب ساحر فطرة فطر الله عليها
الإنسان ، وجبلة أودعها فيه . ومن هنا ترى المرء حين تنساب إلى سمعه ،
وتسيطر على حواسه الأنغام الحاملة تهز أريجيته ، وتثير نشوته ، وتحرك كامن
شجوه ، وتوقظ غاف زهوه ، وتدفعه إلى الجود ، وتبعثه نحو المكارم والسودد ،
وتجعله يخوض الغمرات ، وبقبح المصاعب .

ولعل الإنسان لأول ما استمغنه الطرب ، واستباه الحسن ، اندفع يشدو ،
وانطلق ينغم ويرجع في صوته ، متخذاً من أنغام الكون المحيطة به ، وترجييع
الطبيعة الصاخبة من حوله ، مصدراً لفغاته ، وترجيماً لآهاته . فكان من ذلك
ما جرى على لسانه من شعر ، وما تردد في منطقته من وزن ، تنساب فيه عاطفته ،
وتعوج أشجانه .

والعربي في جزيرته الواسعة المترامية الأطراف المنبسطة الرقعة ، كان أكثر
حاجة إلى الغناء ، يسرى به عن نفسه ويذهب الوحشة عن فؤاده ، حين يضرب
في البعيداء بناقته ويقطع الفيافي والصحارى براجلته ، فيستحثها على المسير ويحفز
من نشاطها في الرحلة . ومن هنا نشأت أشعارهم وتولدت أوزانهم ثم اطردهموها
وانسعت بحورها وتطورت رسالتها في الحياة .

لقد كان العربي في الجاهلية يحدو إبله وينفث شجوه في صبحه ومساءه ،
وصيفه وشتائه ، تدعوه رهبة الصحراء ، وسعة البعداء ، وانفساح الآفاق ، إلى
أن يردد ما يجري على لسانه وينغم ما يتفجر من يمانه ، فلا يقهر لنفسه رغبة ،
ولا يدخر عنده متعة . وأى قوة تسكت الهزار حين يصدح ، وترهب الطائر
الفرد حين يزقزق ويمرح .

كذلك كان العربي في جاهليته يملأ آفاق الجزيرة غناء وشدوا ، ولعل من
العبث العاثر أن نحاول البحث عن أول من غنى ، وأن نذهب مع المذهبيين إلى
أن أول من غنى في العرب قينتان لمعاوية ^(١) بن بكر يقال لهما الجرادقان ،
ومن غنائهما :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم لعل الله يصحبنا غماما

فالغناء جزء من حياة العربي ، بل وشطر لذته ، ومدعاة نشوته ، ومبعث
سعادته ، وإن كان لم يعرف في الجاهلية إلا ماتدفعه إليه الفطرة ، وتبعثه عليه
الطبيعة حتى ليقال إنه لم يعرف إذ ذاك إلا النصب والسناد والهزج . فالنصب
غناء الركبان والقيينات وهو الذي يستعمل في المراثي ، والسناد هو الغناء الثقيل
ذو الترجيع الكثير النغمات والذبرات ، وهو الذي كلن يغنى به في غير الحدا ،
والهزج هو الخفيف النغمات الذي يرقص عليه الأهراب ويصحب بالدف
والمزمار فيطربهم ويستخف حاماءهم وذوى الوقار فيهم .

كذلك لم يكن يعرف العربي من أدوات الطرب إلا الدف والمزمار .
وكانت منتشرة في المدن كيثرب ومكة والطائف وصنعاء ومأرب وغيرها من

(١) يقول ابن عبد ربه : إنهما لعاد (ج ٣ ص ٢٨)

بلاد العرب . . أما في البادية فلم يكن غناء البدو إلا ترنماً بالشعر مفرداً
وحداء الابل لا تصحبه أداة .

- ٢ -

ولما جاء الإسلام حمل الناس على الجدل الذي لا ينسرب إليه هو ولا عبث
وشغلهم عن لذات النفس وشهواتها وملأ حياتهم بالدأب والعمل ، بعد أن كان
يسيطر عليها الفراغ والدعة . فشغلوا بذلك وبالجهاد ونشر الدعوة عن الغناء
والشعر ، وانصرفوا عن المفاكهة والمعابشة ، فلم يعد أحد يشغل نفسه بالغناء ذلك
الشغل الذي يدعو إلى الابتكار والتجديد ، فقلت الدواعي له وفقرت الرغبة
فيه . وإن كان قد بقي يؤدي بعض أغراضه في حدود مباحة عند المسلمين
ودائرة ضيقة عند المشركين الذين صرفوا كل همهم إلى مجاهدة الدعوة الجديدة
ومحاربة أصحابها . . . لقد خرج صببية يثرب والنساء غداة وصول النبي صلوات
الله عليه إليهم مهاجرين يستقبلونه ومعهم الدفوف وهم يغنون :

طامع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

ويروى كذلك أن جماعة من نساء قریش كن يضربن علي الدفوف
في غزوة أحد . وكانت هند بنت عتبة تغني أثناء هذا العزف بمقطوعات منها :

إن تقبلوا نعانق ونفـرش المنـارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستحسن الغناء العف . وقال لعائشة يوماً
أهديتم الفتاة إلى بعليها ؟ قالت : نعم قال : فبعثتم لها من يغني ؟ قالت : لا قال :
أو ما علمت أن الانصار يعجبهم الغزل ؟ ألا بعثتم معها من يقول ؟

أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ فُحِيبُونَا نَحْمِيكُمْ

ولولا الحبيبة السمرا لم نحلل بواديكم

وقيل إن الرسول صلوات الله عليه مر بجارية في ظل غار وهي تغنى :

هل على ويحكم إن لهوت من حرج

فقال : لا حرج إن شاء الله.

وفي الصحيحين عن عائشة أنها قالت : لما قدم رسول الله المدينة وعك

أبو بكر وبلال وكان بها وباء . فقلت يا أبت كيف تجدك ويا بلال كيف تجدك ؟

فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبغ في أهله والموت أدنى من شرك نعله

وكان بلال إذا أقلمت عنه الحمى يرفع عقيرته ويتغنى ويقول :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولى إذخر وجليل

و هل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لى شامة وطفيل

قالت عائشة : فأخبرت رسول الله بذلك فقال . اللهم حبب إلينا المدينة

كحبنا مكة أو أشد .

كان هذا النزر اليسير فى صدر الإسلام استجابة للفطرة وتساوقاً مع الطبيعة

وإراحة للقلوب التى أضناها الجدد وتخفيفاً عن النفوس التى أرهقتها الجهاد .

أما فى عصر بنى أمية فقد انتعش الغناء واستمعياً فنه وازدهرت روضته

وأخصبت بيئته وكثر عشاقه ووجد من ألوان التشجيع وبواعث النماء والقوة

ما مكن له وهياً أسباب الذبوع والانتشار

وكان الحجاز بيئته المحصنة ومربعه الرحيب، إذ احتجز الخلفاء فيه شباب

الماشعين، وأغدقوا عليهم وافر الأموال وأغرقوهم فى النعيم، مما جعلهم يركنون

إلى الفراغ ويقطأ منون إلى الدعة ويحبون في اللهو . فأقبلوا على المقع ، وأسرفوا في الشهوات وعكفوا على السماع ، وتفننوا فيه ، واقتنوا القيمات يغنين بأصوات ناعمة تثير الطرب وتسقو على الحس وتملك المشاعر .

ثم انتقلت عدوهم إلى حواضر المملكة وعواصم الدولة . فاستمع الخلفاء والأمراء إلى الغناء وتنافسوا في اقتناء المغنين والمغنيات وشارك بعضهم في الغناء ووجدوا أصواتاً وغنى بها .

فقد كان عمر بن العزيز من أحسن الناس صوتاً وكان مولعاً بالغناء في شبابه وحين ولايته المدينة ، وقد وضع أصواتاً وغنى بها ومما نسب إليه صنعة في هذه الأبيات .

علق القلب سعاداً عادت القلب فعاداً

وهو مشغوف بسعدى قد عصى فيها وزاداً

واقدر كان تشجيع الغناء وشدة الرغبة فيه وكثرة الإقبال عليه باعثاً على إيجاده ، داعياً إلى التفنن فيه والابتكار في ألحانه والتجديد في طرائقه . ويقال إنه زادت عليه ألحان فارسية أو رومية زادت في جماله وروعة تأثيره .

ويرجع السبب في ذلك إلى أن عبد الله بن الزبير أحضر عمالاً من الفرس لتجديد الكعبة بعد ضربها بالمنجنيق أثناء خروجه على عبد الملك . فكانوا يغنون بالفارسية ، فسمعهم سعيد بن مسحج مولى بنى مخزوم وهو مكي أسود ، فالتقط النغم منهم ، وغنى به في لفظ عربي وقيل إنه سمع الغناء من بعض بنائين أحضرهم معاوية من الشام لبناء دور في مكة فأعجبه غناؤهم فاقبض منه وغنى على شاكته بالعربية ، ثم سافر إلى الشام وإلى فارس فأتقن فن الغناء وأخذ عنه من جاء بعده من المغنين في مكة ، مثل ابن سريج والفريض وغيرهما ، وعن الفريض أخذ سعيد .

ومن أوائل ماصنع سميح بن مسجح من أصوات هذه الأبيات من شعر الأحوص:

منى على عان أطلت عناءه قد يملك الحر الكريم فيسجح
أسلام إنك قد ملكت فأسجحي في الغل عندك والعناة تسرح
إني لأنصحكم وأعلم أنه سيان عندك من يغش وينصح
وإذا شكوت إلى سلامة حبها قالت أجد منك ذام تمزح؟
ويقال كذلك إن سائباً مولى عبد الله بن جعفر هو أول من غنى في
العربية الغناء الثقيل وكان بالمدينة وقد نقله عن الفارسية من مغن فارسي اسمه
نسيط وعنه أخذ معبد وجميلة وعزة الميلاء .

وكانت المدينة تنافس مكة تنافساً شديداً في كثرة المغنين والمغنيات
وطرائق الغناء ، حتى ابتكر المدنيون طريقة تخالف طريقة المكين .
ولقد كثر المغنون في الحجاز كثرة عظيمة حتى كانوا يخرجون إلى
الحج قوافل .

أما الخلفاء فقد بذلوا من ألوان التشجيع وبواعث الرغبة في الغناء ما جعل
يذيع وينتشر ، ويحتل مكاناً ممتازاً في نفوس الناس .

يروى ابن عبد ربه أن ^(١) معاوية كان يعيب على عبد الله بن جعفر سماع
الغناء ثم أقبل معاوية حاجاً فنزل بالمدينة ، ومر ليلة بدار عبد الله بن جعفر فسمع
عنده غناء على أوتار فوقف ساعة يستمع ثم مضى وهو يقول : أستغفر الله أستغفر
الله ، فلما انصرف من آخر الليل مر بداره أيضاً فإذا عبد الله قائم يصلي فوقف
لبستم قراءته فقال : الحمد لله ثم نهض وهو يقول : « خلطوا عموماً الحامئاً »
وآخر سبيئاً عسى الله أن يقوب عليهم » ، فلما بلغ ذلك ابن جعفر صنع طعاماً

ودعا إليه معاوية وأحضر أحد المغنين فلما وضع معاوية يده في الطعام حرك
المغنى أوتاره وغنى بشعر عدى بن زيد :

يا لبيني أوقدى النارا ابن من تهو بن قد حارا
رب نار بت أرمقها تقضم الهندي والغارا
ولها ظي يؤججها عاقد في الخصر زنارا

فأعجب معاوية غناؤه حتى قبض يده عن الطعام وجعل يضرب برجله
الأرض طرباً . فقال له عبد الله بن جعفر يأمر المؤمنين ؛ إنما هو مختار الشعر
يركب عليه مختار الألحان ، فهل ترى به بأساً . فقال : لا بأس بحكمة الشعر مع
حكمة الألحان .

ويروى أنه سمع عبد الله بن جعفر يغنى في أول الليل فطرب وقال . والله
إني لأسمع شيئاً تسكاد الجبال تحر له وما أظنه إلا من تائقين الجن ، ثم سمعه في
آخر الليل فقال : هؤلاء قومي ملوك بالنهار ورهبان بالليل .

وكان يزيد يسمع الغناء ويطرب له ويقضى الجوارى المغنيات .

وكان هشام لا يسمع إلا من مغن محتشم ، أما أخوه سليمان فكان غيوراً على
الغناء حتى إنه سمع مغنياً فقال : والله ما أحسب أني أسمع هذا إلا صبت وأمر
به فخصى . وأما يزيد بن عبد الملك فكان له شغف بالغناء وولع خاص به ولم
يسمع بجارية حسنة الصوت إلا اشتراها مهما بلغ ثمنها وكان يقول : ماتقر عيني
بما أوتيت من الخلافة حتى أشتري سلامة وحبابة . فلما اجتمعا عنده قال : أنا
الآن كما قال القائل :

وألفت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالأياب المسافر

. وكذلك كان ابنه الوليد . كان يطرب للغناء ويشارك فيه ويقضى المغنيات .

وله في هذه الصناعة حذق ومهارة .

ومما نسب إليه صنمته في قوله هو :

وصفراء في الكأس كالزعفران سبأها التعجيبى من عسقلاف

تربك الفسادة وعرض الإنا ستر لها دون ستر البنان

ولا شك أن هذه العناية البالغة بالغناء والمغنين قد عادت على الشعر بالرواج والذيع والتهذيب والصقل وأكسبته عذوبة اللفظ ورقة الأسلوب وروعة المعنى، إذ كان الشعراء يتنافسون في تجويد الشعر حتى يقداوله المغنون .

يروى أن نصيبا والأحوص وكثيرا خرجوا إلى العميق فأنهوا إلى مكان به رجال ونساء وكراسى مصفوفة فجلس كل واحد منهم على كرسى، ثم أقبلت جارية جميلة فقالت لها مولاتها : خذى من قول النصيب :

ألا هل من البين المفرق من بد وهل مثل أيامى بمنقطع السعد ؟

تمنيت أيامى أولئك والمنى على عهد عاد ماتعيد وما تبدى

فغنته ثم قالت لها خذى في قوله :

أرق الحب وعاده سهده لطوارق الهمم التي ترده

وذكرت من رقت له كبدي وأبى فليس ترق لى كبده

لاقومه قومى ولا بلدى فنكون حينما جيرة بلده

قال نصيب: فوالله لقد زهوت زهوا حتى خيل إلى أنى من قریش وأن الخلافة لى، ووثب الأحوص وكثير وأسرع بالخروج حسدا لنصيب وما ناله من شرف التغنى بشعره ... ومن أشهر المغنيين في هذا العصر :

سعيد بن مسجع ، وابن سريج والغريض ومعبد وطريس وسائب خاثر

وابن عائشة وابن محرز وجميلة وبرد القواد ونؤوم الضحى وعزة الميلاء وسلامة

القس وغيرهم .

جاء العصر العباسي وصحبه من ألوان القرف ومظاهر الحضارة وابن
العيش وجمال الحياة ما لم يألفه العرب من قبل . فارتقى فن الغناء وتغلغت آثاره
في كل وسط وكل بيئة ، حتى شغف به المحزون والفرح لأنه تمثيل لمواقف
النفوس ومشاعرها وخوارج القلوب ونوازعها ، وبعد أن كانوا في أيام بني أمية
لا يعامونه إلا الجوارى الود والصفر استثنى البرامكة سنة تعليم الجوارى
البيض الحسان ليضفي حسنهن على الغناء أثراً رائعاً وتبهييجاً بارعاً . ومن هنا
زادت قيمة هن حتى قيل إن الرشيد ابتاع جارية مغنية بمائة ألف دينار واشترى
أخرى من إبراهيم الموصلي بستة وثلاثين ألفاً . واشترى محمد الأمين جارية من
جعفر بن الهادي بأكثر من ألف ألف دينار

وقد عنى الخلفاء والأمراء وذوو اليسار عناية فائقة بالغناء والمغنين فكانت
محال السمر حافلة بأندام صوتاً وأجلهم توقيماً وأحسنهم وجهاً وأشرقهم
سمماً . وقد اتخذ الخلفاء من المغنين ندماء لا يفارقونهم إلا على موعد . وكان
المغنى يطلب من الخليفة أن يجيزه في الأسبوع يوماً يفرغ فيه لشأنه ويعكف
على خاصة نفسه . وبلغ من علو منزلة المغنين أن قصدهم بعض الخلفاء في منازلهم ،
وهذا هرون الرشيد يقصد منزل إبراهيم الموصلي في جنح الليل فيأكل من
طعامه ويسمع منه ومن جواريه ، وكانوا يعقدون المجالس المفاضلة بين المغنين
والحكيم عليهم حتى قيل :

إن الرشيد جمع يوماً بين المغنين المتمصين للقديم منهم كإبراهيم الموصلي
وابنه اسحق والمتشيعين الجديد كإسماعيل بن جامع . ثم أمر إبراهيم أن
يغنى فغنى الصوت :

وقفت على ربع ليلة ناقتي فما زلت أبكي عنده وأخطبه

وأسقيه حتى كاد مما أبته تكلمنى أحجاره وملاعبه
فكان كل من فى المجلس يحببه بترديد صوته وطرب الرشيد حتى كان
يقوم ويعد ثم أمر ابن جامع فغنى :

كأن أحور من غزلان ذى بقر أعارها شبه العينين والجيدا
أجرى على موعد منها فتخلفنى فما أمل ولا توفى المواعيدا
كأننى حين أمسى لا تكلمنى ذو بغية يبتغى ما ليس موجودا
فاستخف الطرب الرشيد أيما استخفاف، ثم غنى إسحق :

عجبت لسمى الدهر بينى وبينها فلما انقضى ما بيننا سكنى الدهر
فيا حبها زدنى جوى كل ليلة ويا سلاوة الأيام موعداك الحشر
وإنى لتعرونى لذكراك هزة كما انقضض المصفور بالله القطار
هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صبر
فكاد الرشيد يخرج من ثيابه طربا وقال : والله ما الغناء الذى يلين
المرىكة ويفسح فى الرأس والصدر ويحدث فى النفس طربا إلا غناء إسحق .
ثم وزع على المغنين الجوائز من ألف دينار إلى خمسمائة .

ولقد أقبل بعض الخلفاء والأمراء على الغناء بتمامه حتى أبجاده الكثير
منهم : كإبراهيم بن المهدي وأبى عيسى بن الرشيد وعبد الله بن الهادي
وعبد الله بن الأمين .

هذا وقد أدى تعلق الناس بالغناء وعكوفهم عليه أن جدد فيه إبراهيم
ابن المهدي واخترع من الألحان ما لم يكن موجودا ولما عيب عليه ذلك قال :
أنا ملك وابن ملك أغنى كما أشئى وعلى ما ألتذ : وشايعة كثيرون ممن رضوا
طريقتهم واستحسنوا مذهبهم وخالفوه من ألفوا القديم وعكفوا على اللاحن المعروف

وأصبح الغناء في هذا العصر يتنوع إلى جديد له أشياعه ومحبووه وقديم له أنصاراؤه والمتعصبون له .

فأنصار القديم : إبراهيم الموصلي وإسحق الموصلي ومخارق وعريب وبذل وسليم بن سلام وأحمد بن يحيى ومحمد بن حمزة وغيرهم .

وأنصار الجديد : إبراهيم بن المهدي وإسماعيل بن جامع ويحيى المكي ويعقوب بن المهدي وأخته علمية وعبد الله بن الهادي وغيرهم .
وكان رقى الغناء باعتماداً على رقى الشعر وتجويده حافظاً للشعراء على أن يقولوا فيمجدوا كما أشرنا إلى ذلك في مواضعه .

نسأل الله أن يذفع بعامنا ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، إنه أكرم مسؤول ،
وأعظم مأمول ما

المنهج الدراسي

للسنة الثانية بكلية اللغة العربية

١ - تاريخ الأدب في عهد بني أمية :

- ١ - سياسة الأمويين وأثرها في الأدب - انتشار اللغة وقيامها بمقتضيات الملك والسياسة - طرء اللحن والعمل على مقاومته -
- عناية الخلفاء والأمراء باللغة والأدب - النقد الأدبي والمناظرات الأدبية وأمثلة لها

- ب - النثر : الخطابة وأشهر الخطباء - الكتابة وأشهر الكتاب
- ح - الشعر : مميزاته وما طرأ عليه في أغراضه ومعانيه وأخيلته وأساليبه - طوائف الشعراء كالغزلين والهجائيين والسياسيين

٢ - تاريخ الأدب في عصر نفوذ الخلفاء العباسيين :

- ١ - امتزاج العرب بالعجم وآثاره في الحياة الاجتماعية والأدبية -
- ترجمة العلوم والآداب الأجنبية وأطوارها - وأشهر القائلين بها -
- القائلين الأجانب في اللغة العربية وآدابها - تولد العامية واختلافها باختلاف الأقاليم

- ب - النثر : الخطابة وأشهر الخطباء - الكتابة وأشهر الكتاب - الوقفيات
- ح - الشعر : عناية الخلفاء به ومنزلة الشعراء لديهم - مجالس الشعر والأدب - ما طرأ على الشعر في أغراضه ومعانيه وألفاظه وأخيلته وأساليبه وأوزانه - حسنات المولدين ومساوئهم

- د - النقد والموازنة وأمثلة لها - الرواية والرواة - الغناء وأشهر المغنين